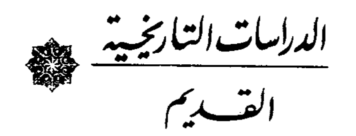
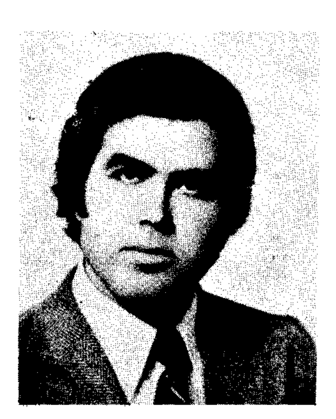
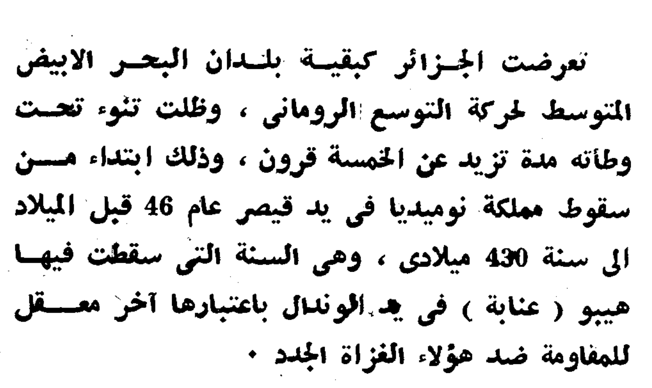
فهـــرس العـــــدد



التوسّع الروماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية

شنيتي محمد بشير
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة التاريخ ـ جامعة الجزائر




تعرضت الجزائر كبقية بلدان البحر الابيض المتوسط لحركة التوسع الروماني ، وظلت تنوء تحت وطأته مدة تزيد عن الخمسة قرون ، وذلك ابتداء من سقوط مملكة نوميديا فى يد قيصر عام 46 قبل الميلاد الى سنة 430 ميلادى ، وهى السنة التى سقطت فيها هيبو (عنابة) فى يد الوندال باعتبارها آخر معقل للمقاومة ضد هؤلاء الغزاة الجدد ٠

وقد ارتبطت السيطرة الرومانية بالاستغلال الاقتصادى المكثف ، الذى ركز على الزراعة بوجه خاص ، وقد ظهر ذلك جليا فى استيلاء الرومان على الارض الزراعية ، متتبعين فى ذلك سياسة التدرج فى اخضاع المناطق ، وانتزاع الارض من أصحابها ، وتسليمها للمعمرين (1) ٠

(1) هناك أوجه شبه عديدة بين التجربة الاستعمارية الرومانية والفرنسية في الجزائر٠

ولقد كان اهتمام الرومان بالارض ينطلق من اعتبارهم لشمال افريقيا (نوميديا خاصة) كخليفة اقتصادية هامة ، تساهم فى تغطية استهلاك روما من الحبوب · حيث أن الولايات الافريقية قد بلغ ما تزود به روما ثلثى $\frac{2}{3}$ حاجة الاستهلاك ، خلال العهد الامبراطورى الاول (2) · وهذه النسبة العالية ليست ناتجة عن الخصوبة التى بالغ الكتاب فى ابرازها فحسب ، بل تعود الى سياسة انتاجية كانت تقوم على مبدا الاستغلال الشامل لامكانيات الارض · وتجنيد الطاقات البشرية ، والثروة المائية ، لجعل الارض تنتج أكثر من أجل مواجهة الاستهلاك المتزايد ·

وقد كانت السياسة الزراعية فى الولايات تقوم على مبدا النوعية المطلوبة ، أى أن نوع المزروعات كان خاضعا لطلب القاعدة الاستهلاكية ، ومن ثم خصص الرومان مناطق للقمح وأخرى للكروم وأخرى للزياتين ، وهكذا ·

ولقد كانت الاعتبارات الاقتصادية دافعا قويا للتحركات العسكرية ضد المواطنين لارغامهم على الخضوع ، أو لاجلائهم عن أراضيهم ، ذلك أن الخطوات الاستعمارية التى تلى الانتصارات العسكرية كانت تستهدف الاستيلاء على الارض وانشاء المؤسسات المستغلة (المستوطنات) قصد مضاعفة الانتاج ، وتوسيع النطاق الجغرافى للهيمنة الرومانية ، وتضييق الخناق على السكان لشل حركة المقاومة فى أوساطهم · وهكذا لم تتوقف حركة التوسع الا عندما انغرست أقدام الجنود والمعمرين الرومان فى رمال الصحراء · وعندها أحكموا الحدود ، ونسجوا شبكة الاستغلال الزراعى باتقان ·

1 - التوسع الرومانى نحو الجنوب :

لقد اصطدم المد الرومانى نحو الداخل بمقاومة وطنية عنيفة ، بلغت خطورتها حدا جعل الرومان يفكرون فى خطة عسكرية تمكنهم من السيطرة الشاملة على البلاد ، واستئصال جذور المقاومة من أساسها ·

---

(2) أنظر Baradez (J.) : Foussatum Africae, p. 151.
Gascou (J.) : La politique municipale.

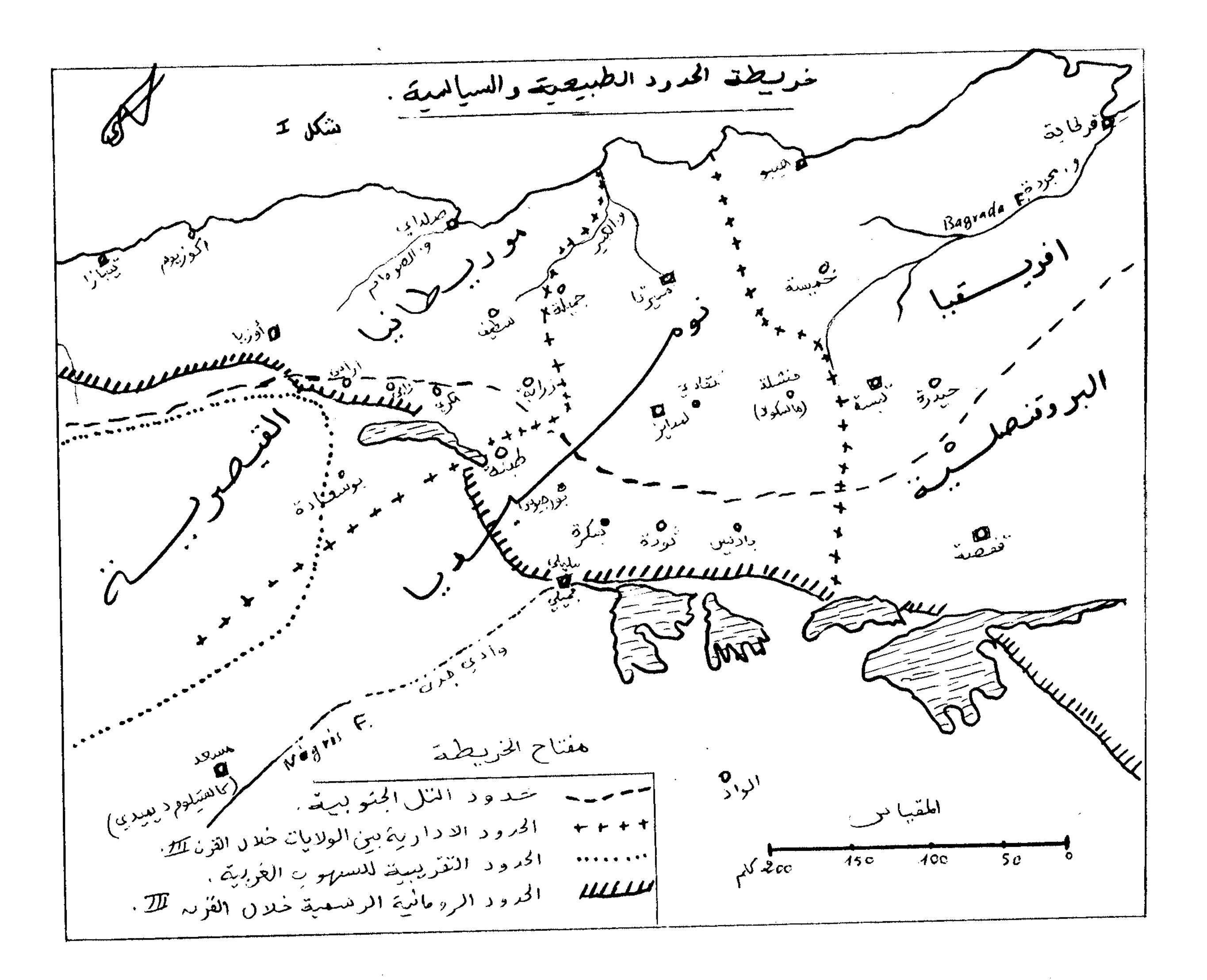
فالمقاومة كانت تستمد قوتها من الخلفية الجغرافية والبشرية الواسعة التى تمتد خارج الحدود الرومانية · أى مناطق الجبال والصحراء ، وهى مناطق تمثل امتدادا وطنيا واسعا لا ينضب معينه بالنسبة للمقاومة ، لأنها كانت تشكل خلفية ترابية وبشرية تنطلق منها الثورات وتعود اليها لاخذ المدد وتعميق الوعى بأهداف التواجد الرومانى في الشمال · ولنا فى ثورتى يوغرطة وتاكفاريناس الشهيرتين أمثلة واضحة على هذا التداعى الوطنى الهام ، حيث كانت المناطق الشمالية من البلاد بمثابة جبهات قتال متحركة يواجه فيها الثوار جحافل الجيش الرومانى فى معارك ضارية ، أو يغيرون على تجمعاته فى هجومات خاطفة ، بينما كانت المناطق الصحراوية تمثل عمقا ثوريا يلتجىء اليه الثوار كلما نال العدو من قوتهم (3) ·

أ ـ اختراق المناطق الجبلية :

لقد كانت المناطق الجبلية المتاخمة للحدود الرومانية بخلفيتها الصحراوية تعتبر فى أعين الرومان منطقة عسكرية واحدة ، ستبقى مصدر قلق دائم وخطر مستمر بما ينطلق منها من تحركات ثورية نعوق حركتهم الاستعمارية في السهول الزراعية بالشمال ، وتحد من توسعهم نحو الجنوب ، اذا لم يشرعوا فى تنفيذ خطة الاحتلال الواسع النطاق الذى يمكنهم من السيطرة على كامل المنطقة الجغراقية الحيوية الممتدة من البحر شمالا الى ما وراء السبخات (الجريد ـ ملغيغ ـ الحضنة) جنوبا ، أى مناطق الاستقرار البشرى القابلة للاستغلال الزراعى ·

الا أن المناطق الجبلية من الاوراس حتى ونوغة كانت تمثل حاجزا صعب الاختراق بالنسبة للرومان ، ومن ثم كانت الخطة تقتضى التصدى لهذه الاقاليم المستعصية لاخضاعها أو عزلها عن بعضها كى يتمكن المد الرومانى من تجاوزها نحو الجنوب ·

(3) اثبت ذلك الكاتب الرومانى سالوست Salluste ، عن يوغرطة ، والكاتب طاسيت Tacite عن تاكفاريناس ؛ Salama (P.) : Les voies romaines, p. 32.



خريطة الحدود الطبيعية والسياسية.
شكل I
قرطاجة
و. مجردة
Bagrada F.
افريقيا
البروتنصلية
حيدرة
تبسة
قفصة
خميسة
تيبسو
سرتا
نوميديا
خنشلة
(ماسكولا)
لمبايز
بادس
تهودة
بسكرة
موريطانيا
سطيف
جميلة
صلداي
و. الصومام
اكوزيوم
تيبازا
أوزيا
طبنة
بوسعادة
القيصرية
بسكرة
وادي جدي
مفتاح الخريطة
حدود التل الجنوبية.
الحدود الادارية بين الولايات خلال القرن III
الحدود التقريبية للسهوب الغربية.
الحدود الرومانية الرسمية خلال القرن III.
المقياس
0
50
100
150
200 كلم
الواد
مسعد
(كاستلوم ديميدي)

وحالما قمعت ثورة تاكفاريناس عام 17 م • بسقوط زعيمها فى معركة فاصلة بوادى الصومام (4) ، شرع الرومان فى تنفيذ الاستراتيجية الوقائية فى المناطق الجبلية الجنوبية التى كانت مسرحا لتحركات الثوار ، وذلك بانشاء شبكة من التحصينات تطوق المناطق الجبلية الخطيرة (5) ، واختراقها بطرق تمكن الفرق العسكرية من التنقل سريعا عبر تلك المناطق لمواجهة أى تحرك ثورى • (6)

غير أن المقاومة كانت تتصدى لتلك الطرق فتهدمها (7) ، الامر الذى حتم على الرومان أن يقوموا بانشاء شبكة من ابراج المراقبة والحصون على طول امتداد الطرق ، وبمسافات متقاربة (10 ـ 30 كلم) (8) تمكن من حراسة الطريق وتؤمن تنقل الدوريات بصفة منتظمة بين تلك النقاط • هذا ، فضلا عن الخندق (Foussatum) (9) الرومانى المشهور الذى كان يحاذى ، فى أغلب الاحيان ، تلك الطرق الاستراتيجية ، كحاجزدفاعى هام ضد الثوار •

ب ـ تحطيم البنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان :

يظهر أن شبكة الاختراق هذه لم تحقق الأمن الذى كان ينشده الرومان فى تلك المناطق ، لذلك شرعوا فى تنفيذ خطة أخرى أكثر جرأة من الاولى تمثلت فى العمل على

(4) لم يتمكن القائد الرومانى دولابيلا Dolabella من القضاء على الثورة الا بالالتجاء الى أسلوب تفرقة الصفوف ، وهو ما اتبعه سولا من قبل مع يوغرطة وبيجو الفرنسى مع الامير عبد القادر •

(5) من ذلك الخندق الذى كان يطوق جبال بوطالب الثائرة • انظر الاطلس الاثرى للجزائر St Gsell : Atlas arch. de l'Algérie, F. 26.
وكذلك Courtois (Ch.) : Les Vandales et l'Afrique, p. 121.

(6) نفس المصدر •

(7) أنظر Salama (P.) : Les voies romaines.

(8) أنظر Leschi (L.) : Rome et les Nomades... R.A (1942), p. 9.
وكذلك Despois (J.) : La bordure saharienne de l'Algérie Orientale, R.A (1492), p. 211..

(9) ان عبارة « خندق » العربية لا تؤدى المعنى الدقيق لعبارة (Foussatum) الرومانية ، فالفوساتوم الرومانى اصطلاح اطلع عن نوع من التحصينات العسكرية ممثلة فى خط دفاعى يكون أحيانا فى شكل خندق ، وقد يكون فى صورة مفاوز من التراب والصخور ، أو سور •

عزل السكان عن بعضهم ، وتحديد مناطق تواجدهم ، وترحيل بعضهم الى مـــا وراء السفوح الجنوبية لمرتفعات الاوراس والحضنة (10) . وهى خطـــة استهدفت قطـــع الصلة بين القبائل الجبلية المتضامنة من جهة، وفصلها عن القبائل السهبية والصحراوية من جهة ثانية ، ثم الحصول على أراضى زراعية جديدة تكون مجالا للاستيطان الجديد.(11)

ان خطورة هذه الخطة لا تتمثل فى تفكيك البنية الاجتماعية للسكان فحسب ، بل فى كونها أبعدتهم عن أرضهم التى توارثوها جماعيا منذ القدم (12) ، وحتمت عليهم نمطا معاشيا معينا تجسد فى تحول قسم كبير منهم الى حياة الترحل بين الجبـــــال والسهوب والصحراء (13) . ونتيجة لهذا التحول تعاظم عدد القبائل المتنقلة التى أصبحت تشكل ضغطا جديدا غير متوقع على الحدود الرومانية ، فتخترقها أحيانا أثناء تنقلاتها الموسمية ، وهو ما لم يكن يرضى الرومان بطبيعة الحال .

ان هذه النتائج تسببت فى تزايد القلـق الرومانى عـلى الحـدود حيث أصبحت تحصيناتهم مهددة بالتدمير ، ومؤسساتهم الزراعية عرضة للزوال ، ومن ثم كان عليهم أن يعملوا على استكمال سيطرتهم على البلاد ، حتى تبلغ تخوم الصحراء (14) .

وابتداء من أوائل القـــرن الثانى الميلادى ، وفى عـــهد الامبراطور تراجانوس (98 ـ 117) ، انطلقت الفرق العسكرية الرومانية فى حملات هامة على مناطق البدو فى رفارف الصحراء ، حيث أمر الامبراطور كلا من القائدين غلـــوس (M. Gallus) ونطاليس (M. Natalis) بالاشراف على تلك الحملات ، وذلك خلال المدة ما بين 102 ـ 105م

(10) أنظر : جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ج 1 (مترجم) ، ص 217 .

(11) نفسه ، وكذلك Despois (J.) : La Bordure Saharienne, pp. 211-212.

(12) أعاد الفرنسيون هذه التجربة الاستعمارية مع الفلاحين الجزائريين مدعين عدم اثبات الملكيات الجماعية بعقود شرعية .

(13) يعتقد Leschi (L.) أن الدفع بالقبائل الرحل الى السهوب والصحراء قد جعل منها قوة مهددة للرومان فى كل لحظة ، لانها كانت تنتظر العودة الى مواطنها مهما كـان السبيل الى ذلك ، أنظر مقاله السالف الذكر .

(14) ويعتقد Despois (J.) من جهته أن توغل « الليمس » (الحدود) الرومانى الى تلك الاعماق كان يشكل عامل ضعف مستمر بالنسبة للرومان ، أنظر مقاله السابق (La Bordure)

وقد أنشأ القائد نطاليس القـــاعدة العسكرية الشهيرة أد مايوريس (Ad Majores) الواقعة جنوبى نقرين عام 104 م (15) • وأشرف على انجاز الطريق الرابط بين هذه القاعدة وبين مدينة ثودة (Thabudeos) قـرب بسكرة ، وبذلك انتقـــل « الليمس » (الحدود) الرومانى من شمالى الاوراس الى جنوبيه (16) •

ان انتقال الحدود الرومانية الى ما وراء المرتفعات كان يستهدف التحكم فى الطرق والمعابر الرابطة بين الصحراء والتل ، حتى يتمكن الرومان من اتمام عملية الحجـــز البشرى التى شرعوا فيها منذ ثورة تاكفاريناس • ذلك أن نظرة فاحصة فى التوزيع الجغرافى للقلاع الرومانية وابراج الحراسة ومختلف التحصينات كالخنادق مثلا ، تجعل هذا التفسير أمرا معقولا ، فهى مقامة على مخارج الوديان المنحدرة من المرتفعات ، وعلى المحاور الرئيسية للمسالك الجبلية ، وبصفة عامة عند مخانق الطرق التقليدية بـين الصحراء والتــل (17) •

وما دام الامر متعلقا بتحطيم البنية الاجتماعية والاقتصادية للاهالى فان المنشآت العسكرية التى أنجزها الرومان هناك لم تكن ذات نفع ان لم تعقبها اجراءات تتعلـــق باستغلال الارض وتوسيع رقعة الاستيطان فى تلك الاقاليم الرعوية التى لا زرع فيها ، باعتبار أنها تقع فى عروض مناخية جافة (منسوب المطر يتراوح بين 200 و 100 مم) (18) لكن ذلك لم يكن ممكنا دون اجلاء السكان عنها ، والدفع بهم الى السهوب الغربية أو أعماق الصحرا • ومن جهة أخرى فقد اقتضبت تلك المطاردة اجراءات احتياطية أخرى للحيلولة دون عودة السكان الى مواطنهم بالقوة • وتمثلت الاجراءات الوقائية فى انشاء حزام عسكرى فى عمق الصحراء لمواجهة البدو ، ومراقبة تحركاتهم وتشتيت تجمعاتهم

---

(15) أنظر • Leschi (J.) : Rome, p. 2. وكذلك Gascou (J.) : La Pol...

(16) نفس المصدر • وكذلك • Baradez (J.) : Foussatum, p. 10.

(17) أنظر • Salama (P.) : Les voies romaines, p. 38.

وكذلك • Leschi (L.) : Rome et les Nomades, R.A. (1942), p. 8.

(18) رغم التغير النسبى للمناخ خلال المدة التى تفصلنا عن العهد الرومانى فـان منسوب المطر لم يكن أعلى بكثير مما هو عليه الآن ، أنظر كتاب « الحضنة (Le Hodna) لصاحبه Despois (J.).

كلما لاح خطرها . وقد جسم الرومان ذلك الحزام فى انشائهم لعدة حصون وقلاع عند المعابر الرئيسية بين الصحراء والتل . فحصن مجدل الذى شيد فيما بين 148 و 149 م (19) . يقع فى منطقة العبور بين الصحراء والسهوب الجزائرية الوسطى ، أى بين الواحات ومراكز العمران الهامة فى التل كسيدى عيسى والسور (Auzia) وبوغارى (20) . كما تعد قعلة مسعد (C. Dimmidi) المتوغلة فى الصحراء بمثابة رأس زاوية لمجموعة حصون أخرى تتوزع على ضلع ممتد من مليلى (جميلى (Gemellae) الى مسعد (21) ، مكونة لذلك المحور الدفاعى الهام ، والمتوزع عبر المرتفعات المشرفة على منخفض وادى جرى (Nigris F.) ، ومن أهمها حصن عين الريش ، والقهرة ، وسدورى (Auzum) (22) .

جـ ـ خطوط المواصلات فى الجنوب :

ومدد الرومان فى الطرق الواصلة بين المراكز العسكرية المذكورة آنفا لتعزيزها ودعم فعاليتها العسكرية ، ومن ذلك الطريق الرابط بين طبنة ومسعد عبر الماء الحى (Aqua viva) وسدورى والقهرة وعين الريش والبرج ثم مسعد . وهو طريق معبد ، تنطلق منه أو تنتهى اليه عدة طرق ثانوية عبر مرتفعات أولاد نايل والسهوب والصحراء مرورا بقصر نتسيله وقصر الفج والاغواط (23) .

وفى الجهة الشرقية تم تمديد طريق رئيسى معبد بمحاذاة الشطوط (الجريد ـ ملغيغ ـ الحضنة) ، انطلاقا من الطريق الرئيسى الهام (قابس ـ قرطاجة) ليصل الى طبنة ، وهى نقطة انطلاق الطريق الصحراوى الاول الآنف الذكر (طبنة ـ مسعد) ،

---

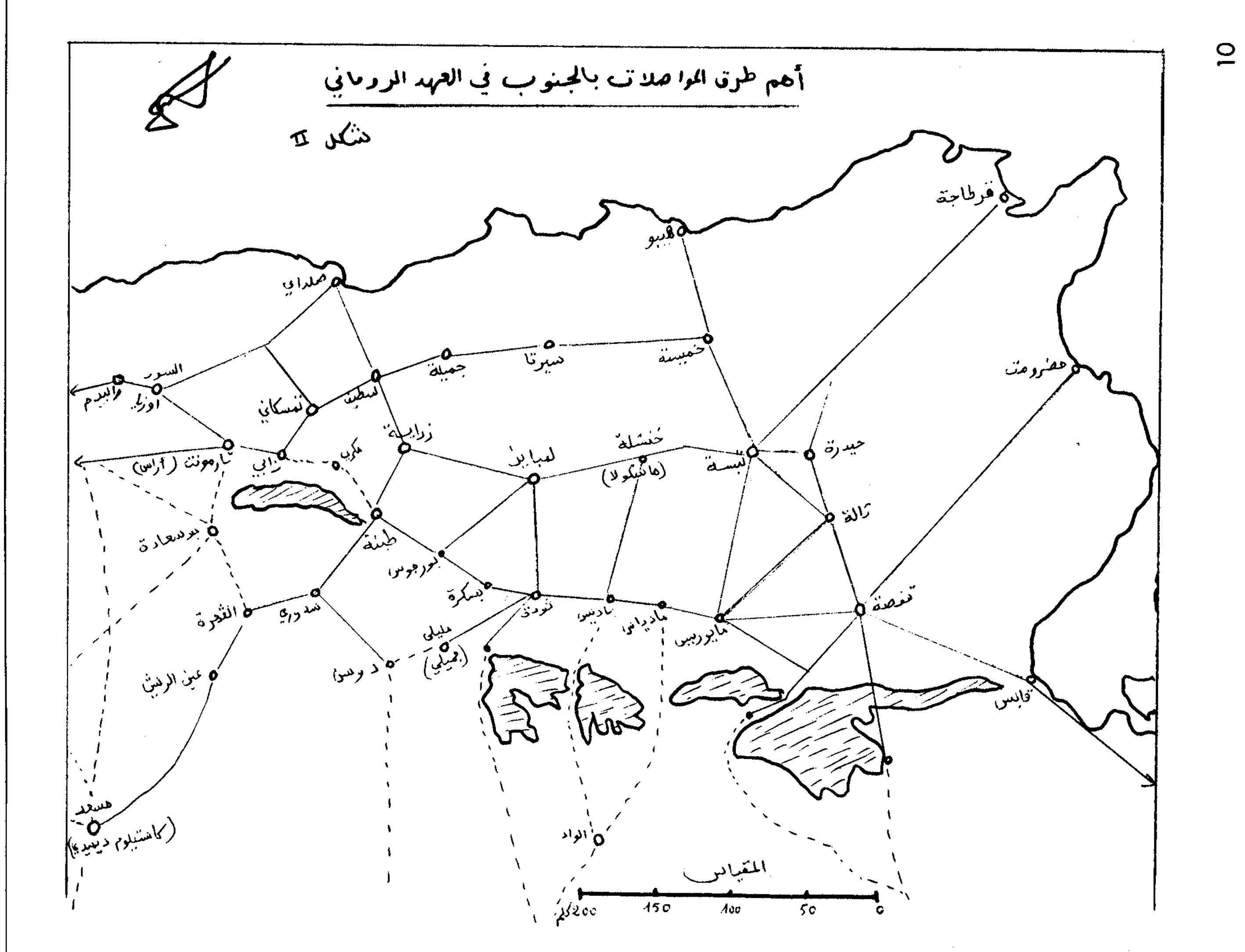
(19) أنظر : Despois (J.) : La Bordure, p. 212. وكذلك Leschi (L.) : Inscriptions de... Medjedel : Bulletin de com. (1938), p. 26.

(20) أنظر : Leschi (L.) : Rome et les Nomades... R. A. (1942)
وكذلك خريطة الطرق الرومانية لسلاما .

(21) أسست القاعدة العسكرية مليلى (Gemillae) عام 126 م ، بأمر من الامبراطور هادريانوس . أنظر : جوليان المصدر السابق ، ص 184 ، وص 187 .

(22) أنظر خريطة الطرق الرومانية السابقة الذكر .

(23) المصدر السابق .



أهم طرق المواصلات بالجنوب في العهد الروماني

شكل II

ثم يستأنف هذا الطريق العرضانى امتداده نحو الغرب من مكرى (Macri) (24) الى تارمونت (Aras) وهنا يفترق الى طريقين ، أحدهما بمحاذاة السهوب نحو تيارت ، والثاني ينحرف شمالا نحو السور ·

ودعم الرومان أو أسسوا على امتداد هذا الطريق العرضانى عدة مدن أو حصون أهمها قفصة (Capsa) الشهيرة ، وبسريانى (Ad Majores) وتديرت (A d Medias) وباديس (Badias) ، وثودة السالفة الذكر ، وبسكرة (Vescera) ، وطبنة · (25)

وكان هذا الطريق مرتبطا بالمراكز الرومانية فى الشمال بواسطة شبكة هامة من الطرق المخترقة للمرتفعات ، وأخرى ثانوية تتجه جنوبية ، أى نحو الصحراء الشمالية الشرقية ، وهذه الاخيرة لم تكن معبدة ، ومن ثم عفت آثارها وزالت معالمها ، بعكس الطرق الجبلية التى لا تزال بقاياها ماثلة الى الآن · ورغم هذا يمكن تتبع أثر بعض تلك المسالك الصحراوية كالمسلك المتفرع عن طريق ثودة ـ برج سعادة المعبد ، وهو مسلك يمر ببرج جفاير ويتوغل فى منخفض وادى ريغ ليصل الى توقرت ثم ورقلة · والمسلك المنطلق من تدريت (على الطريق الرئيسى العرضانى) مارا ببير محمد بن يونس حتى يصل الى الواد.ثم توقرت · وكذلك المسلك المنطلق من مدينة باديس فى اتجاه الواد أيضا عبر هنشير حماجة ، متتبعا مناطق الجفاف الهامشى بشرقى شط ملغيغ · هذا فضلا عن المسلك الصحروى الهام المتجه نحو غدامس (Cidamus) عبر بير رومان وانطلاقا من نفته (Nefta) الواقعة على الجانب الشمالى الشرقى من شط الجريد ، وقد كانت قلعة رومانية ينتهى اليها طريق معبد آت من قفصة ·

ومجمل القول ان تلك الشبكة الدفاعية ، بمختلف درجاتها ، مكنت الرومان من حماية الاقاليم الواقعة خلفها · ووضعها محل استيطان · ذلك أنه عندما تنتهى المؤسسة العسكرية من مهامها المتمثلة فى تشتيت السكان ، والاستيلاء على أراضيهم ، واقامة التحصينات فى وجوههم ، تشرع المؤسسات المدنية فى توزيع الارض على المعمرين.

(24) الادريسى الشريف ، كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، طبعة بريل (1968) · ص 93 ·
(25) أنظر ذلك فى خريطة الطرق الملحقة بهذا المقال ·

لاستغلالها ، وهذا ما تشهد به نقوش كتابية اكتشفت جنوبى شـط الحضنة بمركز روماني قديم يدعى حاليا القلعة El Guelaâ (26) ·

2 ـ حركة الاستيطان فى الجنوب ·

وأما حركة الاستيطان فيمكن ابرازها فى مظهرين ، أحدهما تاريخى ، يتمثل فى المراحل الكبرى التى قطعتها تلك الحركة الى أن بلغت هوامش الصحراء ، والمظهر الثانى منهجى ، ويتعلق بالاساليب المتبعة ، وفى الوسائل المادية التى ساعدت تلك الحركة على الاستغلال المركز لامكانيات الارض الواقعة تحت أيدى الرومان ، وبصورة قل مثيلها فى التاريخ ·

أ ـ الجانب التاريخى ·

لقد انطلقت حركة الاستيطان منذ سقوط المملكة النوميدية فى يد الرومان عام 46 ق·م· مجسمة فى امارة المرتزقة التابعين لسيتوس (Sitius) (27) الذين منحهم قيصر شمالى نوميديا ليستوطنوا فيه بقوة السلاح · وقد ساعدهم وضعهم العسكرى باعتبارهم مرتزقة حروب (جنود محترفين) على توسيع امارتهم ، فانتزعوا الاراضى الزراعية المجاورة من أهلها وأنشأوا فيها اقطاعيات هامة (28) ، وبذلك يعتبر مرتزقة سيتيوس أولى طلائع المعمرين فى نوميديا · (29)

وفضلا عن هذا النوع من الاستيطان غير الرسمى ، عرفت نوميديا أيام قيصر حركة استيطان رسمية ، تجسدت فى مستعمرات قدماء الجنود الذين منحهم قيصر أراضى نوميدية على طول حدود الولاية الرومانية (30) مكافأة لهم على خدماتهم المخلصة ،

(26) أنظر جوليان ، المصدر السابق · ص 184 ·

(27) حول هؤلاء المرتزقة ، أنظر شنينى م· بشير · سياسة الرومنة فى بلاد المغرب ، الفصل الخاص بالاحتلال الرومانى ·

(28) نفس المصدر ، الفصل الخامس ، وكذلك الخريطة رقم 4 الملحقة بالرسالة ·

(29) سرح قيصر حوالى 80 ألف جندى وكافأهم عن خدماتهم المخلصة بمنحهم أراضى فى الولايات الرومانية بأوروبا خاصة ·

(30) حول هذا الثائر الجرىء ، انظر شنينى م· بشير ، المصدر السابق ، الفصل الثانى·

وحماية لظهر الولايـــة الرومانية القديمة (أفريكافيتوس (Africavitus) من خطـــر الثورة التى كان يقودها الامير النوميدى أرابيون (Arabion) فى نوميديا • (31)

وأثناء خلو العرش الموريطانى (33 ـ 25 ق٠م) من الزعامة السياسية بعد وفاة بوكوس الاصغر ، انطلقت حركة الاستيطان على طول السواحل الجزائرية ، من الوادى الكبير (Ampsaga) الى تنس (Cartenae) • واستمر امتداد الحركة خلال عهـــد يوب الثانى وابنه بطليموس الذى تشير مسكوكاته الى اشتراكه فى عمليات تدشين المستوطنات بمملكته موريطانيا الموسعة • (33)

وابتداء من عام 42 م • وهو التاريخ الذى أنشأ فيه الرومان ولايتين موريطانيتين (القيصرية والطنجية) على أنقاض مملكة موريطانيا الصورية ، انفتحت الابواب على مصراعيها فى وجه المهاجرين الايطاليين الذين ساءت أحوالهم هنـــاك ، وضايقتهم الاقطاعيات الكبرى التابعة للارستقراطية الرومانية (34) • وأخذت ادارة الولايات الرومانية على عاتقها مهمة توزيع الارض الزراعية عليهم بعد انتزاعها من أصحابها • كما كان قدماء الجنود يستحوذون على الارض لانشـــاء مستعمراتهم ذات الطابـــع الزراعى ـ الدفاعى • (35)

وقد سجلت النصوص القديمة ، والنقوش الاثرية أخبار ترحيل السكان مـــن مواطنهم وتحديد مناطق تواجدهم بالاراضى الجرداء الرعوية (36) ، وهو ما أثار المواطنين الرومان ، حيث اندلعت ثورة شاملة وعنيفة ، ضمت تحت لوائها مختلف المجموعات البشرية ، موزولاميون ، وجيتوليون ، ونوميديون ، وموريون ، وحـــتى الغارامنت

---

(32) بعد وفاة بوكوس الثانى (الاصغر) وضـــع الامبراطور أوكتافيوس مملكة موريطانيا تحت الادارة الرومانية المباشرة ، ثم تراجع فوضع عليها يوبا الثانى كملك ، أنظر المزيد فى « سياسة الرومنة » •

(33) أنظر الفصل الخامس من المصدر السابق •

(34) انظر عبد اللطيف أحمد على ، التاريخ الرومانى ، عصر الثورة ، الفصل الاول •

(35) هناك نوعان من المستعمرات الرومانية : المدنية المقامة فى السهول الآمنـــة ، والعسكرية المتاخمة للمناطق العسكرية ، وخاصة بقرب المعسكرات •

(36) انظر جوليان ، المصدر السابق ، ص 217 •

الجنوبيون . وكان الثوار يطالبون باسترجاع الارض المغتصبة كشرط أساسى لتوقيف القتال (37) . وقد بلغت عملية انتزاع الاراضى أوسع نطاق لها أيـام الامبراطور تراجانوس الذى تمت فى أيامه السيطرة على معظم الاراضى الزراعية بالسهول العليا النوميدية ـ الموريطانية ، واشتدت فى عهده حركة انشاء المستعمرات ، ومد الطرق فيما بينها ، وتحصين الحدود كما سبق ذكره .

وفى عهد هادريانوس تواصلت الحركة جنوبا . ثم أخذ الاباطرة السفيريون على عاتقهم مهمة التوسيع الزراعى فيما وراء الاوراس ومرتفعات الحضنة ، أى فى سهول الحضنة والزيبان المحاذية للشطوط ، والملامسة لرمال الصحراء .

وقد وجد الرومان أنفسهم أمام السكان الذين كانوا قد أبعدوهم عن التـل ، فلاحقوهم مرة أخرى .

ب ـ الجانب المنهجى .

أما الجانب المنهجى فى حركة الاستعمار الرومانية فان طبيعة البحث تقتضى اختصاره فى مجالين اثنين ، أولها يتعلق باحياء الارض والتحكم فى الثروة المائية ، ويتمثـل الثانى فى « زيتنة » الزراعة بالجنوب .

ان استصلاح الارض كان أمرا حتميا نظرا لطبيعة الوسط الجغرافى غير الملائمة للزراعة فى تخوم الصحراء . فمنسوب المطر ضئيـل (100،200 مم) ، وموجات الحرارة ، والهبوب الرملة أحيانا . كلها أمور تعـوق الزراعة . غـير أن المظهـر المورفولوجى لتلك الاقاليم ، جعلها تتوفر على تربة فيضية خصبة ، انحدرت اليها من المرتفعات الشمالية . كما تمتاز بتعرضها لمجارى المياه المنحدرة من نفس الجهة ، وبهذه الميزة تصبح الزراعة ممكنة ، رغم عداوة المناخ ، اذا تم التحكم فى الميـاه الجارية أو الجوفية ، وتفريغ الاراضى من القطعان ، وتشجيرها بما يلائم المناخ مـن الاشجار المثمرة ، وعلى رأسها الزيتون والنخيل .

---

(37) انظر المصدر السابق وكذلك : Leschi (L.) : Rome..., p. 2

والحقيقة أن المخلفات الاثرية الرومانية ، التى اندثر معظمها بسبب عوامل الافناء الطبيعية منها والبشرية (38) ، تشهد بمنجزات زراعية عظيمة الاهمية ، نهض بهـا الرومان فى تلك الاقاليم الرعوية . وبما أن عنصر الماء كان يمثل الشريان الاساسى الذى يغذى الحياة هناك ، يمكننا ذكر بعض الامثلة عن المنشآت التى أقامها الرومان لاستغلال هذا العنصر الثمين ، معتمدين فى ذلك على البقايا الاثرية بطبيعة الحال . (39)

ففى منطقة الحضنة تم العثور على بقايا أثرية لسد كبير كان مقاما على وادى الحامة المنحدر من جبال بوطالب ، والمتجه نحو حوض الحضنة ، وهو سد كانت مياهه تزود مزارع فى المنطقة تنتج الزيتون والحبوب بدليل آثار المعاصر والمطاحن المكتشفة هناك، وقد عثر على العديد من بقايا الخزانات المعدة لتجميع المياه من أجل أغراض مدنيـة أو زراعية .

وعلى وادى رمضان المنحدر من نفس الجبال والمار بمدينة ماكرى (مقرى عنـد الادريسى) أقام الرومان منشآت هامة للتحكم فى المياه ، منها خزانات وقنوات رى ، فضلا عن بقايا الخزانات والمعاصر والمطاحن المنتشرة حوالى الوادى .

وما ذكرناه عن استغلال مياه وادى الحامة ورمضان يصدق عن بقية الوديان الحية المنحدرة من سفوح جبال بوطالب نحو الحضنة ، من ذلك أن بقايا سدود هامة تنتشر على روافد وادى بريكة العليا ، كتلك التى على وادى ملاح ، وبمنطقة رأس العيـون التى تنتشر فيها خرائب هامة لمستعمرة زراعية رومانية تشهد بقاياها بمدى الازدهار الزراعى الذى بلغته ، وهى تدعى حاليا خربة أولاد موسى (هنشير أخربت) . وبمنطقة وادى مساره (أعلى وادى بريكة) السهلية تتواجد أعداد هامة لبقايا عمرانية ، منها ما يتعلق بمنشآت الرى ، ومعاصر الزيت ، والمطاحن . وأهم ما فى الجهة مدينة نقاوس المسماة قديما نسفيبوس (Necevibus) نسبة الى قبيلة نسيفيس (Necives) التى يبدو أن نقاوس كانت حاضرتها الرئيسية . فهذه المدينة العريقة تزخر ضواحيهـا

(38) تمثل ذلك فى طغيان الرمال على المعالم الاثرية ، ومفعول الانجراف فيها ، بالاضافة الى استهلاك حجارة مبانيها من طرف السكان لاقامة مبانيهم الحديثة .

(39) أهم مصدر فى هذا المجال هو Atlas archéo. de l'Algérie St. Gsell

بمعالم أثرية متنوعة ، ذات دلالة واضحة على التقدم الزراعي الذى كان عليه اقليمهما . وقد جاء ذكر نقاوس في كثير من المصادر التاريخية القديمة ، منها النقوش الاثرية والسجلات الرسمية وفي النصوص الدينية العائدة الى فترة الصراع المذهبى (40) . مما يدل على شهرتها ومكانتها الاقتصادية آنذاك .

أما بجهات مسيلة فيكفي أن نذكر السدود التى شيدها الرومان على كل من وادى اللحم والقصاب (Piscense F.) (41) ، فعلى وادى اللحم لا تزال بقايا سد هام قرب برج الدجير ماثلة ، مع مجموعة من قنوات الرى ، بالاضافة الى آثار المعاصر والمطاحن . وتؤكد بقايا المعاصر ، فى هذا الاقليم المتصف بالجفاف حاليا ، على انتشار الزياتين به أيام الرومان . أما مياه وادى القصاب فقد تحكم فيها الرومان بواسطة سدود وقنوات . ففى شمالى مسيلة بحوالى كيلومتر ونصف تتوضع بقايا سد رومانى هام ، كان يمد منطقة زابى بالمياه الضرورية لرى البساتين ، وتموين الضياع ، ومنها مدينة زابى (Zabi) الشهيرة الواقعة الى الجنوب من مسيلة بحوالى أربع كيلومترات .

وتبعث البقايا الكثيفة لاعمال الرى ، فى هذه الجهة ، على الاعتقاد فى أن مياه الوادى كانت أكثر استغلالا ، وشبكة التحكم فى المياه أشد احكاما وشمولا من التى أقامها الفرنسيون فى هذا الاقليم (42) ، فهناك منشآت رى وسدود لا تزال بقاياها الى الآن على وديان جافة ، أو فى أراضى لا زرع فيها اليوم . من ذلك آثار مدينة كانت تنتشر مبانيها على مساحة أربع هكتارات تقريبا ، توجد على مشارف السبخة ، وتدعى خربة الرصاص ، لا تصل اليها مياه الوديان حاليا (43) ، مع أنها كانت مزدهرة الزرع والضرع قديما . كما أن هناك عددا كبيرا من الخرائب تتوضع شرقى مسيلة تؤكد نفس الاعتقاد .

---

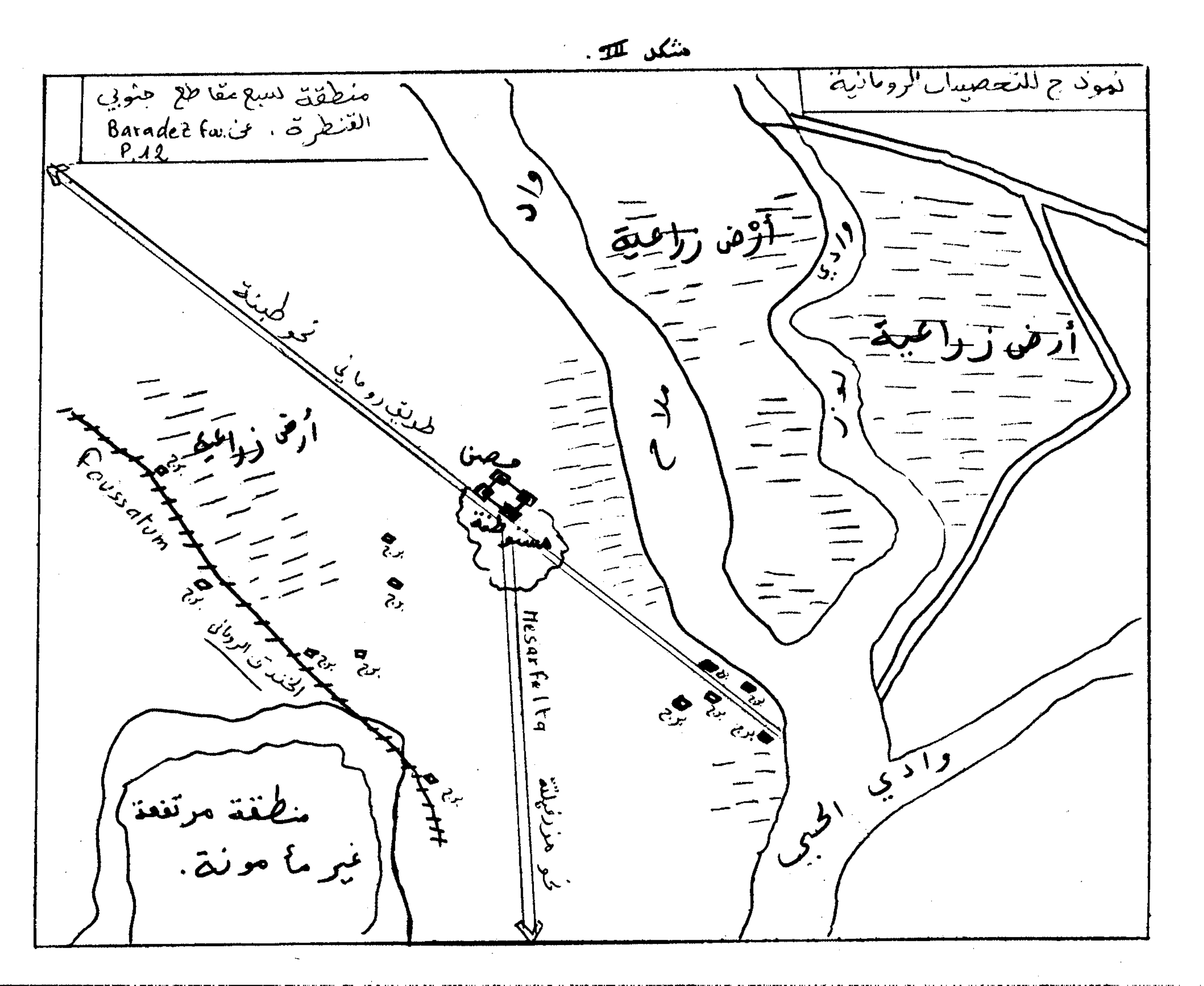
(40) نعنى بها الثورة الدوناتية ذات الاسس الوطنية التحررية ضد الكنيسة الكاثوليكية السائرة فى فلك السلطة الاستعمارية الرومانية .

(41) أخذنا بالتسمية المحلية (القصاب) مع أن التسمية الجارى بها كتابيا هى (القصوب) .

(42) لقد استفاد الفرنسيون من التجربة الرومانية فى هذا المجال بدليل أنهم قاموا بدراسات تاريخية عميقة فى المنطقة قبل أن ينفذوا منشآتهم فيها (سد ـ البايلك) .

(43) أنظر الاطلس الاثرى السالف الذكر .

شكل III.



نموذج للتحصينات الرومانية
منطقة لسبع مقاطع جنوبي القنطرة، عن Baradez fw. P.12
أرض زراعية
أرض زراعية
أرض زراعية
وادي
وادي الجدي
طريق روماني
نحو طبنة
حصن
مستوطنة
Mesarfelta
نحو مزرفلتة
Foussatum
الخندق الروماني
برج
منطقة مرتفعة
غير مأمونة.

واذا اتجهنا شرقا ، حيث السهول المحادية لمجارى الوديان ، فاننا نعثر على العديد من بقايا أعمال الاستصلاح وانتشار الزياتين . ويكفى ذكر نتف من ذلك عن مدينة طبنة (Thubu-Nae) العريقة وضواحيها ، فهى مدينة عتيقة تقع بين كل من وادى بريكة ووادى مزون ، تناقل أخبارها الكتاب القدماء ، واحتفظت النصوص الرسمية والنقوش بشيء من تاريخها (44) ، فقد بلغت مكانة مرموقة فى القديم بفضل وارداتها الزراعية الوفيرة نتيجة السيطرة على المياه واستغلال امكانيات الارض الزراعية . ونظرا لاهمية طبنة الاقتصادية والعسكرية اتخذها الرومان ثم البيزنطيون معسكرا هاما يشرف على تلك الجهات الجنوبية . وتنتشر فى ضواحى طبنة بقايا أثرية هامة من صنف منشآت الرى والخزانات والمعاصر والمطاحن ، خاصة منها تلك التى تتوزع على طول وادى مزوز المسمى فى أسفله بوادى بيطام .

أما منخفض القنطرة الاستراتيجى فيكاد يفوق غيره من حيث بقايا التجهيزات الزراعية المتمثلة فى السدود والقنوات وأعمال السقاية ، وتنظيم الحقول فى شكل زراعة بستانية كثيفة ، احتفظت ببعض أشكالها القديمة الى الآن .

ونظرا للاهمية العسكرية التى كانت تمثلها منطقة القنطرة المسماة قديما كالصيوس هيركوليس (Calceus Hirculis) ، فقد أقام الرومان مراكز عسكرية هامة وطرقا وخنادق وأبراج مراقبة على جوانب الاراضى الزراعية قصد حمايتها من الغزاة الجبليين أو القوافل العابرة لطريق القنطرة العتيق .

وتتزايد كثافة الآثار الزراعية فى المنطقة التى يشقها الطريق الرومانى الشهير الواصل بين قفصة وتارمونت ، وخاصة فى السهول الواقعة الى الجنوب الشرقى من مرتفعات مغراوة والملاح ، أى جنوبى مدينة الوطاية الحالية . (45)

ويلاحظ أن المياه المعدنية هى الاخرى كانت محل استغلال من طرف الرومان ، حيث أقاموا لهم منشآت صحية واستجمام على حمام الصالحين الذى كان يسمى عندهم أكوا بيسكينا (Aqua Piscina)

(44) نفس المصدر .
(45) لا تظهر هذه الآثار للنظر الرأسى المجرد الا بالتصوير الجوى .

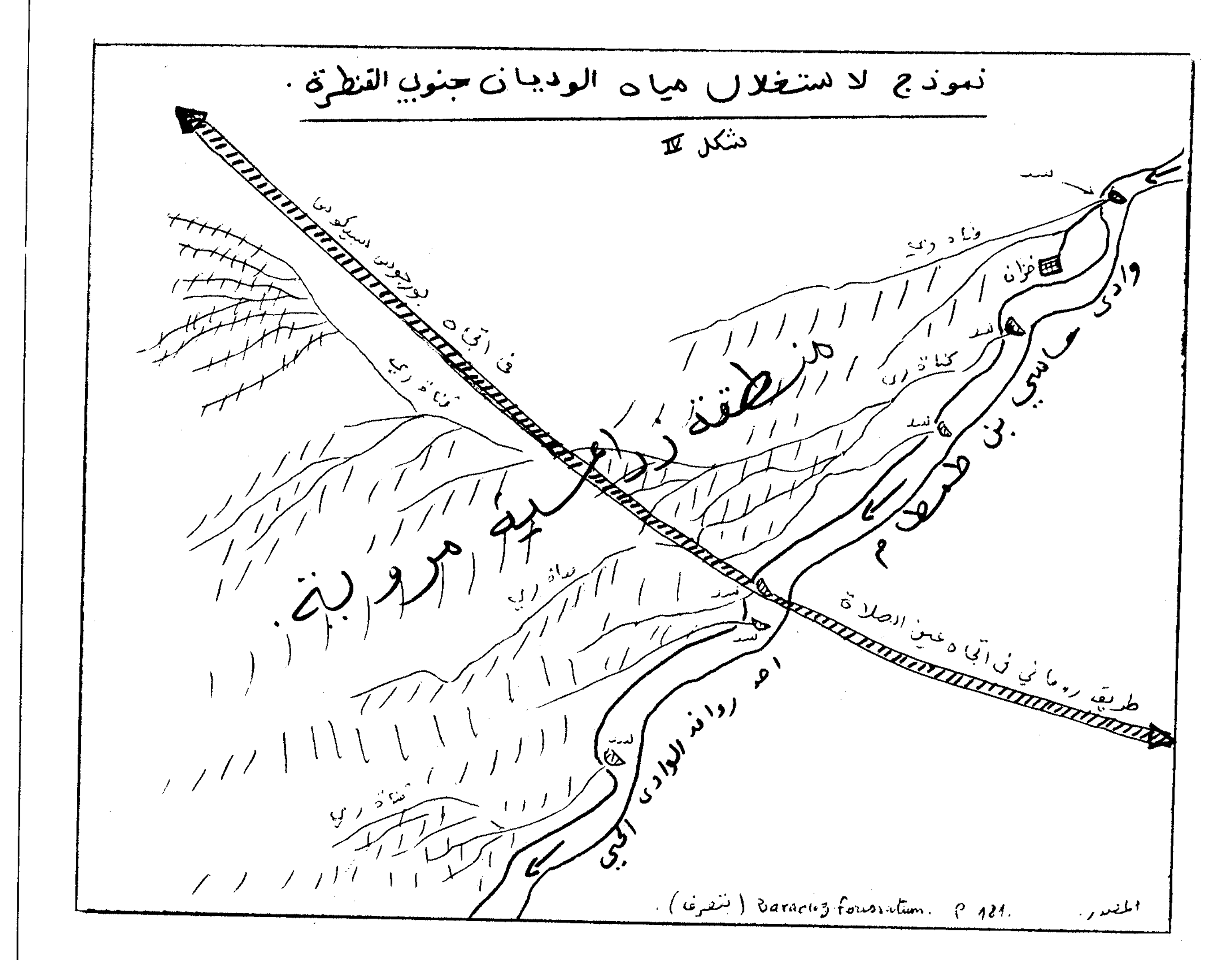
وما بقي بارزا من آثار منطقة مليل (جميل (Gemellae)) التي غمرتها رمال الصحراء ، يمكننا من تصور واضح لحياة استقرار هامة كانت قائمة على استغلال زراعي جيد أساسه التحكم في المياه الجارية والجوفية معا ، بدليل بقايا السدود ، والقنوات ، والآبار على وادي جدي • ولعل خندق الساقية قد أقامه الرومان بهدف المحافظة على الاراضي الزراعية ومواطن الاستقرار بمنطقة مليل ، وان كان بعض الباحثين يفترض أن الساقية كانت فعلا ساقية ري حفرت على وادى جدى • (46)

وعلى مخرج وادى الابيوض ، وشمالى سيدى عقبة ، أقام الرومان منشآت رى لتغذية منطقة سيدى عقبة بالمياه ، مما سمح بقيام زراعة هامة ومراكز استقرار ، أشهرها مدينة ثودة الواقعة شمالى مدينة سيدى عقبة الحالية ببعض الكيلومترات ، وهى مدينة هامة كان ينتشر حولها العديد من المزارع والمستعمرات على امتداد الاراضى المحادية للوادى •

وقد أشاد الكتاب القدماء بالازدهار الاقتصادى الذى حققته ثودة وبكثافة العمران المنتشر فى ضواحيها (47) ، كما تشهد النقوش وفسيفساء الحمامات والقصور على مدى الثرى ، وحياة الترف التى كان عليها سكان تلك الحواضر ، والتى لم يكن يقل عددها عن مائة قرية أو ضيعة (Bourgades) • (47)

وعلى وادى العرب المنحدر من الاوراس تتوضح بقايا آثار حاضرة هامة من حواضر الجزائر العتيقة ، هى باديس (بادس عند الادريسى) ، وهى مدينة زراعية هامة استمدت شهرتها من مواردها الزراعية الوفيرة ، ومن كونها مركزا عسكريا هاما على الطريق الرومانى الجنوبى • ولا تزال بقايا السدود والقنوات ماثلة للعيان شمال المدينة ، عند خنقة سيدى ناجى خاصة ، وتشهد بقايا معاصر الزيتون والمطاحن الكثيرة على التنوع الزراعى الذى كان قائما فى ذلك الاقليم •

(46) St. Ssell المصدر السابق •
(47) نفس المصدر •



نموذج لاستغلال مياه الوديان جنوب القنطرة .
شكل IV
منطقة زراعية مروية .
خزان
سد
قناة ري
المصدر . Baradez Fossatum. P 181. (بتصرف) .

وفيما يتعلق بالاعمال الفنية للرى فى تلك الجهات ، فاننا نجهل الكثيـــر منها لاندثارها ، غير أن التصوير الجـــوى الـــذى قام به العقيد باراديز (Baradez) (48) قصد الكشف عن الخندق الرومانى بتلك المناطق ، أظهر لنا بعض المعالم المتعلقـــة بالرى ، يمكننا وصف احداها بايجاز ، وهى على وادى الحى (Aqua viva) بجنوبى القنطرة ، فقد أبرزت الصور الجوية بقايا لشبكة رى قائمة على روافد الوادى ، ومعالم للبساتين المقسمة هندسيا بحسب ما يقتضيه الوضع الطبوغرافى للحقل ، كمـا أظهرت لنا اتجاه قنوات الري وتوزعها ضمن الحقول ، بالاضافة الى تصطيب الاراضى المائلة من أجل حفظ تربتها من الانجراف ، وتمكين المياه من تغذية المزروعات فيها بكيفية شاملة (شكل 3 ، 4) ٠

أما المزروعات ذات الاعتبار الاول فهى الحبوب والزياتين ، وعلى الرغم من وفرة انتاج الحبوب فى تلك المناطق الجنوبية آنذاك ، حيث يذهب بعض الباحثين الى القول بأنه كان يفوق نظيره الحالى بعشرين مرة (49) ، فان زراعة الزيتون هناك تعتبر ذات قيمة تاريخية خاصة ٠ ذلك أن نقل الرومان لشجرة الزيتون الى الجنوب لم يكن بطريـــق الصدفة العمياء ، ولا الفضولية الطائشة ، بل ان ذلك يجسم سياسة زراعية واعية كانت « الزيتنة » احدى دعائمها الاساسية ٠ وقد كان الاهتمام منصبا على هذا النوع من الزراعة منذ أوائل القرن الثانى الميلادى عندما أخذت عمليات الغرس تتـــوسع فشملت سهول التل ذات الخصوبه المحدودة ٠ ثم انحدرت المغروسات جنوبا فعمت جهة قفصة وسفوح الاوراس الشمالية فالجنوبية ، ثم رفارف الصحراء (50) ٠ وقد كان الاباطرة يشجعون هذه العملية بمنحهم رخصا خاصة لزارعى الزيتون فى حقولهم فى حين كانت زراعة الكروم محظورة بالولايات الافريقية ٠

واذا كان نجاح شجرة الزيتون فى تلك المناطق يجسد انتصارا للانسان عـــلى الطبيعة القاسية ، فهو يجسم لنا كذلك نجاحا للسياسية الاستعمارية الرومانية هناك٠

(48) تعد أعمال العقيد بارادير وحيدة فى مجال الكشف الجوى عن الآثار مـــع أن التقدم فى هذا المجال قد بلغ أشواطا فى العالم ٠

(49) أنظر : Baradez (J.) Foussatum..., p. 202.

(50) أنظر : Camps (H.F.) : L'olivier et l'huile dans l'Afrique romaine, p. 29.

ذلك أن تشجير المناطق الرعوية كان يتطلب القضاء على البنية الاقتصادية والاجتماعية فيها ، والتي كانت قائمة على الفلاحة التقليدية والرعي ، ومن ثم كانت أولى الخطوات تقتضي ازاحة ذلك النمط المعاشي (51) ، ومنع السكان من التردد نهائيا على المناطق المشجرة زيتونا • « فالزيتنة » اذن تشكل بالنسبة للرومان زحفا مستمرا ضـــد الفلاحين التقليديين ومربي الماشية • ومن ثم فمفعولها لم يكن أقل خطرا من مفعول الجيش الروماني فى مجال توسيع بساط « الرومنة » •

ثم ان زراعة الزيتون كانت توفر شغلا موسميا لكثير من اليد العاملة الرخيصة ، وبالتالى فهى وسيلة تشغيل لعدد من السكان الذين كان بعضهم يختار الاستقرار بجوار مزارع المعمرين ، وهو ما كانت تنشده سياسة الاباطرة فى تلك الاقاليم لان طبيعة الترحل كانت تهدد منشآتهم بالزوال فى كل وقت • (52)

ومن جهة أخرى ساهمت زراعة الزيتون في حواف الصحراء على الحد من قساوة المناخ ، وتلطيف الطقس ، وحفظ التربة من خطر الانجراف الداهم • كما ساعدت على توفير مادة الزيت المرغوب فيها فى تلك المناطق ، وخاصة من طرف سكان الصحراء • أى أن الازدهار الزراعى بجوار الصحراء مكنت منتجاته المتعددة والوفيرة من تزويد الاسواق الصحراوية بما تحتاجه من المواد الغذائية التى كانت القوافل تشد اليها الرحال لجلبها من مناطق انتاجها بالتل ، ولنا فى كثرة المعاصر والمطاحن ما يقوى هذا الاحتمال ، خاصة وأن معابر القوافل ، نحو التل ، كانت صعبة الاجتياز بالنسبـة لتجار الصحراء لكونها تخضع لاجراءات رومانية ، كالرقابة ، والاتاوات المرتفعـــة ، والمصادرة أحيانا •

هذا وقد ظلت غابات الزيتون تغطى مساحات شاسعة فى المناطق المتاخمة للصحراء الى الفتح الاسلامى مشكلة أهم مورد اقتصادى للسكان (53) ، وهو ما أكدته روايات

---

(51) نفس المصدر •

(52) ان حالة الترحل كانت تشكل عنصر شغب دائم بالنسبة للاستعمار الرومانى ، على اعتبار أن حياة الاستقرار تساعد على التحكم في السكان فى حين أن البدو لا يخضعون لاية سيطرة •

(53) تشهد قصة ابن عبد الحكم حول « الزيتونة » على ذلك •

الكتاب العرب الذى أجمعوا على القول بكثافة عمران المنطقة وبازدهار غاباتها الوارفة الظـــلال ٠

3 ـ علاقة الرومان بالصحراء ٠

ينطرح علينا أخيرا سؤال مهم ، وهو الى أى حد بلغت علاقة الرومان بالتجمعـــات السكنية فى الصحراء ، وخاصة منها الواحات المنتشرة فى منخفض الصحراء الشمالية الشرقية الجزائرية ؟

ان ضعف الدلائل الاثرية ، وندرة الوثائق الكتابية القديمة المتعلقة بهذا الموضوع تجعل الدارس يميل الى الجزم بعدم قيام هذه العلاقة أو بضعفها ٠ غير أن الارتبـاط الجغرافى بين الصحراء والتل ، والتكامل الاقتصادى الذى لا ينفصم بينهما ، يجعل العلاقة بين هذين الاقليمين أمرا حتميا لا مفر من الاقرار به ، بغض النظر عن طبيعـة هذه العلاقة ومحتواها ٠ فالوحدة البشرية بين سكان الصحراء الشمالية الشرقية وسكان التل لم تعرف حدودا (54) ، ذلك أن قبائل الجيتول قديما كان بعضها يستوطن الاوراس والبعض الآخر يجوب الصحراء الشمالية الشرقية والسهوب ، وقد أشرنا فى الصفحات السابقة الى التداعى الوطنى ، ومدى الاستجابة التى عمت تلك المناطـق أثناء حركات المقاومة التى نهض بها النوميديون فى الشمال ضد التوسع الرومانى فى مستهل العهد الامبراطورى ، ذلك التداعى الذى يؤكد النخوة الوطنية والتناصر القبلى الذى لا يبرره سوى الاحساس بالوحدة الترابية والمصير المشترك ٠

وقد أدرك الرومان خطورة هذه الظاهرة التى ظلت تهدد مؤسساتهم فى كل لحظة ، فبنوا علاقتهم بالاقاليم الصحراوية والسهلية على أساس عسكرى ، تمثل فى تلـك الحصون المتقدمة والمشرفة على المسارات الرئيسية بين مناطق التردد البشرى ، وخاصة بين الصحراء والتل الخاضع لسيطرتهم ٠

---

(54) أنظـر : Despois (J.) : La Bodure Saharienne...

فالعلاقة اذن كانت خاضعة لمبدا المحافظة على المكاسب الرومانية فى الشمال مع الاستفادة من تجارة الصحراء . وهكذا فعلى الرغم من أن الطبيعة الصحراوية حالت درن تواجد رومانى بشرى فى الواحات ، الا أن هذه كانت تشكل أسواقا هامة للتبادل التجارى مع الشمال الخاضع للسيطرة الرومانية .

غير أن الصحراء والسهوب الجزائرية ظلت محتفظة بالمجموعات البشرية الغاضبة على الرومان ، والتى كانت تتحين الفرص لتمزيق الشبكة العسكرية الرومانيــة ، وتدمير الحواجز الاستعمارية ، واسترجاع الارض المغتصبة بقوة السلاح .

مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد

د ٠ احسان عباس
الجامعة الامريكية ـ بيروت



بين سنتي 332 ـ 336 كانت الدولة الفاطمية أو العبيدية في افريقية مهددة بالزوال على يد ثائر من زناتة، نكاري المذهب ، هو أبو يزيد مخلد بن كيداد الذي عرف بصاحب الحمار ٠ وكانت ثورته من اشد ما واجهه الفاطميون في تاريخهم من عنف ، لكن دراسة هذه الثورة في تطورها ونتائجها ليست موضوع هذا البحث ، وانما اكتفى هنا بدراسة تقييمية للمصادر التي تحدثت عن تلك الثورة ٠

وأول ما يجذب انتباه الدارس أن المصادر التى تحدثت عن أبى يزيد وثورته تنتمى الى ثلاث زوايا متباعدة ، وهى الزاوية الاسماعيلية الشيعية ، والزاوية السنية ، والزاوية الاباضية ٠ وربما لم تكن هذه القسمة المذهبية تستدعى ـ فى

ذاتها ـ فروقا فى النتائج ، غير أن تعيين الانتماء المذهبي للمؤرخ ـ مع معرفة موقعه زمنيا ـ يعين على تصور منهجه وأحكامه ٠

1 ـ المصادر الشيعية الاسماعيلية

تتميز المصادر الشيعية والاسماعيلية عن أبى يزيد وثورته بانها أقرب المصادر الى عصره ، ولذلك أعطت للمؤرخين المتأخرين ما حسبوه مجموعة الحقائق التاريخية التى لا يملكون لها مناقشة أو رفضا اذ كانوا فى أكثر الاحيان نقلة ٠ فابن حوقل التاجر البغدادى (ـ 380) ربما كتب ما كتبه عن أبى يزيد بعيد عام واحد من اخفاق ثورته ؛ ومع انه جاء على ذكره فى أسطر قليلة ، فان المفهوم الذى تضمنته تلك الاسطر بقى ذا صدى يتردد فى كثير من المصادر ؛ فتصويره لابى يزيد بانه « من أهل سماطة ومن فراعنتهم » (1) سيرد حتى فى المصادر الاباضية (2) ٠ وقد لخص ابن حوقل فى جملة واحدة الروح التى سيظل يحكم بها على أبى يزيد وثورته حين قال « واتسق له من الظلم والعدوان ما جعل الله بغيه نكالا عليه » ٠ (3)

ويمثل كتاب « فنون المعارف وما جرى فى الدهور السوالف » للمسعودى (ـ 346) أول مصدر مشرقى تفصيلى فيما يتصل بثورة أبى يزيد ، وقد ألف هذا الكتاب قبل « التنبيه والاشراف » اذ فرغ المسعودى من هذا الثانى فى صورته النهائية سنة 345 ؛ وقد شرح المسعودى فى كتاب فنون المعارف « خروج أبى يزيد وما كان بينه وبين جيوش أبى القاسم من الوقائع والحروب الى أن غلب على أكثر افريقية ، وحصاره أبا القاسم فى المهدية الى أن مات بها ، وخروج ابنه اسماعيل بن أبى القاسم ومواقعته أبا يزيد وما كان بينهم من الحروب ، وانفضاض الجيوش عن أبى يزيد ٠٠٠ الخ » (4) ٠ ولسنا نعرف المصادر التي اعتمد عليها المسعودى فى تاريخ تلك

(1) صورة الارض : 94 ٠
(2) انظر تاريخ أبى زكريا (الترجمة الفرنسية) : 240 ٠
(3) صورة الارض : 94 ٠
(4) التنبيه والاشراف : 334 ٠

الاحداث ، كما لا نعرف مدى التفصيلات التى أوردها ، اذ لا يشير أحد بعده الى النقل عن كتابه « فنون المعارف » ٠

ومع أن كتاب « سيرة الاستاذ جوذر » لابى على منصور الجوذرى خادم جوذر ربما لم يكن ثالثا فى الترتيب من حيث تاريخه فان المادة التى احتفظ بها ـ وهى فى أكثرها وثائق فاطمية ـ تمثل آخر عهد القائم وجانبا من عهد المنصور ، كخطبة القائم التى ألقاها المروزى أيام حصار المهدية حول « اللعين النكارى » (5) وخطبة المنصور حول انتصاره فى وقعة يوم الجمعة بالقيروان (6) ، ووصف الايام الاخيرة من الصراع بين المنصور وأبى يزيد (7) ٠ ومما يلفت النظر أن هذه البيانات الرسمية رغم اعترافها بأن أبا يزيد نكارى لا تزال تسمى أصحابه « الحرورية » حينا و « الازارقة » حينا آخر، وتربط بين موقفه من الخلافة الفاطمية وموقف الخوارج من على بن أبى طالب ، ولعل أبا زكريا الاباضى نفسه كان ـ من بعد ـ يستلهم هذا الموقف حين تحدث عن التدمير الذى أحدثه أبو يزيد وعن أخذه الاطفال عبيدا وشفع ذلك بقوله ان سلوك نافع ابن الازرق كان كذلك الا أن أبا يزيد كان أشد اسرافا (8) ٠ أما تسمية أبى يزيد باللعين الدجال أو اللعين بن اللعين فى تلك البيانات ، فهى غير مستغربة من مصادر تتحدث عن ثائر قام يحطم خلافة أسسها « المهدى » عدو الدجال اللعين ٠

وتلك هى التسمية التى أطلقها القاضى النعمان بن محمد (ـ 263) فى كتابه «رسالة افتتاح الدعوة» حيث قدم تلخيصا جيدا للخطوات التى سارت فيها ثورة أبى يزيد (9) ، حسبما يمكن أن يتضمنه كتاب يجمل الموقف بعد وفاة المهدى اجمالا سريعا لا يسمح بكثير من التفصيلات ، خصوصا وأن القاضى النعمان استقصى أخبار أبى يزيد وحدها فى كتاب ضخم (10) ؛ وهناك ما قد يطمئن الدارس الى أن هذا الكتاب لم يضع ، وان صورته على نحو ما ـ ربما كان كاملا ـ موجودة فى الجزء الخامس من كتاب « عيون الاخبار » للداعى ادريس ؛ فهذا المؤلف قد سمح لنفسه بنقل كتاب

(5) (6) (7) سيرة الاستاذ جوذر : 54 ، 44 ، 48 ٠
(8) تاريخ أبى زكريا : 236 ٠
(9) رسالة افتتاح الدعوة : 277 ـ 279 ٠
(10) انظر المصدر السابق : 279 ٠

افتتاح الدعوة كاملا ولهذا لا يستبعد أن يكون قد نقل أيضا كتاب القاضي النعمان عن ثورة أبي يزيد كاملا كذلك (11) ، واذا كان يرد فى هذا الكتاب بين الحين والحين فقرات مصدرة بـ « قال القاضي النعمان » فليس معنى ذلك أن سائر الكتاب ـ عـدا تلك الفقرات ـ من وضع رجل آخر • بل ان هذه الفقرات لتؤكد أن الكتاب كله من تأليف المؤلف المذكور اذ أنها لا تجيء فى فواتح تلك الفقرات الا لتسجل رواية مباشرة كان القاضي النعمان طرفا فيها ، أى هى تتميز عن الاخبار الاخرى التى نقلها القاضي رواية عمن شهدوا تلك الاحداث ، أو التى استخرجها من الوثائق • ويتميز هذا الكتاب بخصائص كثيرة أظهرها تلك الصفة التفصيلية التى لا يضاهيه فيها أى مصدر آخر ، فهو كتاب يكاد يؤرخ ثورة أبى يزيد شهرا اثر شهر ، ويكاد الالحاح على عمليات الكر والفر ، لكثرته ، يضيع على الدارس قدرته على التصور للمواقف الحاسمة التى مرت بها تلك الثورة ، كما قد يحرمه من ايجاد تعليل واقعى لحركات الانتصار والانهزام ، اذ تغدو الحروب ـ فى نظر هذا المصدر ـ عملية آلية محضا ، ويلتف الناس حول أبى يزيد أو يتفضون عنه ، ويقوى أمره أو يضعف دون أن يكون هنالك علة مقنعة فى كل ذلك • ويبدو أن هذا المصدر أفاد كثيرا من الوثائق الفاطمية ، اذ أننا نجد فيه جميع البيانات التى وردت فى « سيرة الاستاذ جوذر » ، فهو من هذه الناحية حاول أن يكون وثائقيا ولكن من زاوية واحدة • وقد يقال ـ دون تردد ـ انه أخطر مصدر تناول شخصية أبى يزيد وثورته لانه طبع بطابعه أكثر المصادر التى جاءت بعـــده ، ورسخ ما شاء أن يرسخ من معلومات حول تلك الثورة وصاحبها ؛ فهو الذى أخضع حركة التاريخ للرؤيا التنبؤية حين زعم أن المهدى كان يعرف ـ بعلم سابق ـ أن «اللعين الدجال » سيعلن الثورة ، ومن اجل ذلك بنى المهدية ومـــلأ أهراءها بالطعام ، ومـن أجل ذلك لم يعبأ القائم بمقاومة أبى يزيد لانه كان يعلم أين يبلغ فى ثورته • وهذا المصدر هو الذى حدد المبادىء التى كان يدين بها أبو يزيد وأضفى عليه من استباحة القتل

(11) تحتل ثورة أبى يزيد فى هذا الكتاب من 356 ـ 706 ، واذا صح هذا الفرض ، فان هذا الكتاب شيء مختلف أيضا عن « ذات المحن » وهى منظومة تتحدث عن تلك الثورة ، انظر تعليق محققة افتتاح الدعوة : 279 (الحاشية 2) •

ما يقف المرء مترددا فى تقبله ، بل هو الذى نسب حتى الى صاحبه أبى عمار الاعمى انكار ذلك عليه بشدة ، وأغرب من ذلك أنه نسب اليه من استباحة الفروج من القصص التى انحدر بعضها الى المصادر التالية ما يسلبه كل حصافة فى النظرة السياسية لدى الاولياء والاعداء على السواء ويجعله أقل الناس فهما للعادات والتقاليد ، ولا ريب في أن هذا المصدر حين يلح على هذه الناحية يفضح خطة متعمدة للتشويه ، معتمدا ناحية شديدة الحساسية عند العرب والبربر فى تهجين ثورة أبي يزيد • ومما يقوى الشك فى نوايا هذا المصدر اشارته الدائمة الى أصحاب أبي يزيد باسم « البربر » مع أننا نعلم أن أكثر الملتفين حول الخلافة الفاطمية العبيدية كانوا يومئذ من كتامة وصنهاجة ، وهم أيضا من البربر ؛ فهذا التمييز ربما كان يعنى من طريق العصبية المفتعلة أن كل من كانوا يشايعون الدولة الفاطمية كانوا عربا بالانتساب ، وان كانت أصولهم بربرية • ويعد هذا المصدر مرجعا هاما للصورة الادبية التى واكبت ثورة أبى يزيد ؛ ولكن اذا أمعن الدارس النظر وجد أن هذا المصدر قد أهمل أمورا هامة منها : أنه لم يعن كثيرا بايراد وصف دقيق عن أولية أبى يزيد ونشأته ودراسته وصلته بمصر • والاماكن المقدسة والخطوات التمهيدية التى أدت الى الثورة ؛ ومنها اغفاله الحديث ـ تعمدا فى ما يبدو ـ عن الدور الذى قام به فقهاء المالكية القيروانيون فى ثورة أبى يزيد • ومما يوضح التناقضات التى يقع فيها هذا المصدر ما حكاه عن دور خليل بن اسحاق (أو خليل بن عدنان) فهو يختلق المعاذير لتصرفات خليل ثم لا يلبث أن ينسى ذلك كله فيحمله اللائمة فيما وقع فى القيروان • ولما كان خليل من أكبر انصار الفاطميين فان تناقض فعله مع ما كان ينتظر منه أوقع المؤلف فى شيء غير قليل من التردد ازاء ادانته النهائية • والى هذا المصدر الهام يرجع ذلك الحوار « الدرامى » الذى رددت المصادر بعضه من بعد بين المنصور وأبى يزيد حين وقع أبو يزيد فى أسر الخليفة الفاطمى •

ان هذا الكتاب الذى أعتقد أنه من تاليف القاضى النعمان قد أدى اكبر دور فى اقرار الصورة الكلية العامة لابى يزيد وثورته من شتى النواحى •

2 ـ المصادر السنية

لعل أكبر مؤثر في توجيه هذه المصادر عاملان هما : قربها أو بعدها الزمني من ثورة أبي يزيد ، وطبيعتها في النظر الى الاسماعيلية بعامة وتلك الثورة بخاصة ·
وقد تأثرت المصادر السنية المشرقية بكتاب يبدو انه ألف في دور مبكر للرد على الاسماعيلية ومؤلفه هو أبو عبد الله ابن رزام الذى كان ما يزال حيا في عهد أبي تميم معد (12) (341 ـ 365) وقد لخص ابن النديم (ـ 388) في « الفهرست » بعض ما جاء في ذلك الكتاب (13) ويعد كتاب ابن رزام أصلا لامرين ستكررهما المصادر السنية من بعد وهما : نسبة الاستخفاف بالشريعة للعبيديين ، وانصراف الناس عن أبي يزيد بعد انضوائهم في صفوفه لانه أظهر الاباضية · ومما يلفت النظر في هذا المصدر تسميته أبا يزيد باسم « المحتسب » ، وهي كلمة نجد لها مشابها في المصادر المغربية حيث جاء في وصف أبي يزيد « ويحتسب على الناس في كثير من أفعالهم ··· » (14) ·
وقد تقوت هذه الصورة للاسماعيلية بما كتبه عنهم أبو بكر ابن الطيب الباقلاني (ـ 403) في كتابه « كشف أسرار الباطنية » (15) · ولكننا لا نعلم هل تعرض هذا المؤلف في كتابه لثورة أبي يزيد أولا ، فان النقول عنه لم تورد شيئا من ذلك ، وان كان يغلب على الظن أنه لم يكن ليمر بتلك الثورة مغفلا لها ·

ويجيء كتاب « تثبيت دلائل النبوة » للقاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي (ـ 415) في سياق المؤلفات التي تأثرت بكتاب ابن رزام ، فكتاب القاضي ليس مصدرا تاريخيا بالمعنى الدقيق ، ولكنه يكشف عن تفسير خاص للثورة ولشخصية صاحبها : فأبو يزيد امرؤ ضعيف في حاجة الى حمار لانه يعجز عن ركوب فرس ، وقد اتبعه الناس لانه

(12) هذا مستنتج مما جاء في تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار 2 : 611 « قال أبو تميم مرة : لا يهونكم ما صنع ابن رزام ··· » ·
(13) الفهرست : 238 ـ 239 ·
(14) ابن عذارى 1 : 193 وانظر ابن خلدون ·
(15) يسميه ابن عذارى (1 : 158) كشف الاسرار وهتك الاستار ·

أزال الظلم والمكوس عنهم (16) ؛ والقائم لم يكف عن محاربة أبي يزيد لانه كان يعلم أين سيبلغ ومتى يبدأ نجمه في انحدار ، وانما لان القائم عرض له وسواس وزال عقله مما نزل به من الذل (17) ، وما انصرف الناس عن أبي يزيد الا لان المنصور ضمن لهم تغيير سيرة أبيه وجده وألا يتعرض للديانات كما أنه أخذ يتألفهم بأعمال البر (18). أما في بادئ الامر فان الناس التفوا حول أبي يزيد ـ وهم يعلمون أنه نكاري ـ لانهم قالوا « هذا وان كان من الشراة فليس ينكر الربوبية ولا يكذب الرسل ولا يلعن الانبياء ومعه حفظ الاموال » (19) وقد انفرد القاضي عبد الجبار ـ بين جميع من أرخوا تلك الثورة ، بتفسيره الخاص لبعض مظاهرها وتقلبات الاحوال فيها .

وبينما كانت المؤلفات المشرقية السنية المبكرة تنتحي منحى جدليا ، بتأثير من ابن رزام ، كانت المؤلفات المغربية القريبة نسبيا من عصر تلك الثورة تخضع ـ بدرجات متفاوتة ـ لوقوع مؤلفيها في حيز الدولة الفاطمية أو المؤثرات الفاطمية ، وللمصادر الفاطمية المبكرة . وفي أول قائمة المؤرخين هؤلاء يجيء محمد بن يوسف الوراق القيرواني (292 ـ 363) (20) ، ومن السهل أن نجد أثره الجغرافي واضحا لدى البكري (ـ 487) ولدى كل من اعتمد البكري من بعد كصاحب « الاستبصار » ومؤلف « الروض المعطار » ولكن أثره التاريخي غير واضح كثيرا ، وان كان الترجيح يميل الى أن الرقيق ربما تأثر به وأفاد من مؤلفاته . ولعل القطعة التي احتفظ بها ابن عذاري (21) عن أولية أبي يزيد منقولة عن الرقيق نفسه ؛ غير أن ضياع ما دونه الرقيق عن ثورة أبي يزيد يكون ثغرة في تصورات الدارسين لتلك الثورة . كما أنه لا يمكن الدارس من أن يحكم جزما هل تأثر الرقيق بكتاب القاضي النعمان والى أي مدى كان ذلك ، وهل هو الواسطة في نقل روح ذلك الكتاب الى المصادر التي جاءت

(16) تثبيت دلائل النبوة 2 : 391 ، 2 : 602 .
(17) (18) المصدر نفسه .
(19) تثبيت 2 : 391 وانظر 1 : 107 ، 2 : 602 .
(20) ذكر سنة ولادته ابن عذاري في البيان المغرب 1 : 139 .
(21) ابن عذاري 1 : 193 .

من بعد . ان الرقيق عاش جانبا من حياته حين كانت افريقية ما تزال تعترف بالنفوذ العبيدى ولهذا ليس ما يمنع أن تكون مادة التاريخ التى كتبها المؤلفون الاسماعيليون مقبولة لديه بقوة . ويبدو أن الرقيق انفرد أيضا بذكر أمور لم ترد فى المصـــادر الاسماعيلية وحين يصرح ابن عذارى بالنقل عن الرقيق نجد هذا المؤلف ينفرد بذكر تسمية جديدة لابى يزيد وهى « شيخ المؤمنين » . (22)

ويأتى كتاب « رياض النفوس » للمالكى (ـ 453) مكملا للنقص المتعمد فى كتاب القاضى النعمان ، اذ ابرز المالكى (وعنه القاضى عياض (ـ 544) فى كتابه ترتيب المدارك) الدور الكبير الذى قام به علماء المالكية القيروانيون فى تأييد ثورة أبى يزيد بالخروج معه وحث الناس على الانضمام اليه واصدار الفتاوى بذلك . وبين الفتوى التى أصدرها الممسى ـ وهى فتوى نموذجية ـ وما استنتجه القاضى عبد الجبار شبه قوى يوحى بأن عبد الجبار صاغ فحواها بأسلوبه الخاص ، اذ يقول الممسى : « ان الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الاسلام ... وبنو عبيد ليسوا كذلك لانهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين » (23) . ويقوى المالكى من الدواعى التى هيأت لاعلان الثورة على بنى عبيد حين يعدد الكبائر التى ارتكبوها (24) وألوان التعذيب التى أنزلوها بعلماء المالكية (25) . ولا ريب فى أننا هنا ازاء موقف مذهبى تطغى فيه الاتهامات ، وهو يمثل نقضا مباشرا للمصادر الشيعية ؛ ولكن هذا اللون من المصادر السنية لا تعنيه شخصية أبى يزيد أو ثورته الا بمقدار ما كانت تمثله من انقاذ مأمول للمذهب المالكى ـ أو للسنة ـ من سيطرة العقائد الاسماعيلية . ولهذا فان هذا اللون مـــن المصادر ـ حين تخفق تلك الثورة ـ لابد من أن يبحث عن سبب اخفاقها فلا يجده الا فى شخصية أبى يزيد .

(22) ابن عذارى 1 : 217 وهذه التسمية عند ابن حماد : 20 « شيخ المسلمين » .
(23) رياض النفوس 2 : 144 وانظر رأى أبى اسحاق السبائى 2 : 164 وفى ترتيب المـــدارك 2 : 388 .
(24) رياض النفوس 2 : 163 ـ 164 .
(25) انظر رياض النفوس 2 : 28 ـ 29 ، 167 ، 318 ، 334 ، 345 وترتيب المدارك 2 : 318 ، 334 ، 338 .

وليس يتضح لمحمد بن سلامة القضاعي (ـ 454) أي موقف من ثورة أبي يزيد فان النقول عنه في هذه الحادثة (26) قاصرة عن تصويره ذلك . ولكن يبدو أنه كتب على نحو « حيادى » ، فان الرجل كان شافعيا وكان في الوقت نفسه كاتبا للجرجرائي وزير الدولة الفاطمية .

ومع أبي عبد الله محمد بن سعدون بن علي ، الذي ربما كان معـاصرا للمالكي والقضاعي (27) تعود الخصائص التي أبرزها كتاب المالكي ، اذ نجد عند ابن سعدون تفصيلات دقيقة عن الرايات التي حملها فقهاء القيروان حين انضموا الى أبي يزيد ، شبيهة بالتي ذكرها المالكي ، كما ان ابن سعدون عد من انضم للثورة من الفقهـاء والعباد رجلا رجلا (28) . وتدل الخلاصة التي أوردها ابن عذارى نقلا عن كتـاب ابن سعدون « تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلـب الازمان » (29) على ان موقف ابن سعدون من العبيديين لا يختلف كثيرا عن موقف ابن رزام أو الباقلاني ، وانه كان يكن عداء شديدا لهذا المذهب ، وعصبية مشوبة بالحزن على ما اصاب بلده . وقد أكد ابن سعدون الرواية التي اتهمت أبا يزيد بانه عرض العلماء للقتل « لانه ـ فيما ظن ـ اذا قتل شيوخ القيروان وأئمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم الى ما شاء فيتبعونه » (30) . ومن ناحية أخرى ابرز المالكي أن انضمام الفقهاء لثورة أبي يزيد لم يكن عن ايمان خالص بعدالة ثورته وسلامـة شخصيته وانما كان موقفا انتهازيا الى حد ما ، فقد روى عن أبي اسحاق السبائي قوله : « فان ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد ، والله يسلط عليه اماما عادلا يخرجه عنا » (31) .

---

(26) انظر مثلا ابن عذارى I : 220 ، 228 وابن حماد : 49 ، 51 .
(27) يتوقف تلخيص ابن عذارى عن كتاب ابن سعدون بذكر المستنصر ، وقد تـوفى المستنصر 487 .
(28) ابن عذارى I : 217 .
(29) ابن عذارى I : 281 ـ 287 .
(30) ابن عذارى I : 218 .
(31) رياض النفوس 2 : 164 وترتيب المدارك 2 : 318 .

وبسبب الصلة بين ثورة أبى يزيد والخلافة الاموية فى الاندلس يمكن أن يعد كتاب « المقتبس » لابن حيان (ـ 469) من المصادر الهامة عن جانب من تلك الثورة ، أعنى جانب البعوث والسفارات التى وفدت على الخليفة عبد الرحمن الناصر من لدن أبى يزيد تطلب الامداد • وتكمن أهمية ابن حيان ـ الى جانب خصائصه الاخرى ـ فى اهتمامه بالتفصيلات الدقيقة (32) • وقد نقل ابن الابار (ـ 658) قطعة عن المقتبس فى كتابه « الحلة السيراء » (33) ولكنها شديدة الاضطراب ، ويمكن ضبط ما فيها ـ الى حد ما ـ بعرضها على ما نقله ابن عذارى حول أبى يزيد عن المقتبس أيضا (34) • وليس فى هذين المصدرين ما يدل على ان الناصر حقق شيئا من رغبة أبى يزيد ، ولكن ما ورد فى « عيون الاخبار » يدل على النقيض اذ يصرح هنالك أن الناصر أرسل لابى يزيد مددا مع أيوب ابنه (35) ، كما أمر ـ فى مرة أخرى ـ محمد بن رماحس عامل بجانة بالابحار في أسطول فيه عسكر كثيف وسلاح لمعونة أبى يزيد (36) • وتشير بعض الروايات الى أن أبا يزيد دعا للناصر منذ بداية ظهوره ، فمن المستبعد أن يهمله عبد الرحمن الناصر ويتركه دون مدد •

وهناك كتاب فى تاريخ القيروان باسم « الجمع والبيان فى أخبار المغرب والقيروان » لابى محمد عبد العزيز بن شداد من ذرية المعز بن باديس الصنهاجى ، وكان من أمراء العساكر فى دولة صلاح الدين الايوبى ، فهو على ذلك كان حيا فى أواخر القرن السادس ، وقد اعتمد النقل عن كتابه ابن خلكان والتجانى صاحب الرحلة والنويرى فى نهاية الأرب ، ولعله هو الذى سماه ابن الاثير الامير عبد العزيز (37) ونقل عن

(32) وقفت النسخة من المقتبس التى ظهرت حديثا فى الخزانة الملكية بالرباط قبل قيام ثورة أبى يزيد •

(33) الحلة السيراء 2 : 390 ـ 391 •

(34) ابن عذارى 2 : 212 ـ 214 •

(35) عيون الاخبار 5 : 522 •

(36) عيون الاخبار 5 : 541 •

(37) تاريخ ابن الاثير ـ 8 : 27 •

كتاب له فى تاريخ افريقية والمغرب (ربما كان هو عين الكتاب المذكور آنفا باسم الجمع والبيان) • ولا ريب أن ابن شداد قد تصدى فى كتابه (أو كتابيه) لثورة أبى يزيد ، ولكن ليس من السهل أن نعرف المصادر التى اعتمدها ، اذ لم يصرح أحد بنقل شيء من أخبار أبى يزيد عنه ، ويعتقد الاستاذ شتيرن أن ابن الاثير نقل أحداث ثورة أبى يزيد عنه (38) ، ولو وضع ذاك بصيغة الفرض لكان أسلم •

وحين نبلغ ابن حماد (أو ابن حماده) صاحب كتاب « القبس » (39) تقف عند حلقة هامة فى سلسلة المؤرخين السنيين الذين كانوا ما يزالون ينظرون الى ثورة أبى يزيد والى الخلافة الفاطمية نظرة مقارنة وموازنة ، فأبو يزيد ـ عند هذا المؤرخ ـ عقوبة من الله للشيعة الذين أمروا بسب الغار والعباء واقترفوا القتل والتعذيب • ولكن ابن حماد يمعن فى البحث عن السبب الذى جعل الناس يتبعون أبا يزيد فيهتدى الى أنهم لم يكونوا يعلمون مذهبه ، « فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة » (0) ، وفى هذا تجاهل متعمد لما أقر به الفقهاء فى بياناتهم وفتاويهم • وابن حماد هذا الذى ينقل عنه ابن عذارى هو غير ابن حماد الذى نشر باسمه كتاب « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » (41) ، فالاول منهما كان معاصرا للقاضى عياض (ـ 544) (42) بينما يذكر الثانى أنه انتهى من كتابه سنة 617 (43) ؛ ثم ان المقارنة بين ما ينقله ابن عذارى عن ابن حماده وما ورد فى كتاب « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » يؤكد خلافا أصيلا فى المنحى والموقف بين الرجلين • ذلك لان هذا الكتاب يمثل تعاطفا واضحا مع

(38) الموسوعة الاسلامية I : 164 (الطبعة الجديدة) •

(39) ذكره ابن عذارى وقرن اسم كتابه به فى البيان I : 5 **وانظر مفاخر البربر : 64 حيث ذكر الفقيه الحافظ التاريخى أبا عبد الله محمد بن حمادوه البرنوسى مؤلف كتاب** لمقتبس (اقرأ : القبس) فى أخبار المغرب والاندلس •

(40) ابن عذارى I : 216 •

(41) أشار الى ذلك شتيرن (الموسوعة I : 164) •

(42) قال ابن حماده (ابن عذارى I : 227) رأيت هذا السجل (سجلا من الحكم المستنصر لاهل سبتة) عند القاضى عياض •

(43) أخبار ملوك بنى عبيد : 64 •

الفاطميين ، وبهذا نفسه يثير مشكلة لدى الدارس فاذا صح أن مؤلفه هو أبو عبد الله محمد بن على بن حماد بن عيسى الصنهاجي (ـ 628) (44) ، صاحب كتاب « النبذ المحتاجة فى أخبار صنهاجة » (45) الذى كان قاضيا فى عهد الموحدين فليس هناك ما يسوغ هذا التعاطف مع الفاطميين لدى قاض سنى مالكى · ورغم ملاءمة تاريخ الكتاب كى ينسب لابن حماد ، فالشك لدى فى صحة نسبته اليه أقوى · أما الكتاب نفسه فانه موجز فى مجمله ومصادره بعد المستنصر فقيرة (46) · وتعد القطعة التى أوردها عن أبى يزيد تفصيلية نسبيا ، وهى تحتوى معلومات هامة وخاصة عن أحواله قبل اعلان الثورة ، ويبدو أنه قد تأثر فيها ببعض المصادر الاباضية أو بمن نقل عن تلك المصادر ، فهو الوحيد الذى يذكر أن من بايع أبا يزيد وأقام معه سموا « العزابة » ومن بايعه وانصرف عنه سموا « عدة المسلمين » (47) · وقد أولى المؤلف اهتماما خاصا بالمرحلة الاخيرة من الصراع بين أبى يزيد والمنصور وأغفل ما قبل ذلك (48) · واذا قورن هذا الكتاب بالمصدر الاسماعيلى الكبير لكشفت المقارنة عن اتساق فى الاحداث وتوافق أحيانا فى بعض العبارات (49) ، مع اختلاف فى أسلوب العرض ، وهو اختلاف يشير الى أن المصدر الذى ينقل عنه المؤلف شاء أن يمنح كتابه مسحة أدبية مميزة ·

(44) ترجمة فى عنوان الدراية : 218 ـ 220 ويكنيه صاحب مفاخر البربر : 65 بأبى الحسن ·

(45) ما نقله أمارى (المكتبة الصقلية : 317) عما يسمى كتاب نبذة المحتاجة مأخوذ نصا عن كتاب « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » ·

(46) يعتمد على الرقيق والقضاعى وابن حيان وبعد عهد المستنصر يعتمد الرواية الشفوية عن أبى المكارم هبة الله المصرى وأحد الطلبة من الحجاج ·

(47) أخبار ملوك بنى عبيد : 20 ·

(48) أشار الى ذلك الاستاذ لوترنو فى مقاله عن ثورة أبى يزيد : 104 ·

(49) قارن ما جاء فى أخبار ملوك بنى عبيد : 30 بنص عيون الاخبار : 574 ، وهنا أيضا يرى الاستاذ شترن أن هذا المؤلف ينقل أيضا ـ دون ريب ـ عن الرقيق (الموسوعة 1 : 164) ·

ها قد مرت ثلاثة قرون على ثورة أبى يزيد ولم يعد سوطا أرسله الله على معطلى الشريعة ، كذلك زالت دولة الفاطميين ، وعاد الفريقان يستويان فى أنهما كانا خارجين على السنة ، دون ترجيح أو مفاضلة ـ ولهذا لم يعد المؤرخ يهتم كثيرا فى اختيار مصادره ، فاذا تناول تاريخ أبى يزيد فلا ضير فى ان يكون المصدر اسماعيليا معاديا ، ولهذا لا تختلف المصادر التاريخية ابتداء من القرن السابع وما بعده ، أحدهما عن الآخر ، الا فى طبيعة المصادر التى تنقل عنها ، فابن الاثير (ـ 630) يلخص المصدر الاسماعيلى بلباقة ، حاذفا منه الاشعار والتفصيلات والخطب والرسائل (50) ، وابن الابار (ـ 658) ينقل فى « الحلة السيرا » عن هذا المصدر نفسه أو عمن نقل عنه (51)، وابن خلكان (ـ 681) يورد عن أبى يزيد فقرة يستخلصها ـ على عادته فى الحذر ـ عن أستاذه ابن الاثير أو عن ابن شداد (52) وابن عذارى (ـ 695) يجمع مادته من عدة مصادر منها الرقيق وابن حماده البرنوسى والقضاعى وابن سعدون (وهو الوحيد الذى يعتمد النقل عن هذا الاخير) والبكرى وربما نقل عن غيرهم دون أن يصرح بذلك . ولخص لسان الدين ابن الخطيب (ـ 776) ثورة أبى يزيد فى عبارات قليلة ـ لكنها جامعة ـ تدل على أنه مطلع على المصادر الاولية (53) . ولا يختلف موقف ابن خلدون (ـ 808) كثيرا عن موقف سابقيه الا فى أنه أرخ ثورة أبى يزيد مرتين : مرة لخص ما جاء عند ابن الاثير بشىء من التضييق ، ومرة أخرى جاء بتفصيلات يتفق فيها مع « أخبار ملوك بنى عبيد » وهذه المادة مأخوذة ـ فى أغلب الظن ـ عن تاريخ الرقيق (54) . ونقل المقريزى (ـ 845) فى كتابه « اتعاظ الحنفا » ما جاء به ابن الاثير ولم يضف اليه الا أشياء قليلة (55) .

(50) تاريخ ابن الاثير 8 : 422 ـ 441 .
(51) الحلة السيراء 2 : 387 ـ 389 .
(52) وفيات الاعيان 1 : 235 .
(53) أعمال الاعلام 3 : 53 ـ 54 .
(54) كتاب العبر 4 : 40 ـ 44 ، 7 : 13 ـ 17 .
(55) اتعاظ الحنفا 1 : 75 ـ 85 وما ذكره فى الخطط 1 : 351 ليس الا موجزا يسيرا ؛ أما المصادر الاكثر تأخرا مثل المؤنس لابن أبى دينار والحلل السندسية للسراج فقد أغفلتها لانها تلخص عن المصادر المشهورة كابن الاثير والتجانى ... الخ .

وهذا الموقف الذى بلغه المؤرخون ـ فى القرن السابع وما بعده ـ هو الموقف الذى تبناه الجغرافيون منذ البداية، اذ كانوا ينقلون عن المصادر أيا كانت لونها دون محاكمة، منذ عهد البكرى (56) · وعلى مثل ذلك جرى الزهرى (بين 541 ـ 556 (57) ومؤلف الاستبصار (بعد 587) (58) وياقوت (ـ 624) فى « معجم البلدان » (59) والقزوينى (ـ 682) فى « آثار البلاد » (60) ، وابن عبد المنعم الحميرى (ـ 727) فى « الروض المعطار » (61) · وللس يشذ عن هؤلاء الجغرافيين الا التجانى (بعد 717) فى رحلته ، فانه ينطلق من موقف الكره للاباضية ، وهو يعتقد أن خوارج زمنه « من بقايا الشرذمة الضالة التى قام بها أبو يزيد مخلد بن كيداد فى افريقية ، فانه لما أظفر الله به وأراح منه البلاد والعباد تفرقت أتباعه فى الاقطار » (62) · ولهذا انفرد التجانى عمن سواه من الجغرافيين باختيار مصادره ، واكثر من ايراد المادة التاريخية المفصلة ، وهناك مشابه فى السياق ـ لا فى حرفية العبارات ـ بين بعض ما يذكره وبعض ما ورد فى « عيون الاخبار » (63) · ولعله يستمد مادته من تاريخ الرقيق ، وهو لا يصرح بالمصادر التى ينقل عنها ولكنه يتعمد أن يوحى أحيانا بأنه يلخص من عدة مصادر اذ يبـدأ عبارته بقوله : « قال المؤرخون » · (64)

---

(56) انظر البكرى : 49 ، 57 ، 59 ، 145 ·

(57) الجغرافية : 111 وهو يسمى أبا يزيد « عدو الله » ويقول « فأراح الله منه البلاد والعباد » ·

(58) الاستبصار : 205 وهو يردد تهما ورد مثلها فى المصدر الاسماعيلى ·

(59) معجم البلدان فى مادتى « سوسة » و « وقلعة أبى طويل » والنقل عن البكرى ·

(60) آثار البلاد : 276 ·

(61) المواد : الاخوان ـ أذنة ـ أوراس ـ باغاية ـ ترنوط ـ تقيوس ـ تاجر ـ تونس ـ سجلماسة ـ قلعة أبى طويل ـ قلعة الحجار ، وينقل عن البكرى والاستبصار ، ويقول فى مادة أوراس « الى أن قتل واستراح المسلمون منه ومن خبائث سيرته وقبيح أفعاله ... » ·

(62) رحلة التجانى : 119 ·

(63) قارن ما ورد فى الرحلة : 22 بما فى عيون الاخبار 5 : 448 ـ 449 ·

(64) رحلة التجانى : 327 وانظر سائر اخباره : 24 ، 27 ، 119 ، 253 ، 321 ، 323 ، 325 ـ 327 ·

3 ـ المصادر الاباضية :

لما كان أبو يزيد نكاريا ـ أى منشقا على الاباضية ـ (65) • فليس من المنتظر أن يعامله مؤرخو الاباضية بتسامح كثير ، أو أن يعتبروه « مجاهدا » قام لمحو الباطل • ولعل أبا زكريا الاباضي (أواخر القرن السادس) أميل الى صف الفاطميين منه الى جانب أبى يزيد ، فهو يقترن عنده بفرعون ، بل ان أبا يزيد اقترف من أعمال العنف والكفر ما فاق به ما يروى عن فرعون وعن أشد عماله ظلما ؛ وهو يسميه « عدو الله » ، ويلصق به حكايات لا نجدها عند أشد المصادر الاسماعيلية عداوة لابى يزيد • ثم هو فى المقابل يتقبل الرواية التى تتردد عن علم المهدى بالغيب وأنه كان يعرف بخروج بربرى عليه ، ومن أجل ذلك بنى المهدية (66) • ولدى أبى زكريا معلومات لم توردها المصادر الاخرى عن أولية أبى يزيد ونشأته ، ولكن ميل المؤلف الى الاساطير يجعل الدارس مترددا فى حمل رواياته على محمل القبول ، وخاصة فى أخباره عن مرحلة المد فى انتصارات أبى يزيد ، كما أنه يردد عن « فحولة » أبى يزيد قصصا كالتى أوردها المصدر الاسماعيلى • ولعل معظم المادة التى أوردها أبو زكريا هو مجموعة الحكايات التى ظل يتناقلها الناس البسطاء فى مجالس سمرهم وأن لون التاريخ فيها أصبح باهتا •

وفى القرن السابع كتب أبو العباس الدرجينى طبقاته ، وفيها تلخيص ـ دقيق نسبيا ـ لتاريخ أبى زكريا (67) • وعلى تاريخ أبى زكريا اعتمد أيضا أحمد بن سعيد

(65) ليس هذا موضع البحث فى القرون القائمة بين النكار وبين أصلهم الذى انشقوا عنه (أى الاباضية) ولكن نلاحظ أن المصادر السنية لا تميز بين فرق الخوارج الفرعية (أنظر مثلا وصف افريقية والاندلس من نزهة المشتاق للادريسى : 128 ، 121) وليد مؤلف الاستبصار : 205 أبا يزيد من الصفرية ، وتابعه فى ذلك صاحب الروض (سجلماسة) وكذلك قال ابن خلدون 4 : 40 •

(66) تاريخ أبى زكريا : 226 ـ 228 ـ 246 ـ 236 ـ 242 (الترجمة الفرنسية) •

(67) أنظر مقالة لوترنو : 104 •

الشماخي (ـ 928) في سيره ، حيث جاء على ذكر أبي يزيد عرضا (68) • ان البعد الزمني للمصادر الاباضية (وهي ترتد الى مصدر واحد) عن أبي يزيد وثورته جعلها لا ترى فيها سوى « ظلمة » الانشقاق على المذهب الأم ، وبهذا ترى صاحبها « عدوا » هزم لتنكبه الطريق السوى •

مما تقدم نرى أن المصادر عن أبي يزيد وثورته مرت في ثلاث مراحل :

1 ـ مرحلة القضية تصارع قضية أخرى ، وفي هذه المرحلة استطاعت المصادر الفاطمية أن تؤكد ـ بالسبق الزمني ـ كل ما تريد أن تصم به أبا يزيد وثورته ، ووضعت حول كثير من الحقائق الموضوعية ستارا كثيفا من دخان العداوة المذهبيـــة ، لم يستطع أحد اختراقه •

2 ـ مرحلة القضية المضادة : وقد تولتها مصادر سنية لكنها في الوقت نفسه لم تستطع أن تتعاطف مع شخصية أبي يزيد ، وقد أدى بها ذلك الى تقبل كثير من التهم التي رددتها مصادر المرحلة الاولى ، وشاركتها في ذلك المصادر الاباضية •

3 ـ مرحلة النقل المحض • واذا استثنينا ابن عذارى الذى مال الى النقل عن مصادر « المرحلة المضادة » وجدنا أغلب المؤرخين والجغرافيين قد لجأوا الى نقل روايات مؤرخي المرحلة الاولى ـ مباشرة أو بالواسطة ، وباستثناء القاضي عبد الجبار ـ وهو يتجنب الدخول في التفصيلات ، لا نجد أحدا يحاول أن يرى ثورة أبي يزيد من زاوية ايجابية • وعلى هذا ظل أكثر ما عرف من تفصيلات عن هذه الثورة يمثل ما يريده « التاريخ الرسمي » لا صورة ما جرى في الواقع •

(68) سير الشماخي : 279 ـ 280 •

مصـــادر البحـــث

ابن حوقل (ــ 380) : صورة الارض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

المسعودى (ــ 346) : فنون المعارف وما جرى فى الدهور السوالف (انظر التنبيه والاشراف) .

المسعودى (ــ 346) : التنبيه والاشراف ، صورة عن الطبعة الاوروبية ، مكتبة خياط ، بـيروت .

أبو على المنصورى الجوذرى (؟) : سيرة الاستاذ جوذر ، تحقيق الدكتورين محمد كامل حسين وعبد الهادى شعيرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة .

القاضى النعمان بن محمد (ــ 363) : رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، بـيروت 1970 .

ابن النديم (ــ 388) : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد طهران 1971 .

القاضى عبد الجبار بن أحمد (ــ415) : تثبيت دلائل النبوة (1 ــ 2) تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ، بيروت ، 1966 .

الرقيق القيروانى (القرن الخامس) : تاريخ افريقية والمغرب (نقول عنه فى المصادر).

أبو عبد الله المالكى (ــ 453) رياض النفوس ، ج 2 (مصورة عن مخطوطة تونس) .

محمد بن سلامة القضاعى (ــ 454) : تاريخ القضاعى (نقول عنه فى البيان المغرب) .

أبو مروان بن حيان الاندلسى (ــ 469) : المقتبس من تاريخ الاندلس (نقول عنـه فى البيان والحلة السيراء) .

أبو عبيد البكرى (ــ 487) : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دى سلان، الجزائـر 1857 .

القاضى عياض بن موسى (ــ 544) : ترتيب المدارك (1 ــ 4) تحقيق الدكتور محمود بكـير ، بيروت 1967 .

أبو زكريا الاباضى (أوائل القرن السادس) : تاريخ أبى زكريا .
Chronique d'Abou Zakaria par Emile Masqueray, Alger, 1878.

ابن حماد (أو حماده) البرنوسى (أواسط السادس) : كتاب القبس فى أخبار المغرب والاندلس (نقول منه فى البيان المغرب) .

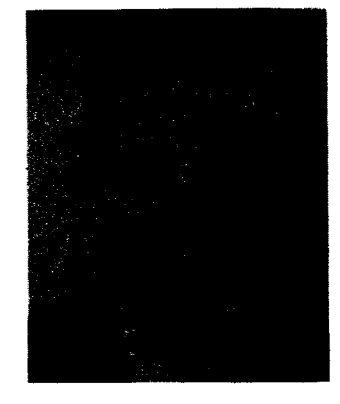
محمد بن أبى بكر الزهرى (أواسط السادس) : كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، دمشق 1968 .

مؤلف مجهول (أواخر السادس) : الاستبصار فى عجائب الامصار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، 1958 .

ياقوت الحموى (ــ 624) : معجم البلدان (I ــ 6) ، تحقيق وستنفلد ·
ابن حماده الصنهاجي (ــ 628) : أخبـــار ملــوك بنى عبيد وســيرهم ، تحقيــق
م · فاندرهايدن ، الجزائر ــ باريس ، 1927 ·
أبو العباس الدرجيني (القرن السابع) : طبقات الدرجيني ·
ابن الاثير (ــ 630) : الكامل في التاريخ ج : 8 ط · صادر ، بيروت ·
ابن الابار (ــ 658) : الحلة السيراء (I ــ 2) تحقيــق الدكتــور حســين مؤنس ، القاهرة 1963 ·
ابن خلكان (ــ 681) : وفيات الاعيان ج I، تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت 1968.
زكريا بن محمد القزويني (ــ 682) : آثار البلاد ، ط · صادر ، بيروت ·
ابن عذارى المراكشي (نحو 695) : البيان المغرب (I ــ 2) تحقيق ليفي بروفنسال ، لــيدن ، 1948 ·
مؤلف مجهول (بعد 712) : مفاخر البربر ، تحقيق ليفي بروفنسال ، الرباط ، 1934 ·
أبو محمد التجاني (بعد 717) : رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ، 1958 ·
ابن عبد المنعم الحميرى (ــ 727) : الروض المعطار ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بــيروت 1975 ·
لسان الدين بن الخطيب (ــ 776) : أعمال الاعلام ج : 3 ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى والاستاذ ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1964 ·
ابن خلدون (ــ 808) : تاريخ ابن خلدون ج : 4 ، 6 ، 7 ط · بولاق ·
تقي الدين المقريزى (ــ 845) : اتعاظ الحنفا ، ج : I ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهــرة ، 1967 ·
تقي الدين المقريزى (ــ 845) خطط المقريزي ، ط · بولاق ·
القاضى ادريس عماد الدين (ــ 872) : عيون الاخبار ج : 5 (نسخة خطية بحوزة الدكتور مصطفى غالب) ·
أحمد بن سعيد الشماخي (ــ 928) سير الشماخي ، ط · قسنطينة ، الجزائر ·
ابن أبى دينار (القرن الحادى عشر) : المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس 1387 ·
محمد الوزير السراج (ــ 1149) : الحلل السندسية ج : 4 ، تحقيق محمد الحبيــب الهيله ، الدار التونسية للنشر ، 1970 ·
La révolte d'Abou Yazid au x^e siècle, par Roger Le Tourneau. Les Cahiers de Tunisie, I (1953) pp. 103-125.
Abu Yazid Makhlad b. Kaïdad by S.M. Stern Encyclopaedia of Islam (New édition), vol. I, p. 163, 1960.

الحركة الأباضية
فى تاهرت وسدراته

د. محمد بلغراد
معهد اللغة والأدب العربى
جامعة الجزائر



مقدمة :

يطلق اسم الاباضيين فى شمال افريقية على فرقة من الخوارج الذين دخلوا الى المغرب العربى حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى من اباضية وصفرية . وانتشر المذهب الاباضى بسرعة بين البربر حتى أصبح المذهب القومى لهم اتخذوه ذريعة لمقاومة أهل السنة من العرب .

وينتهى الاباضيون الى عبد الله بن اباض (بكسر الاول) المقاعسى المرى التميمى رأس الاباضية واليه نسبتهم . كان معاصرا لمعاوية وعاش الى أواخر أيام عبد الملك ابن مروان . عده الشماخى فى سيره فى التابعين ... قال : وكان كثيرا ما يبدى النصائح لعبد الملك بن مروان . وفى حفظى أنه يصدر فى أمره عن رأى جابر بن زيد اهـ . وجابر هذا يعده الاباضية مؤسس مذهبهم . وعده محمد بن زكريا البارونى فى كتابه

طبقات الاباضية فى مقدمة أبناء النصف الثانى من المئة الاولى للهجرة ، بعد جابر ابن زيد . وقال محمد بن سعيد القلهاتى فى كتابه : الكشف والبيان : نشأ (عبد الله بن اباض) فى زمان معاوية بن أبى سفيان وعاش الى زمان عبد الملك ابن مروان وكتب اليه بالسيرة المشهورة اهـ . وأراد بالسيرة رسالة بعث بها عبد الله ابن اباض الى عبد الملك بن مروان يقول فيها بعد البسملة والمقدمة : جاءنى كتابك مع سنان بن عاصم اهـ . تقع الرسالة فى احدى عشرة صفحة أوردها أبو القاسم ابن ابراهيم البرادى فى كتابه الجواهر المطبوع على الحجر بمصر ص 156 ـ 167 .

وفى الكامل للمبرد : قول ابن اباض أقرب الاقاويل الى السنة اهـ . قال أحمد أمين : ان هذه الفرقة (الاباضية) عاشت وانتشرت فى شمالى افريقية وفى عمان وفى حضرموت وزنجبار واستمرت الى يومنا هذا . فكان من الطبيعى أن يكون لهم أصول اعتقادية وتعاليم فقهية . وكذلك كان . فقد تعدل مذهبهم مع الزمان . فلهم أصول كلامية متأثرة الى حد كبير بمذهب المعتزلة فى القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى فى الجنة وأن الله لا يغفر الكبائر . كما لهم كتب فقهية خاصة تخالف أهل السنة فى بعض الفروع مثل أنهم لا يرون الزواج يصح الا فيما بينهم اهـ . وأخبار الاباضيين كثيرة فى التاريخ القديم والحديث . ولا يزال مذهبهم منتشرا .

قال حافظ رمضان فى كتابه « أبو الهول قال لى » : لا تزال بقية هؤلاء فى بلاد الجزائر . وهم يعيشون على وتيرة منظمة وتقاليد طريقة ... واذا ما طل مدين دائنه دخل المسجد وأعلن ذلك . وحينئذ يقاطع الناس المدين فلا يسلمون عليه ولا يعاملونه حتى يوفى ما عليه اهـ .

وقال الزركلى : وهم فى المشرق اليوم أكثر أهل المملكة العمانية ولهم فيها الامامة والسيادة . اما فى الجزائر فبلاد وادى ميزاب معظم سكانها اباضية ، ولهم فى كل بلد منها مجلس يسمى مجلس العزابة بفتح العين وتشديد الزاى وهو جمع عازب . ويعنون به من انقطع للعلم والدين عزوبا عن الدنيا . ويتألف من عشرة أشخاص يجتمعون فى مسجد البلد ويفصلون بين المُتقاضين ... ومن أبى حكمهم أعلنوا البراءة منه فيقاطع حتى يرد الحق ويتوب .

وقد لعب اباضيو طرابلس الغرب وافريقية (تونس) تحت زعامة عبد الاعلى أبى الخطاب المعافرى الحميرى اليمنى دورا حاسما فى تسيير الاحداث السياسية فى طرابلس الغرب وافريقية فى بداية اربعينات القرن الثانى الهجرى ، وكان أبو الخطاب شجاعا بطلا فاستولى أول أمره على طرابلس الغرب سنة 140 هـ ، وحكم افريقية كلها فى بدء سنة 141 هـ ، واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الذى كان من أسرة ايرانية ، وكان عبد الرحمن من الفقهاء الاباضيين بافريقية ، وكان معروفا بالزهد والتواضع وكان قاضيا بالقيروان · وفى سنة 141 هـ ، ولى المنصور العباسى محمد بن الاشعث بن عقبة الخزاعى مصر وأمره باستنقاذ افريقية من هيمنة عبد الرحمن عليها ، فسار ابن الاشعث سنة 142 هـ ، فى أربعين ألفا من الجنود لقتال أبى الخطاب فاستنجد هذا الاخير بعبد الرحمن بن رستم وأمره أن يلتحق به فى وقائعه مع الامير محمد بن الاشعث ·

ولم يكد ابن رستم أن يتلحق فى جنوده الجرارة بأبى الخطاب حتى بلغه نعيه وانهزام جيشه سنة 144 هـ ·

فما وسع ابن رستم الا أن يرجع الى القيروان · فوجدها قد انتقضت عليه وقد اندلعت فيها ثورة عارمة · هرب عبد الرحمن باهله وما حف من ماله ، وخرج مختفيا عن الاعين وألقى عصا التسيار لدى القبائل البربرية الاباضية الذين اكرموا وفادته واستقبلوه بكثير من الاجلال والاكرام واحلوه على الرحب والسعة ·

وشاع يومئذ ذكره فى الآفاق فوفدت عليه مشيخة الاباضية من العلماء والاعيان واخذوا فى تدبير أمرهم وتنظيم شؤونهم ، وفكروا فى انشاء دولة لهم ·

خرج ابن رستم فى أصحابه يطلبون مكانا منيعا يتخذونه مركزا يبثون فيه دعوتهم وينشرون مبادئهم ·

فانتهى بهم المطاف الى تاهرت أو تيهرت على خمسة أميال من تيرهت الرومانية · ثم بويع عبد الرحمن بن رستم فيها اماما سنة 160 هـ ، فكانت الدولة الرستمية الاباضية أول دولة وطنية اسلامية أسست فى هذه الديار · أصبحت هذه الدولة

البربرية الاسلامية باسطة سلطانها العادل على ربوع البلاد الجزائرية ماعدا ناحية الزاب الاغلبية وناحية تلمسان الادريسية ٠

وكان المذهب العام يومئذ للبربر فى كل بلاد الدولة هو المذهب الاباضى ، وقليل منهم كان معتنقا للمذهب الصفرى ٠ وأصبحت تيهرت مدينة من اعظم مدن المغرب فى الحضارة والعمران ٠

وأتخذ أئمة تيهرت القصور البديعة لسكناهم وأسسوا الدولة فأحسنوا تأسيسها على البر والتقوى وعملت على نشر الثروة والرفاهية والرخاء وعبدت الطرق ووسعت نطاق التجارة مع كل البلاد، وأقبل البربر والمسلمون على خدمة الارض فأصبحت مملكة تاهرت حديقة غناء فيها من كل فاكهة زوجان ٠

وقد تغنى المؤرخون بذكر هذه المدينة الجزائرية ٠ وقد بلغت الصناعة فيها مدى بعيدا فى الجودة والاتقان واختط الرستميون مدنا وقرى جديدة وأصلحوا ما أخنى عليه الدهر من المدن والقرى العتيقة فقد كانت هذه الدولة الفتية مؤسسة على سنن الجمهورية الاسلامية ان صح التعبير كما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين ٠ رئيسها امام ينتخبه القوم انتخابا حرا ، وهو يستشير فى كبار الامور أعيان المذهب وأعلامه وفى الامور العامة يستشير وجوه القوم والقبائل ويعين الامام القضاة بعد استشارة العلماء وكان قضاة الرستميين على حظ وافر من الاستقامة والنزاهة والصلاح ٠

سدراتة

كان لسقوط الدولة الرستمية وقع عظيم فى نفوس علية القوم والوجهاء من الاباضيين أولى الغيرة الوطنية ودخلوا مدينة بنى وارجلان ، وهناك على بعد أربعة عشر كيلومترا جنوبا أخذوا فى تخطيط عاصمتهم الجميلة سدراته المعروفة عند البربر باسدراتن ٠ فأنشأوا فيها حضارة عظيمة وبنوا بها قصورا بديعة ومنازل رفيعة وأقاموا بها بساتين ومزارع ومنشآت ضخمة ٠ وقد شرع علماء الآثار فى الكشف عن هذه المدينة التى غطتها الرمال وتراكمت عليها الكثبان ، وقد بينت الحفريات التى وقعت فى القرن التاسع عشر وأثناء الحرب العالمية الاخيرة وبشكل خاص الحفريات

التى أشرفت عليها الآنسة مرغريت فان برشم بين سنة 1950 وسنة 1952 فوقع خلالها العثور على آثار جليلة قيمة من بيوت وقصور ونقوش مزخرفة وخطوط كوفية وأشكال هندسية وأوان متنوعة · وهذه التحف هى عربية شرقيـــة أكثـر مما هى بربريـــة صحراوية على مسافة أربعة عشر كم ، جنوبى ورقلة تمتد كثبان الرمل على مد البصر وتغطى أطلال المدينة الاباضية القديمة سدراته ·

والوصول اليها ليس بسهل · يتجه السائر من ورقلة نحو الجنوب الغربى عـــلى طريق وعر يؤدى الى المنيعة · ثم يتياسر وبعد بضعة كيلومترات تظهر سلاسل الكثبان الاولى التى تشرف عليها غارة كريمة وهو جبل منعزل يقع على مسافـــة عشرين كم ، تقريبا من ورقلة · كثبان الرمل متراكمة على أطلال المدينة التى تهدمت جدرانهـــا المرتفعة الى علو خمسة عشر مترا ·

ذكرت مرغريت فان برشم أن من أصعب الصعب تسيير حفريات فى مثل هذا المكان واكتشاف آثار المدينة العتيقة لكثرة الصعوبات وبعد الاماكن الآهلة بالسكان · تهب على المدينة باستمرار عواصف رملية هوجاء · قد أشرفت مرغريت فان برشم عـــلى حفريات فى ربيع سنة 1951 وحدها من دون ان تستعين بأى وسيلة تقنية حديثة · وكانت تواصل عملها فى ظروف جوية قاسية ، ولم تستعن الا بقرابة عشرين عاملا لا خبرة لهم وبعشرة حمير · تنقلهم كل يوم شاحنة عسكرية ·

تفضل العقيد حاكم مقاطعة الواحات بوضعها تحت تصرفهم ، تنقلهم عند الفجر من ورقلة الى ورشة العمل ثم تردهم مساء الى ورقلة حيث يتزودون بالماء لان سدراته لا ماء فيها ، توقفت الحفريات بعد شهر ثم استؤنفت من جديد فى شهر ديسمبر 1951 وشهر جانفى 1952 ·

وقد جاوزت نتائج هذه الحفريات كل ما كان يتوقع · فقد أغنت تاريـخ الفـــن الاسلامى والتاريخ العام للفن بكشوف جديدة ذات خطورة كبيرة · وقد جمعت الآنسة مرغريت فان برشم حصيلة هذه الحفريات فى خمسين صندوقا أرسلت الى مدينة الجزائر ليدرسها علماء الآثار · وهى موجودة الآن فى متاحف العاصمة ، واكتشاف هـــذه

المجموعة من الاحجار والزخارف الفنية الوحيدة فى نوعها وأصالتها يثير مشاكل شتى لا يزال التاريخ عاجزا عن وجود حل لها • ذلك لانه ما زالت تنقصنا معلومات دقيقة حول أصل مدينة سدراته ونموها ونهايتها ، هذه المدينة التى يظهر ـ حسبما بينته البحوث الاخيرة ـ انها مركز ذو أهمية أكبر وذو حضارة أوسع مما كان يظن • فاذا كانت هذه العاصمة الاباضية لا تزال سرا مكتوما وطلسما مغلقا غامضا لا يهتـــدى أحد الى تفسير معمياته ربما ذلك لان كثيرا من المخطوطات كما يقال قد أحرقت وأتلفت عبر الخلافات الناشبة بين فرق الخوارج المتنازعة •

ولكن ثم سببا آخر لهذا الظلام المخيم على تاريخ وحضارة هذه المدينة هو أن المصادر التاريخية الاباضية لم تدرس الى الآن دراسة مستأنية متعمقة مستوعبة لان بنى ميزاب المعاصرين الذين هم أحفاد سكان سدراته من الاباضيين هم محتفظون غالبا بالارشيفات التاريخية النفيسة كأنه سر يستأثرون به ولا يريدون لقاء أى ثمن أن يفشوه ويظهروه لاحد • ولكن الزمان لا يفتأ مواصلا عمله ببطء • وبنو ميزاب يعتزون بماضيهم وهم على حق فى ذلك ، ولكنهم ينبغى لهم أن يسمحوا شيئا فشيئا للمعنيين بدراسة الآثار والمدنيات العتيقة أن يتغمقوا فى تاريخها • وذلك باطلاعهم على مصادر هذا التاريخ ووثائقـــه •

ان سدراته عرفت فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ازدهارا كبيرا • وتاريخ نهايتها لا يزال الظلام يكتنفه من كل جانب •

ولما غادر سكان سدراته عاصمتهم تحت ضغط ظروف قاهرة تراكمت عليها الرمال• ولكن الاباضيين الذين احتفظت مجموعتهم بكل حيويتها وطاقاتها المعنوية وصمودها لا يزالون يقدسون ذكراها • وفى آخر شهر أبريل من كل سنة يأتون لزيارة ربـوع أمجادهم الغابرة رجالا وركبانا ليصلوا ويبتهلوا على موقع مسجد المدينة يقفون بخشوع على ضريح امامهم ويقرآون فاتحة الكتاب ترحما على روحه الزكية • ورغم عواصف الرمال المتراكمة على المعالم التى يقيمونها كل سنة فهم يهتدون دائما الى مزاراتهـم الطامسة المقدسة ، وهكذا يبقون عبر القرون أوفياء لذكرى ماضيهم المجيد الكامن

فى أطلال سدراته المحيلة الحبيبة تضطرب بتاريخها مشاعرهم وتخفق لذكراها قلوبهم فهى دائما مستكنة فى أعماق نفوسهم فهى قوام كيانهم وغذاء وجدانهم .

انتهت سدراته من الاخذ والعطاء وحكم عليها بالفناء حوالى سنة 1075 أو بعد ذلك. ولكن الاباضيين احتالوا لانفسهم من قبل لان الظروف القاسية والمحن الماضية علمتهم الحذر والاستعداد دائما لمجابهة المصائب والاهوال . وسقوط تاهرت بالامس القريب لم يزل عالقا بذاكرتهم .

غـــرداية

مدينة غرداية التى تأسست سنة 1053 م ، تعد من مفاخر انجازات الارادة البشرية، وتأسيس مجموعة مدن وادى ميزاب قد حدث فى أقسى الظروف السياسية والجغرافية والجوية والاخلاقية ـ وتخطيط هذه الواحات على هضبة جرداء قاحلة مقفرة قاسية المناخ يعد بحق تحديا من الانسان أمام قساوة الطبيعة فى المحيط الذى يعيش فيه . وهـو مشروع أفلح بفضل ضغط فكـرة نيرة ايجابية واعـدة . ومدينة غرداية أحدث مدن وادى ميزاب تمكن سكانها من أن يعيشوا عيشة راضية مثاليـة تضافرت فيها مظاهر الحياة الاقتصادية المزدهرة وتوفرت فيها مظاهر الحسن والجمال فى مناظرها ومصنوعاتها وتحفها وملاهيها لان مدينة غرداية تعد من أجمل مناظر العالم بفضل جمال طبيعتها وتوهج أنوارها واتقان ابنيتها المتلائمة مع الظروف الطبيعية .

ونقطة الانطلاق لهذه الحضارة البديعة المرتجلة فى هذه المنطقة الخلابة من العالـم الجزائرى أساسها فكرة خلاقة بناءة ومثال أعلى ونظرية ميتافيزيقية ومذهب ديـنى يموت أصحابه فى سبيل خدمته ونصره ونشره . وكل ذلك يجعل مدن وادى ميزاب موضوعا شهيا لدراسات علماء الاجتماع والآثار وملتقى للسياح المتقاطرين عليه من كل جهات العالـم .

أهم المصادر والمراجع

1 _ الاعلام 13 جزءا _ خير الدين الزركلي _ الطبعة الثالثة ، بيروت 1969 .

2 _ البيان المغرب في أخبار المغرب _ ابن عذارى المراكشي _ راجع الجزء الاول بيروت 1950 .

3 _ تاريخ الجزائر العام ، جزآن _ عبد الرحمن الجيلالي _ راجع الجزء الاول ، الدولة الرستمية، الجزائر 1953 .

4 _ ذاكرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ، راجع المواد : الاباضية _ الاباضيون تاهرت _ بنو رستم _ 1933 .

5 _ ضحى الاسلام ، ثلاثة اجزاء _ أحمد أمين _ راجع الجزء الثالث _ باب الخوارج _ القاهرة 1936 .

6 _ الكامل ثلاثة أجزاء _ أبو العباس المبرد _ الجزء الاول بتحقيق د. زكي مبارك الجزآن الثاني والثالث بتحقيق أحمد محمد شاكر _ انظر فيه اخبار الخوارج في الفهرست _ القاهرة 1936 _ 1937 .

7 _ كتاب الجزائر _ أحمد توفيق المدني _ الجزائر 1350 هـ _ 1931 م .

8 _ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب _ أبو عبيد البكري _ الجزائر 1857 .

(9) Algérie-Actualité N° 495 - Article du Docteur R. Bourouïba : Tahert à l'époque Rostémide.
(10) Algérie-Actualité N° 519 - Article de A. Dhina : Ghardaïa 3e capitale ibadite.
(9) Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman. Tome I - Articles et conférences de Georges Marçais. Alger, 1957.
(10) Revue Africaine - 1946.
(11) Documents Algériens - 20 Août 1953 Ghardaïa par Emile Dermengheur.
(12) Documents Algériens - 1r Septembre 1953 Sedrata par Marguerite Van Berchem.
(13) Algérie-Actualité N° 495 - Tahert à l'époque rostémide par le Docteur Rachid Bourouïba.
(14) Algérie-Actualité N° 519 : I - Ghardaïa, 3e capitale iabdite par Amar Dhina.
(15) Algérie-Actualité N° 520 : II - Ghardaïa, une organisation de vie adaptée à un pays difficile par Amar Dhina.

من قضايا التاريخ الرستمي الكبرى

مكتبة «المعصومة» بتاهرت ، هل أحرقت ؟
أو نقلت عيونها الى سدراته في جوار بني وارجلان ؟

د ٠ لقبال موسى
معهد العلوم الاجتماعية ـ دائرة التاريخ
جامعة الجزائر

لئن كان سقوط الامارة الاغلبية فى افريقية قد جاء نتيجة لنجاح الداعى الشيعى فى تحويل اللقاء فى معركة الاربس الحاسمة (ولاية الكاف سنة 396هـ/908 909م). لصالح الشيعة ، فان سقوط الامامة فى تاهرت وتصفية الاسرة الرستمية (فى شوال 396هـ/جوان 908م) ، قد تم بدون اعداد ، أو زحوف ، أو مقاومة تذكر ٠

واذا كان قد ترتب عن سقوط الامارة الاغلبية : قيام نظام جديد فى رقادة ذاتها ، هو نظام الفاطميين ، فان ما ترتب عن سقوط الامامة الرستمية هو بداية لظهور مدن أخرى فى الصحراء بعد فقدان حاضرة تاهرت لمركزها كعاصمة دولة مستقلة ؛ لانها

غدت فقط مدينة اقليمية مشمولة بنظر النظام الجديد الذى احتفظ مؤقتا برقـــادة عاصمة سياسية له ٠

واذا كانت النصوص لم تشر بصدد سقوط حواضر افريقية الكبـــرى وهى : القيروان ، ورقادة ، الى تصرف معين للداعى الشيعى تجاه « المخلفات » والآثار الادبية والفكرية ، فان النصوص الاباضية ، أشارت الى حادث استيلاء أبى عبد الله الشيعى، على مكتبة المعصومة ، بمدينة تاهرت ، عاصمة الرستميين ٠ وكانت على جانب كبير من الاهمية ، ومن التنوع والغنى ٠ وتضيف النصوص الاباضية ، بأن أبا عبد الله الشيعى فحص محتويات المكتبة الثرية ، فأخذ منها كتب الرياضة ، والصنائع وما شابهها من الكتب الفنية ، والعلمية ، ثم أحرق بقية الكتب ، والآثار المذهبية ، ومن ضمنها : أمهات كتب المذهب، ودواوينه ، ومن أجل ذلك فقدت أغلب الاصول المذهبية للاباضية، وغدا رجال المذهب الاباضى ، لاول مرة ، بعد حياة ثرية ، وحافلة ، بدون مصادر أصلية، لمذهبهم (1) ٠ ومن ضمنها ديوان تاهرت الذى كان عمدة فى الاحكام ٠

ويبدو أن هذه الرواية التى تفردت بها بعض النصوص الاباضية تفتقر الى السند التاريخى الصحيح ، ولا يوجد ما يؤيدها فى النصوص السنية والشيعية أيضا ٠

وذلك لان تصرفات أبى عبد الله الداعى ، كانت موزونة ومؤسسة بخاصة ، على احترام الآثار الادبية ، والمادية القديمة ؛ ولذلك لم يلتجىء أثناء توسعه فى منطقة الزاب وافريقية ، الى أسلوب التخريب ، أو الحرق الا لضرورة استراتيجية ، وضد منشآت حربية بحتة ، وقد جرى ذلك فعلا بالنسبة لمدن (الاربس) و (سجلماسة) و (بلزمة) ، عندما قاوم سكانها واظهروا العناد (2) ٠ لكن لم تشر النصوص ، الى سلوكه سياسة حرق الكتب ، والمكتبات ، فى هذه المدن التى استعصت عليه ، وقاومت

(1) الدرجينى : الطبقات ورقة 111 ، أبو زكرياء السيرة ورقة 33 ، الشماخى السير ص 228 ، البارونى الازهار الرياضية 2 ، 293 ٠
تشبه هذه الرواية رواية عبد اللطيف البغدادى عن احراق عمرو بن العاص لمكتبـة الاسكندرية بعد فتحها ٠ وقد ثبت خطأ هذه الرواية وعدم تحرى راويها فى النقل ٠
(2) النعمان : افتتاح الدعوة ورقة 118 ـ 119 (164 ـ 165 ط بيروت) ، ابن الاثير الكامل ، التاريخ 15،8 البكرى : المغرب 46 ، ابن عذارى : البيان المغرب 199،1 ٠

رجاله ، وألحقت بهم خسائر جمة . فكيف نصدق بسهولة رواية حرق مكتبة المعصومة بتاهرت ؟ وهى التى لم تقاوم ، بل رحبت بركب الداعى ، الذى فارقها ، الى هدفه البعيد ، فى سجلماسة ، حيث يوجد « امام الزمان » ، و « صاحب الدعوة » . عبيد الله « المهدى » أول الخلفاء الفاطميين فى بلاد المغرب الاسلامى .

والذى يلاحظ أيضا ، أن النصوص التاريخية لا تشير بصدد فتح (سجلماسة) « عنوة » ، الى سياسة معينة تجاه الآثار الادبية للمخالفين ، مثل حرق الكتب ، والمكتبات ، أو حتى مصادرتها ، والتحفظ عليها ، كما خلت أيضا ، مما يفهم منه حرق الكتب السنية ، بعد اقتحام مدينة رقادة ، وحاضرة القيروان ؛ ولذلك يبدو أن الرواية التى تفردت بها بعض النصوص الاباضية ، يتخللها الشك ، لغرابتها ؛ وربما دفع الى صياغتها الغضب من الشيعة وكراهيتهم والرغبة فى تشويه سمعتهم ، والتشهير بهم ، باعتبار أنهم أعداء للفكر الاباضى ومتعصبون ضد المخالفين لهم فى المذهب الدينى .

وقد ظهرت أصداء ما يكنه أولئك لهؤلاء ، فى بعض المصادر الاباضية المتأخرة مثل الوارقلانى (ق 6 هـ/12 م) فى كتابه : « الدليل والبرهان » ، حيث يقول : « وأما الشيعة الجهلة، روافضهم، وغاليتهم، فانهم قدحوا فى الاسلام، والنبوة، والالوهية» (3).

ولنا أن نتساءل مع ذلك عن أهمية كتب « الحرف » « والفنون الدنيوية » التى اشتملت عليها مكتبة المعصومة فى تاهرت ، أو اختصت بها مكتبة الائمة الرستميين « الافاضل » ، دون حواضرا فريقيه الكبرى ، ومكتبات الامراء الاغالبة ، وعلى رأسها بيت الحكمة فى القيروان الذى أشرف على تأسيسه وتجهيزه الامير أبو مضر زيادة الله الاخير (4) (290 هـ/902 ـ 903 م) ، ثم مكتبة فاس وروائع الآثار الادريسية ومكتبة بنى واسول فى سجلماسة وآثارهم الأدبية ؟

ان النصوص الاباضية ، وغير الاباضية ، لم تشر الى استيلاء الداعى الشيعى ، على المكتبات الخاصة بالامراء الاغالبة ، فى افريقية ، ولا على الآثار والكتب ، التى كانت فى

---

(3) أنظر : ج 29,I ـ 32 (من كتاب الدليل لاهل العقول) .
(4) عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط 112 ، وفيه ترجمت كتب أنساب البربر .

حوزة بعض علماء المالكية ، والحنفية ، والشافعية فى افريقية ، مع أن هؤلاء قد عارضوا الحكم الفاطمى ، وقاوموه مقاومة عنيدة ، وكانوا بمثابة المرشدين للعامة ، حتى لا يفتنوا من طرف الدعاة الاسماعيلية · ولقد كانت حواضر افريقية ، والمغرب الاوسط ، والاقصى ، وهى : القيروان ، ورقادة ، وتلمسان ، وفاس ، وسجلماسة زاخرة بالكتب ، وبالآثار الادبية ، وبالمكتبات مثل تاهرت ، حاضرة بنى رستم ، ومع ذلك يفتقر الباحث الى اشارات نصية ، عن قضية حرق الكتب ، والمكتبات ، حتى فى عهود الفتن ، والثورات ، والصراع المذهبى بين الشيعة ، ومعارضيهم ، من أية نحلة كانوا ·

ويلاحظ ان الرواية الاباضية تذكر ان الداعى عندما مر بتاهرت ، وفعل « فعلته » كان فى طريقه الى سجلماسة ، لا الى رقادة ، نقطة تمركزه واستقراره · وهنا يصح لنا أن نقول : كيف يثقل الداعى نفسه بحمل الكتب ، ويشغلها بالنشاط الثقافى والعلمى ، وهو متأهب للحرب ، ويعد للمعركة المرتقبة مع أمير سجلماسة (اليسع ابن مدرار) الذى سجن المهدى وابنه أبا القاسم وضيق عليهما فى سجنهما ؟ لا سيما وان النصوص الاباضية تبالغ فى وصف مكتبة المعصومة ، وفى عدد الاسفار التى كانت تشتمل عليها (5) ·

ولو أن مدينة تاهرت استعصت على الداعى ، وقاومت ، ولو انها لم تصبح مدينة مفتوحة ، ومنطقة نفوذ للداعى ، وللحركة الاسماعيلية ، لكان لرواية حرق الكتب وجه صواب ، أما وقد صارت تاهرت وما فيها من ذخائر ، ملكا خالصا ، لداعى الفاطميين بحق الفتح فان الاقرب الى التصديق والقبول ، أن يكون هذا الاخير ، قد أمر بالعناية بمكتبة المعصومة ، وبالذخائر والآثار الادبية ، وبمخلفات الامامة الرستمية ، نظير ما فعله فى رقادة ، بالنسبة لمخلفات الامارة الاغلبية · وفى ذلك انسجام كامل مع ماضيه كمعلم ، ورجل فكر · ويؤيد هذا الافتراض ، أن الداعى الشيعى تصرف فى مدينة

(5) أنظر : البكرى : المصدر السابق 66 ، حيث يذكر ان لمدينة تاهرت قلعة تعرف بالمعصومة وهذه المكتبة يبدو أنها كانت فى القلعة أو بجوارها · مما يبرر تسميتها بمكتبة المعصومة نظير مكتبة القلعة فى مصر القديمة مثلا ·

تاهرت بعد دخولها ، على نحو يشعر بأنه أصبح مسؤولا « أوحد » على شؤونها ، وعلى راحة وأمن سكانها ، وممتلكاتهم ، ولذلك عندما فارقها الى سجلماسة ، تـرك حاميـة عسكرية كتامية لحفظ الامن ، وقائدا من لهيصة ، هو أبو حميد دواس بن صولات ، يساعده أخص رفقاء الداعى ، وهو ابراهيم بن محمد اليمانى ، الذى اشتهر بلقب « السيد الصغير » ، تمييزا بينه وبين أبى عبد الله الداعى ، الذى اشتهـر بلقـب « السيد الكبير » ٠ ولعل حرق نفائس مكتبة المعصومة ، ان حصل فعلا ، انما يكون بسبب الفتن ، والصراعات ، التى عرفتها مدينة تاهرت ، والامامة الرستمية ، وهـى فتن كثيرة ، تسببت فيها القبائل المجاورة للمدينة ، مثل هوارة ، ولواتة ، وزناتة ، وكذلك سياسة بعض الائمة الرستميين ، مثل الامام أبى بكر بن أفلح ، ثم التناقضات الاسرية ، فى صميم البيت الرستمى ، التى ترتب عنها اغتيال الامام أبى حاتم يوسف بتدبير أخيه اليقظان ، وانقسام البيت الرستمى ، والموالين للامامة الى حزبين متعادين ؛ يحاول كل منهما أن ينال من الآخر بالتماس الحليف ، والنصير ، سواء فى داخل تاهرت أو فى خارجهـا ٠

ويبدو لى أيضا أن الفارين ـ بعد سقوط تاهرت ـ مـن بقايا الاسرة الرستمية ، مثل الامام يعقوب بن افلح ، وابنه أبى سليمان ، وبعض ابناء الامام أبى حاتم يوسف ، مثل الاميرة دوسرا ، التى بحث عنها ، فلم يعثر لها على أثر ، بعد سقوط المدينة ، هؤلاء يمكن أن يكونوا قد أخذوا شيئا غير قليل ، من هذه النفائس المذهبية ، والدنيوية الى مهجرهم الجديد فى (صحراء بنى وارجلان) ، غير أن بعضها يكون قد ضاع فى الطريق لاشتغال الفارين بالدفاع عن أنفسهم ، وتأمين حياتهم ، من جنود الداعى ، أما بقيـة الكتب ، فقد يكون قد أصابه البلى ، أو أفسده المعارضون السياسيون ، للامـامة الرستمية ، أو المنشقون عن الطائفة الاباضية الوهبية ؛ مثل بقايا النكارية ٠

وقد أدى الانشقاق فى صلب المذهب الاباضى ، منذ عصر الامام عبد الوهاب ، الى جنوح فئة من اباضية جبل نفوسة وطرابلس الى الاستقلال ، عن نظام الامامة ؛ وكان الخلاف بين صفرية سجلماسة ، واباضية تاهرت عميقا ، رغم ما كان يوجد بين الاسرتين

الحاكمتين من رباط المصاهرة منذ عصر الامام عبد الرحمن بن رستم (6) . لذلك لـم يرض صفرية سجلماسة بولاية ميمون بن مدرار المنتصر (ابن أروى) فى سجلماسة ، كما ضـم صفرية تاهرت أصواتهم الى أصوات المالكية ، والواصلية ، والاباضية المعارضين للامامة ، وطالبوا الداعى الشيعى بالتدخل لوضع حد لنظام اليقظان بن أبى اليقظان وأسرته الرستمية ، على ان يساعدوه فى مجهوداته (7) .

فلعل هذه الطوائف التى تواطأت مع الشيعى لمحو الكيان السياسى ، للاباضية فى تاهرت ، هى التى قادت المعركة ضد آثارهم الادبية ، والمذهبية بطريقة أو بأخرى ، سيما وأنها بحكم تعايشها معهم ، فى تاهرت تكون قد تضررت بمظاهر استبدادهم وبتحيزهم وعنادهم التى كانت تظهر أثناء حلقات الجدل ، والمناظرة ، بين الطـوائف المذهبية ، أو أثناء الفتن ، والحروب الداخلية .

واذا كانت ظروف سقوط تاهرت ، وما صاحبه من احتلال الامن ، واستبداد جند كتامة بالسكان ، وسلوكهم سياسة السلب والنهب ، قد هيأت الفرصة ، اما لضياع ، أو لافساد الآثار المذهبية ، للاباضية . فالذى يلاحظ هنا :

ان اباضية (جبل نفوسة) ، (وجبل دمر) والجريد وجربة ، قد بقوا حتى هذا الوقت بمنأى عن الاخطار . وبالتالى بقيت آثارهم الادبية وكتبهم المذهبية فى حرز أمين .

ومنطقة جبل نفوسة بصفة خاصة ، كانت تعتبر مركزا تاريخيا للمذهب ، وموطنا زاخرا بعلمائه ، وحملة لوائه .

وقد كان الائمة منذ عصر الامام عبد الوهاب ، يستعين بهم ، فى الفتـوى ، وفى تسيير بعض الخطط الشرعية مثل القضاء ، والحسبة ، والشرطة ، كما كانوا يستجلبون بعض حذاقهم ، للرد على الفئات المعارضة ، ولادارة حركة الجدل ، لدحض آراء المخالفين لهم مثل الواصلية (8) .

---

(6) البكرى : المصدر السابق 150 ، ابن عذارى : المصدر السابق 216،1 .
(7) البارونى : المرجع السابق 92،2 وما بعدها . أبو زكرياء : السيرة : ورقة 32 ــ 33.
(8) البارونى : المرجع السابق 118،2 ــ 119 .

وعلى هذا النسق ، نقول : ان ما كان يوجد فى تاهرت من كتب مذهبية ، أو فنية لا يمكن اعتبارها بسهولة هى الفريدة ، وهى الامهات ، وبضياعها ضاعت الاصول ، كما تشير الى ذلك بعض النصوص الاباضية ، لان الموطن الثانى للامهات المذهبية ، ولكتب الفنون والحرف كان فى قرى « جبل نفوسة » وحواضره أيضا . وما ضاع من «تاهرت» بعد سقوطها ، يكون له بدون شك اما نظير ، أو أصل فى منطقة نفوسة (9).

والذى يجب تأكيده هنا : أن النصوص لا تشير الى حركة هجرة كثيفة من تاهرت بعد سقوطها ، وهذا يعنى أن أغلب سكان المدينة بقوا على وضعهم ، يظلهم تسامح الداعى الشيعى . فلم يفارق المدينة ، الا اعداد يسيرة ، ضمنها بقية أفراد الاسرة الرستمية ، ومن تعلق بهم ، بسبب من الاسباب ؛ وهؤلاء اتجهوا الى صحراء وادى ريغ وبنى ورجلان ، حيث اخوانهم الذين رحبوا بهم ، وفكروا جديا فى احياء نظام الامامة من جديد ، لولا امتناع الامير يعقوب بن افلح . ويبدو أن جماعات أخرى ترسبت فى منطقة الزاب، وفى كتلة أوراس بجوار اخوان لهم أيضا، بدليل ان البكرى (ق 5هـ/11م) لاحظ انتشار الاباضية فى مدن الزاب ، وجبل أوراس (10) ، كما التجأ آخرون الى اقليم قسطيلية (الجريد) ، وقصور قفصة، ونفزاوة واستقروا بجوار اخوانهم الاباضية، لان ابن حوقل (ق 4 هـ/10 م) أشار الى كثرة الاباضية فى قسطيلية ، وقفصة وبشرة وسوماطة (11) .

والشىء الذى يستخلص من كل ذلك هو ارتباط تاريخ جبل نفوسة وطرابلس ، ومنطقة قسطيلية ونفزاوة ، ووادى ريغ وصحراء بنى وارجلان بتاريخ تاهرت الرستمية والفضل فى وحدة تاريخ المنطقة كلها الى الاسلام ، ثم الى المذهب الاباضى الذى عبر عنه نفسه « سياسيا » فى جبل نفوسة ومنطقة طرابلس ، حيث قامت «الدولة الخطابية»

(9) الشماحي : المصدر السابق 424 . ومن ذلك ما ذكره الشماحى عن تآليف كثيرة بلغ عددها ثلاثة وثلاثين ألف سفر ، وقارن أيضا بما ذكره عن مدونة أبى غانم ، التى احتفظ بها فى صورتها العمروسية : ص 228 .

(10) المصدر السابق 72 ـ 73 ، 144 ـ 145 ؛ ومن هؤلاء تلقى أبو يزيد النكارى مساعدة كبرى اثناء ثورته ضد الفاطميين .

(11) صورة الارض 93 ـ 94 .

كما عبر عن نفسه فى تاهرت أيضا حيث قامت الدولة الرستمية اما بعد سقوط الامامة ، ورفض يعقوب بن افلح احياءها فى حماية بنى وارجلان فى الصحراء ، فقد اقتصر التعبير الاباضى على النواحى «المذهبية والحضارية» فى منطقة الصحراء الواسعة وضمنها بلاد الشبكة أو بلاد ميزاب الزاهرة فى وقتنا • ويبدو أن رغبة بنى وارجلان فى احياء الامامة ، هو الذى تسبب فى غضب الداعى الشيعى ، وعبيد الله المهدى أيضا الذى أمره بملاحقة الفارين الى وارجلان ، وتأديب سكانها ، على ترحيبهم ، ببقايا الاسرة الرستمية • وفى ضوء ذلك تفهم الرواية الاباضية ، عن سرية وجهها المهدى ضد بنى وارجلان ، فلم تستطع النيل منهم ، لتحصنهم بكدية كريمة (12) •

ومما يلفت النظر أن أقدم رحالة وجغرافى ، زار تاهرت فى عصر أبى اليقظان محمد ، وهو : ابن واضح اليعقوبى (ت 284 هـ) ، لم يشر أثناء حديثه عن تاهرت وأحوازها ، وعن القبائل الاباضية التى تنتشر حولها ، أو بعيدا عنها الى قلعة تسمى بالمعصومة ، ولا الى مكتبة خاصة فى المدينة تعرف بهذا الاسم أو باسم آخر ؛ هذا بينما وصف تاهرت « بعراق المغرب » ، من فرط اعجابه بازدهارها • كذلك نلاحظ أن أقدم مؤرخ وهو ابن الصغير ، الذى عاش فترة فى تاهرت ، وعاصر أخريات عهد أبى اليقظان محمد (ت 281 هـ) لم يشر الى اسم مكتبة خاصة بالرستميين فى تاهرت ، ولا الى قلعة باسم المعصومة ، رغم أنه اشار الى مجموعة من القلاع كانت تنتشر حول ارباض تاهرت مثل (اسكدال) و (تسلونت) و (حصن لواته) و (قلعة نفوسة) (13) •

وهذا قد يلقى ظلالا من الشك حول وجود قلعة بهذا الاسم ، فى تاهرت فى هذه الفترة • وبما أن هذه الفترة الذهبية وهى فترة أبى اليقظان محمد ، قد تلتها عهود الفتن ، والحروب القبلية ، والنزاعات الاسرية ، فان الاقرب الى الظن ان يكون بناء قلعة المعصومة فى تاهرت تم فى عهد الولاة الفاطميين ؛ لان الرواية التى رواها أبو عبيد البكرى (ق 5 هـ/11 م) استنادا على رواية شيخه محمد بن يوسف الوراق

(12) أبو زكرياء : المصدر السابق ، ورقة 32 ـ 33 ، وهنا يشير الى تحصن بنى وارجلان بكدية كريمة ممتنعين عن رجال عبيد الله المهدى الذين انسحبوا بدون نتيجة ايجابية •
(13) أخبار الائمة الرستميين 39 •

(ق 4 هـ/10 م) ، لا يمكن حملها على عهد الامامة الرستمية ، نظرا لانعدام المرجحات وسكوت المصادر المعاصرة . والاقرب الى الرجحان حملها على عهد الفاطميين أو الزيريين (14) .. الذى عرف صراعا مريرا دار بين ولاة المدينة وزعماء زناتة الكبار لان تاهرت غدت فى العصر الفاطمى تشرف على الجزء الغربى من الخلافة الفاطمية ، وتمثل القاعدة الكبرى للانطلاق للتوسع ، أو لحراسة النفوذ الفاطمى من حركات زناتة والامويين فى قرطبة . وفى عصرها الجديد ، لم تتأثر وضعيتها بالسياسة المذهبية للخلفاء الفاطميين ، بقدر ما تأثرت بدسائس مجموعاتها القبلية ، وطوائفها المذهبية ، ومن حركات زناتة ، والحاح محمد بن خزر المغراوى عليها ، بتنسيق مع بعض المعارضين للحكم الفاطمى فيها .

ومما سبق يتبين كيف انه لا يمكن الركون الى رواية حرق كتب المذهب الاباضى فى تاهرت بعد فتحها من طرف أبى عبد الله الشيعى ، بينما لا يستبعد أن يكون هذا الاخير قد تصفح محتويات ما بقى من المكتبة واستحسن بعض نفائسها ، وأمر بحفظها والعناية بها مثلما جرت عادته بذلك من قبل ، احتراما لآثار غيره ، ولماضيه كمعلم وكداعية . كما لا يستعبد أيضا أن يكون الهام فى هذه المكتبة قد تلقفته أيد كثيرة فى عهود مختلفة قبل وصول كتائب الشيعى الى المدينة فعلا ، وبعضها يكون قد نقل مع الفارين الى صحراء بنى وارجلان خاصة مع الامام يعقوب بن افلح (15) واتباعهما باعتيار ذلك ارثا نفيسا بقى من عهد الاسلاف . وأقل ما يجب نحوه هو : حفظ قداسته ، وقيمته حتى لا يعبث بهما المخالفون والاعداء .

(14) ومما له دلالة بالغة أن أبا زكرياء لم يشر الى اسم مكتبة فى تاهرت ، وانما قال : وجد الداعى صومعة كتب الخ .. وكذلك الدرجينى فى الطبقات .

(15) تشير بعض النصوص الى ان يعقوب بن افلح ، رزق بابنه أبى سليمان فى المهجر الجديد فى بنى وارجلان .

مدينة ورقلة في رحلة العياشي

د. مولاى بلحميسي
معهد العلوم الاجتماعية ـ دائرة التاريخ
جامعة الجزائر

1 ـ المؤلف ورحلتـــــه :

هو أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر ... العياشي (نسبة الى قبيلة آيت عياش) . ولد بالمغرب الأقصى سنة 1037 هـ = 1628 م . وتجول كثيرا فى البلاد طلبا للعلم حتى أجازه الشيخ عبد القادر الفاسي (2) فأصبح العياشي يعـــد من أشهر المحدثين وأكبر الصوفيين فى المغرب الأقصى .

ثم رغب فى الحج فأشرق ثلاث مرات : فى سنة 1059 هـ = 1649 م ، وفى سنة 1064 هـ = 1653 م ، وفى سنة 1073 هـ =1661 م . مارا بطريق الجنوب : سلجماسة وتوات وورجـلة وطرابلس ... ومصر . وقد زار أهم أمصار المشرق . ومر ذات يوم وهو عائد الى بلاده ، ببسكرة والأغواط وعين ماضي وفقيق، واصفا ما رأى وسمع .

وتوفى العياشي سنة 1090 هـ = 1679 م بالمغرب الأقصى بسبب الطاعون . وترك انتاجا يحتوي على شعر ديني وعلى منظومة فى البيوع وكتاب فى التصوف سماه « تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد فى الدنيا الفانية » وكتاب فى تراجـم العلماء سماه « اقتفاء الأثار بعد ذهاب أهل الأثار » وآخر عنوانه « تحفة الاخلاء بأسانيد الأجلاء » (3) .

---

(1) **وارقلة** ويسميها ابن خلدون واركلا ووراكلة وواركلي . وقيـــل تسمى وارقلان جمــع وارقلة (دي سلان فى نقل المسالك والممالك للبكري ـ ص . 340) . وهي واحة شهيرة على بعد 160. كم. جنوب توقورت . وكان أهل المغرب الاقصى يمرون بها فى طريقهم الى حج بيت الله .
ولا نعرف تاريخ تأسيسها بالضبط ـ قيـل كان شيخهـا يسمى بالوارقلي فسميت المدينـة بوارقـلة (ر. باسى : (Rene Basset : *Mélanges afri. et or.*)

(2) **عبد القادر الفاسى** : بن علي بن يوسف الفاسى (1007 ⟵ 1091) = (1509 ⟵ 1680).
من أكبر علماء المغرب وصوفيته . وهو شيخ الزاوية الشادلية .

(3) دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الثانية . ج 1 . ص 818 .

الا أن العياشي اشتهر برحلته التي سماها « ماء الموائد » وضمنها أخبارا وحوادث مختلفة شاهدها أثناء سفره • (4)

وللكتاب فوائد اخبارية نفسية لما فيه من المعلومات التى انفرد بذكرها العياشي والمتعلقة بطريق الجنوب من المغرب الى المشرق ، وبالصحراء وجغرافيتها وبأخلاق الناس وعوائدهم وبأحوال العلماء الصلحاء ، وبالتجارة وغيرها •

وكان أصحاب الرحلات يفضلون اما طريق البحر (5) واما طريق التل (6) • ومع ما فى هته الرحلة من استطرادات مملة واهمال للجانب الجغرافى والاقتصادي فقد عرفت رواجا كبيرا واقبالا ملحوظا حتى أصبحت مثالا يقتدى به فى كتابه الرحلات ونموذجا يقلد •

ولم يفت المستشرقين نقلها كاملا الى لغات مختلفة أو نقل بعضها (7) .

---

(4) ألف العياشي هاته الرحلة بعد الحج الثاني « 1064 هـ\1653 م » .
وطبعت بفاس سنة 1898 م • / 1316 هـ • فى مجلدين .
وله رسالة بعث بها الى أهله بعد وصوله الى الحجاز يذكر فيها مراحل السفر ويبدي فيها انطباعاته وقد نقلها الى الفرنسية ، الأخضر :
(4e congrès de la fédération de la société des savants - Alger 1939.)

(5) نذكر من بينهم : ابن جبير (محمد بن أحمد) 540 – 614 هـ / 1145 – 1217 م•
والتمقروتي (أبو الحسن علي بن محمد) توفي بمراكش سنة 1003 هـ = 1594 م • وهوصاحب « النفحة المسكية فى السفارة التركية » • يوجد فى رحلته وصف لبعض المدن الجزائرية مثل الجزائر العاصمة وبجاية وعنابة .

(6) نذكر من بينهم : العبدري(محمد بن محمد بن علي) من رجال القرن 13 م • / 7 هـ•
صاحب « الرحلة المغربية » • مر بتلمسان ومليانة وبالجزائر ثم بجاية فقسنطينة ...

(7) نقل بربروڤجير (Berbrugger) الى الفرنسية الجزء الخاص بالجنوب الجزائري فى كتاب :
Exploration scientifique de l'Algérie. T. XI.
كما نقل أحمد برهيمات (A. Brihmat) الى الفرنسية أيضاجزءا من الرحلة وهو الذي يتعلق بما بين وادي درعة وورقلة ، ونشره فى مجلة :
Revue de l'Islâm de Paris - (mars 1899.)
ونقل موتيلانسكي (Motylinski) القسم الذى يهم المراحل بين طرابلس ومصر فى كتابه :
Itinéraires entre Tripoli et l'Egypte. (Alger 1900.)

2 ـ اخبـار مدينة وارقلـة :

[الوصول الى وارقلـة وسرور الحجاج ...] (8)

... فدخلنا وارقلا قبل غروب الشمس ونزلنا بباب المدينـة المسمى بباب السلطان وكان من لطف الله بالحجاج ان صادف دخولنا دخول قافلة من اعـراب « الأرباع » قدمت بسمن كثير وغنم وابل وزرع اشترى الناس منهم ما احتاجوا اليه بأرخص ثمن وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك أو أكثر فتنعم الناس فى اللحم والتمر والسمن واشترى الحجاج غنما كثيرة حتى كأن تلك الليالي الثلاث التى أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم (9) .

[جهل الامام وتخوف العياشي ....]

وكان دخولنا لمدينة وارقـلة عشية الخميس وأقمنا يوم الجمعة واليومين اللذين بعده ودخلنا المدينة لحضور صلاة الجمعة وصلينا بجامع المالكية وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتحريف والتقديم والتأخير مع ادغـام حروفها حتى كأنها همهمة فكنت أتخوف أن لا تصح لنا معه جمعة ان كانت صلاته كخطبته فنجى الله فأحسن فى قراءة الفاتحة فما ظننا أن صلاتنا معه مجزئة ودعـا فى خطبته للامام المهدي ثم السلطان الأعظم الخاقان الأفخم محمد بن ابراهيم بن مراد (10) ثم لسلطان بلاده مولاي علاهم (11) . فلما فرغ من الصلاة بعثت بعض أصحابنا ليسأله عن المهدي المدعو له فى الخطبة أهو المنتظر أم أحد المنتحلين ذلك ممن مضى ؟ فسأله عن ذلك فاذا هو لا يفقه شيئا من ذلك وقال : أظنه النبي (صلعم)

---

(8) قسمنا نص العياشي الى فقرات جعلنا لها عناوين بين [ ] زيادة للايضاح .

(9) ماء الموائد . ج 1 ص 46 .

(10) محمد الرابع بن ابراهيم بن مراد ـ الخليفة العثماني ـ حكم من 1648 الى 1687 . [وقد احتل وارقـلة حاكم الجزائر صالح رايس سـنة 1552] .

(11) هو أمير وارقلة آنذاك .

فعلمت أنه وجد الخطبة مكتوبة فى صحيفة عنده وحفظها كما وجدها الا أنه لم يحرر حفظها ونقلها ولعلها من خطب بعض من كان أيام المهدي بن تومرت (12) زاد فيها هو الدعاء للامامين اللذين فى عصره (13) •

[وصف المدينــــة]

ثم بعد الصلاة طلعنا للمأذنة وهي مشرفة على المدينة كلها فنظرنا الى أطرافها ووسطها وكنا نستقلها قبل ذلك فاذا هي مدينة لها سبعة أبواب وهي فى وسط خط من النخل ومساحة المدينة بالتخمين نحو من نصف فرسخ فى مثله محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها لا يصل أحد الى سورها الا من ناحية الأبواب .

[حوادث واضطرابــــات]

وقد خلا كثير منها بسبب فتنة وقعت قبل قدومنا بنحو من شهرين وذلك أن طائفة منها هم بيضة البلد وعصبة أهلها اتهمهم الأمير بالقيام عليه فاتفق مع رعيته على قتلهم وان لا يفلتوا أحدا منهم كبيرا أو صغيرا . فأمر بسد أبواب المدينة وتقدم الى من خارج البلد من الأعراب أن يرتصدوا خارج السور بمن أفلت من البلـــد قتلوه ـــ فقام عليهم بالسيف بغتة هو ومن معه فقتل منهم مقتلة عظيمة نحوا من المــائتين ولم يسلم منهم الا من تسور جدار السور ولم يلقه الاعراب أو افتدى منهم وهي فعلة شنيعة عدت من هفوات ذلك الأمير وأسقط ذلك منزلته عند كثير مـــن الناس مع أنه معروف قبل ذلك بحسن السيرة . وأورث ذلك شحناء بينه وبين

---

(12) ابن تومرت : ولد بالسوس ما بين 470 و 480هـ «1077 ـ 1087م» ، وسافر الى المشرق طلبا للعلم وتنقل بين عواصمه مدة ثم عاد الى المغرب الاقصى وتزعم الحركة التى قضت على المرابطين . وتوفي بن تومرت حوالي 524 هـ = 1130 م .

(13) ماء ماء الموائد . ج 1 ص 46 .

اخوانه أولاد الشيخ أحمد بن جلاب (14) فان أمه أخت الشيخ أحمد وكانوا قبل ذلك شيعة له وبهم تمكن من البلد .

[فى مكتبة الامام ..]

ثم لقيت امام المسجد بعد ذلك وأدخلني الى منزله وأحضر لي ما عنده من الكتب فاذا عنده أجزاء من الموطأ ، ومن البخاري ومن الأكمل وبعض شراح المختصروالرسالة (15) غالبها لم يكمل وحبسني لطعام صنعه حتى حانت صلاة المغرب .

[مسجد وارقلة]

فدخلت المسجد بازاء داره لصلاة المغرب وهو مسجد متقن الصنعة مجصص الأرض والحيطان على بابه أماكن وفى جوانبه ، معدة للوضوء وقضاء الحاجة ومكان معد لتسخين الماء فأعجبني غاية .

---

(14) بنو جلاب : هم سلاطين توفرت من بقايا بني مرين . ومؤسس هته الامارة التي ظهرت فى أواخر القرن الخامس عشر يسمى الحاج سليمان الجلاب ثم خلفه ابنه علي ثم جاء دور أحمد بن علي ثم عمر بن المذكور ...

وبقيت هته الاسرة الى دخول الفرنسيين .

(15) الموطأ : لأبي عبد الله مالك بن أنس (توفي بالمدينة سنة 795 م) ..

البخاري (محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ... الجعفي) صاحب « الصحيح » توفي سنة 870 م / 256 هـ .

الاكمل : اكمل الاكمل لابي عبد الله الابي.

المختصر : لخليل بن اسحق . . . من أكبر فقهاء المالكية ، توفى بالقاهرة سنة 776 هـ = (1374 م) .

الرسالة : رسالة ابي زيد القيرواني .

[بعض عوائد أهل المدينة فى الصلاة]

فلما دخل المؤذن كبر فى آذانه أربعا أول الأذان وأربعا آخره فأنكرت ذلك فى نفسي اذ القوم فى ظني (16) مالكية فلما دخل الناس للصلاة ابتدروا زوايا المسجد يتيممون فقلت عجبا ما أولئك كلهم من ذوي الأعذار ثم وقع فى نفسى آنهم مزابة روافض • ثم سألنا بعد ذلك فاذا المسجد مسجدهم يصلون فيه وهو معروف بهم وهم طائفة من الأباضة من اتباع عبد الله بن أباض (17) يوافقون المعتزلة فى أكثر عقائدهم كنفي الرؤية والقول بخلق القرآن ويبغضون بعض الصحابة وهم كثيرون فى تلك البلدة وأصل مادتهم من جبال مزاب فانهم ، كلهم روافض (18) وبهــا علماؤهم وهي عند من هو على معتقدهم معظمــة • وهؤلاء الروافض يسمون أشياخهم (« بعم فلان » فيقولوز ــنص هذه المسألة عمى داوود أو عمي ابراهيم •

[قصــــة غريبــــة]

أخبرني من أثق به من أهل ريغ من أشياخها أنه مر بهم رجل قاصد المزاب فسأله من هو فقال من أهل البصرة جئت زائرا البلاد مزاب ، فقبح الله •••

فسألت بعض الناس عن عدم انكار والي لبلد عن هذه الطائفة مع أنه ليس على معقدهم فأخبرني أنهم عصبته فى حروب تقع بينه وبين أخواله وأعرابهم فلا يقدر أن ينكر عليهم ذلك وهذا كله من رقة الديانة وخيانة الأمانة •

---

(16) يكبر المالكية مرتين فقط .

(17) ابن أباض (عبد الله) المري التميمي . مؤسس الفرقة التى تحمل اسمه . وهو من رجال النصف الثاني من القرن الاول الهجري وأوائل الثاني . ظهر فى أول الامر بحضر موت واحتل صنعاء .

(18) فرقة من الشيعة الغلاة .

قيل سموا كذلك لآنهم رفضوا رأي الصحابة فى مبايعة أبي بكر وعمر . وقيل لاز زيد بن علي بن الحسين امتنع من لعن أبي بكر وعمر فرفضوا رأيه .

[فى مكتبة امير وارقلـــة]

ولما كان آخر أيام الاقامة سألت صاحبنا أمام المسجد هل فى البلد شىء مــن خزائن الكتب فأخبرني أن عند الأمير خزانة من الكتب وأنه لا يمنع من أراد الدخول اليها فذهبت معه اليه وأدخلنا ورحب بنا وأخبره صاحبنا بما أريد فأدخلني الى كتبه فاذا عنده نحو من أربعين سفرا من جملتها التوضيح والتتائي وبهرام وحواشىعلى الصغرى (19) . وأخرج لنا طعاما وسأل عن مسائل فقهية وله بعض الالمام بها وجرى فى الكلام معه ذكر تعارض الأصل والغالب . فطلب مني أن أكتب له فى ذلك شيئا فكتبت له بعد الخروج من عنده ما حضرني من كلام العلماء فى ذلك وأوردت له بعض الأسئلة وحضرني عند الكتابة بيتان فى مدح هذا الأمير لما شاهدت من حسن خلقه ولين جانبه وهما :

فان ولاة الأمـــر فى كـــل بلـــدة	كثيرون لكن الأمـير علاهـــم
علاهم « علاهم » اذ تحـلوا بحلية	من العدل والممدوح رقم جلاهـــم

وبعثناها مع صاحبنا امام المسجد وهذا الامام يدعى عند أهل بلده بباسيد وأخوه « ســد خير » وهما معروفان بأولاد الفقيه منصور وهما أقرب من رأيت فى هذه المدينة بسيرة الطلب وما أظن أحدا منهما يحسن بابا من أبواب أي علم .

ولكن البـــلاد اذا اقشعـــرت	صـــوع نبتهـــا رغي الهشيـــم !

[ثروة اهل وارقلـــة وكرمهـــم]

ولأهل ورقــلة هذه البلدة دارهم يتعاملون بها يكثر فيها النحاس ، أربعــة وعشرون فى ربع ريال . وقد أضاف أهل المدينة الركب أربع ليالضيافة لا بأسبها .

---

(19) التوضيـــح : عنوان كتب عديدة . لعـلـه يعني هنـــا التوضيح ، لخليل بن اسحاق فى مختصر ابن الحـــاجب .
التتائي (شمس الدين محمد بن ابراهيم) شارح مختصر خليل .
بهرام (بن عبد الله بن عبد العزيز) قاضى القضـــاة بمصر ــ شرح خليـــل الصغرى : كتاب فى التوحيد لمحمد بن يوسف بن عمر السنوسى .

[بعض عوائد اهل المدينـــة]

وفى باب المدينة التى نزلنا من قبله خرق كثيرة من صوف وكتان وأكبرهـــا صحيحة لا قطع فيها يصلح للانتفاع وليس مثلها مما يرمى به فى العادة وتعجبنا من كثرتها مع صحتها ولا نعلم السبب فى عدم أخذها وتركهم الانتفاع بها وهي لو جمعت لكانت أحمالا . وسمعنا هناك أنها ثياب الموتى وأن من مات ألقيت ثيابه التي عليه عند الموت هناك ولا تمس ولا نعلم صحة ذلك والله أعلم •

ومن غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزيرة بحفر الأبار فيحفرون بيرا نحوا من خمسين قامة ثم يصلون الى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه فاذا نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا ويطلع كذلك بسرعة الى فم البير ويصير عينا •

فان لم يتدارك الحافر بالجذف أغرقه الماء . ومتى احتاجت العيون الى الكنس حصلت لمتعاطي كنسها مشقــة كثيرة وربمـا تركوها بلا كنس للمشقة فتندثر . وقد أخبرني من أصحاب من عاين كنسهم للعيون بأمر غريب وكذلك عيون أهل وادي ريغ .

[مغـادرة وارقلـــة]

ثم ارتحلنا من وارقلة يوم الاثنين ونزلنا ببلدة قريبة منها على نصف مرحلة تسمى « مقرسا » •

3 ـ أهمية هـــذا النص :

رزق العياشى الدقة فى الملاحظة والميل الى الاستطلاع وروح المقارنة وساعدته منزلته الاجتماعية على كسب المعلومات والأخبار والعثور على ما فات غيره مـــن الكتب والوثاءق •

فسجل فى رحلته معلومات دقيقة مفيدة ودون فيها مالا يوجد فى الرحلات الأخرى (20) من أخبار البلاد والعباد •

وقد اكتفى أبو عبيد الله البكرى (21) باشارات تتعلق بموقع وارقلة فقال : « مدينة طبنة وحواليها بنو زنراج ومنها الى نهر الغابة ثم تمشي ثلاث مراحل فى مساكن العرب وهراوة ومكناسة وكبينة ووارقلة ••• » (22) ، وقال أيضا « فان أردت من تادمكة الى القيروان فانك تسير فى الصحراء خمسين يوما الى وارجلان وهي سبعة حصون للبرابر أكبرها يسمى أغرم ان يكامن ••• » (23) •

وتعرض الشريف الادريسى (24) لأخبار ورقلة ونشاط أهلها لكن من الناحية التجارية بالخصوص •

فقال : « وبلاد لملم تتصل من شيء من الفواكه الرطبة الا ما يجلب اليها من التمر من بلاد سلجماسة وبلاد الزاب يجلبه اليهم أهل وارقلان الصحراء فاذا عاد النيل الى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التمر وتاجر بعضهم بعضا واشترى أكثره أهل وارقلان وأهل المغرب الأقصى ••• من أود غشت الى مدن وارقلة 31 مرحلة ومن جبل نفوسة الى وارقلان 12 مرحلة ومن مدينة مسيلة الى وارقلان 12 مرحلة كبار •

وهي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون فى بلاد السودان الى بلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه فى بلدهم وهم وهبية اباضية نكار خوارج فى دين الاسلام • ومن وارقلان الى غانه 30 مرحلة • ومن وارقلان الى كوغة نحو من شهر ونصف ومن وراقلان الى قفصة 13 مرحلة (25) .

ولنص العياشي فوائد اخبارية لا يستغنى عنها :

(20) ان أطول نص لدينا فى أخبار وارقلة قبل العياشي ما كتبه الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف عندهم بليون الافريقي (Léon L'Africain.) فى كتابه « وصف افريقية » ج 2 ص 438 ← 439 •

(21) توفى سنة 487 هـ = 1094 م •
وهو صاحب كتاب المسالك والممالك (فى الجغرافية) •

(22) « كتاب المغرب فى ذكر افريقية والمغرب » طبعة دي سلان 1965 ص 144 •

(23) نفس المرجع • ص • 182 •

(24) الشريف الادريسي – توفي حوالي 548 هـ = 1154 م •
وهو صاحب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » •

(25) نزهة المشتاق – منتخبات بيريس •

1 ـ الحياة الثقافية فى جنوب الجزائر :

أراد العياشي أن يطلع القراء على حالة العلوم الاسلامية فى الأقطار التى مر بها فأسهب فى ذكر الكتب والعلماء وكيفية التدريس ومستوى الثقافة الذى ما من شك كان منحطا .

فالامام الذى لازمه العياشي ـ مدة اقامته بوارقلة ـ صورة لهذه الحالة المؤسفة .

فهو يلحن لحنا فادحا فى خطبته ويكثر من الخطأ ويتردد فى القراءة ولا يفهم ما يقرأ حتى خاف الرحالة أن لا تصح وراءه صلاة الجمعة . ثم ان معلوماته التاريخية فقيرة كمبادئه النحوية : يسأل عن المهدي المدعو له فى الخطبة فلا يفقه شيئا ويخلط بين المهدي والنبي . فعجزه واضح وضعفه فادح ومستواه الثقافى قصير .

وأخو الامام فى نفس الحالة ويقول فيهما العياشى : « وهما معروفان بأولاد الفقيه منصور وهما أقرب من رأيت فى هذه المدينة بسيرة الطلب وما أظن أحدا منهما يحسن بابا من أبواب أي علم ... » .

الا أنه لا ينبغي أن نعمم هذا النقص (26) ولا أن نقيس الجنوب بالشمال فى أيام العياشي ـ « وامام » العياشي لا يمكن أن يكون صورة لعلماء البلاد كلها . وما ذكره عالم مغربي (27) معاصر للعياشي أقرب الى الصحة .

---

(26) لقد اشتهرت وارقلة فى القرون الوسطى بعلماء وأدباء من بينهم :
ـ أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الورجلاني (توفى سنة 471 هـ = 1078 م) . وهو صاحب « كتاب السيرة وأخبار الامامة » .
نقله الى الفرنسية مسكوري (Masqueray) ثم نقله الىنفس اللغة لوتورنو(Letourneau) فى المجلة الافريقية . 1960 .
ـ وأبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي الورقلاني (توفي سنة 1174 م ؛ ولد بوارقلة وتعلم بها وانتقل الى قرطبة ثم عاد وارتحل الى المشرق . وله كتب عديدة من بينها « كتاب الدليل والبرهان » .

(27) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي ـ رحالة وأديب مغربي ـ ولد بفاس فى منتصف القرن السابع عشر م وتعلم بها ثم انتقل الى تطوان ومنها الى الجزائر العاصمة سنة 1683 م . فأخذ عن علمائها ومنهم الشيخ محمد بن سعيد قدورة الذي أجازه سنة 1684 م \ 1094 هـ .
ولابن زاكور رحلة قصيرة سماها : « نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان » طبعة الجزائر سنة 1319/1902 .

قال بن زاكور فى رحلته متحدثا عن علماء الجزائر العاصمة : « غرر أعلام ينجلي بهم الاظلام ، وشموس أئمة تنفرج بهم كل غمة وتفتخر بهم أخبار هذه الأمة ، من رجال كالجبال وأحبار كالأقمار طلعوا فى بروج سعودها بدورا وألبسوها رواء ونورا فاهتديت بأنوارهم السنية الى قطف ما راق من أنوارهم الجنية ورتعت فى رياض أدبهم فتمتعت ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت وكرعت فى أنهار بلاغتهم حتى رويت وهصرت من أفنان براعتهم ما هويت ... » (28) .

2 ـ الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية :

يظهر من نص العياشي أنه كان لوارقلة ـ فى القرن السابع عشر ـ أهمية كبرى . فللمدينة أبواب سبعة ومساحة معتبرة ، وهي فى وسط نخيا . ومسجدها متقن الصنعة مجصص الأرض وله مرافق لا توجد فى غيره .

وسجل الرحالة الاضطرابات التى نشبت بها قبيل مروره ، وهو فى طريق الحج ، فوصف دور الأعراب فى هذه الحوادث الدامية والتوتر بين الأمير علاهم ـ صاحب وارقلة آنذاك ـ وبين أخواله بني جلاب أصحاب توقرت .

ونجد فى النص أيضا وصفا حيا للحالة الاقتصادية : فالأسواق ذات رواج ، وما يباع فيها بأرخص ثمن من تمر ، ولحم وسمن ، سرور للزائرين . كما لاحظ العياشي ثروة أهل المدينة وقيمة العملة المتعامل بها آنذاك .

وللكتاب الفضل فى التعريف ببعض عوائد السكان فى أداء فريضة الصلاة . فالاختلاف بينهم وبين السنيين محسوس وترى مع ذلك أمير وارقلة يغض الطرف لأسباب سياسية قاهرة .

وذكر المؤلف باسهاب لا يمل غرائب البلدة وسكانها ومن بين تلك ، قصة الملابس الصحيحة المرمية عند أبواب المدينة لا يمسها أحد ـ ولو كان فى أشد الحاجة اليها ـ لأنها ثياب الموتى ـ .

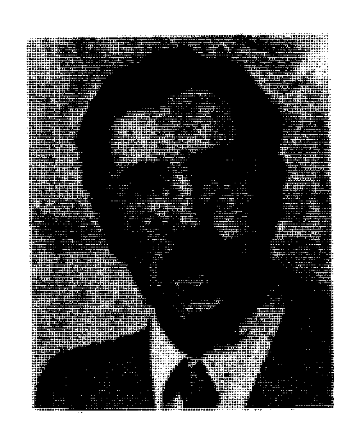
بالحميسي مولاي

---

(28) نشر ازاهير البستان ... ص 3 و 4 .

ورقلة ومنطقتها في العهد العثماني

د. ناصر الدين سعيدوني
معهد العلـوم الاجتماعية
جامعة ـ الجزائر



ظلت ورقلة ومنطقتها تشكل المحور الاساسي لاحداث الجنوب الجزائري ، ومركز الثقل للتطورات التي عرفتها الجهات الشرقية من الصحراء الجزائرية ، وهذا ما جعل الاهتمام بماضي هذه المنطقة من الامور الضرورية التي يفرضها تكامل التاريخ الجزائري وتحتمها وحدة الصحراء مع التل وتدعو اليها الحاجة لابراز مدى ارتباط الجزائر بافريقيا عبر الصحراء ٠

لكن ماضي هذه المنطقة رغم الاهمية التي اكتسبها والتطورات التي عاشها ، ظـل مهملا وغامضا في أغلب فتراته ، فكل ما يعرف عنه لا يتعدى في واقع الامـر خطوطا عامة لاحداث متفرقة غير مترابطة لا تغني الباحث شيئا ولا تقدم للقارىء صورة واضحة عن أحداث الماضي وتطوراته ٠

ولعل أكثر الفترات غموضا ونسيانا في حياة ورقلة ومنطقتها تلك الفتـرة التي تبتدىء بالقرن السادس عشر وتستمر الى مطلع القرن التاسع عشر ، والتي تصادف

الوجود العثماني بالبلاد الجزائرية ، ويرجع غموض هذه الفترة بالذات الى كون المعلومات التى بين ايدينا أو التى يمكن الحصول عليها لم تتجاوز فى أحسن الاحوال نبذا متفرقة واشارات وتلميحات عابرة لا تغنى شيئا فى الكشف عن ماضى المنطقة ، ولهذا يصبح الهدف من كل دراسة لهذه المنطقة فى مثل هذه الظروف موجها الى محاولة اعادة ربط تاريخ المنطقة بباقى البلاد مع اظهار أهميته الخاصة فى نطاق التاريخ الوطنى الجزائرى ٠

ولا يكون المنطلق الى ذلك الا بالتعرف على الوضع الطبوغرافى والعمرانى للمنطقة ففى هذا الصدد نجد مدينتى ورقلة وتوغرت تشكلان وحدة جغرافية وبشرية وتاريخية بحيث لا يمكن التعرض لاحدى المدينتين دون ذكر الاخرى رغم ارتباط توغرت بوادى ريغ اداريا ٠

وتنبع هذه الوحدة من كون المدينتين ظلتا طيلة الفترة العثمانية تشكلان محورا واحدا ومركزا رئيسيا لتجارة السودان ومحطة قارة لطريق الحج ، ومنطلقا سهلا للتوغل فى أعماق الصحراء ، وطريقا طبيعيا نحو المناطق التلية بالشمال ٠ فضلا عن كون مصير المدينتين ظل واحدا طيلة الوجود العثمانى بالجزائر ، بحيث أصبح من النادر ان تقتصر علاقة حكام الايالة الجزائرية ونفوذهم على مدينة دون الاخرى ٠

كما يؤكد الوضع الطبوغرافى والعمرانى هذه الوحدة الطبيعية بين مدينتى ورقلة وتوغرت مما يجعلهما منطقة طبيعية وبشرية واحدة ٠ فالمدينتان تقعان فى أقصى جنوب المنخفض الصحراوى الكبير بين خطى عرض 33 (بالنسبة لتوغرت) و32 (بالنسبة لورقلة) ، يكتنفهما العرق الشرقى الكبير من ناحية الشرق ، وتحف بهما هضاب الشبكة وحماد مزاب وتادمايت من الغرب والجنوب ، وتحاذيهما منخفضات واد ريغ والزيبان ونفزة والجريد من الجهات الشمالية والشرقية ٠

فهذا الوضع الطبوغرافى الخاص جعل المدينتين تتوسطان اقليمين متمايزين من الصحراء الشرقية الجزائرية ، فهما واقعتان فى منطقة تتميز بالميلان نحو الشرق ، مما ساعد على توفر مصادر المياه الجوفية الضرورية للحياة ، وذلك بفعل الترسبات السفلية لمياه وادى مية وايغار غار ٠

فواحة ورقلة الواقعة على ارتفاع 129 م تدين بوجودها لوادى مية ، كما أن واحة توغرت الواقعة على ارتفاع 80م ، كانت هى الاخرى نتيجة للآبار المقامة على مياه واد اغار غار الجوفية (1) .

وتكمن أهمية هذه المصادر المائية الناتجة عـن الوضـع الطبوغرافى للمنطقة ، فى كونها أساسا لتطور وازدهار مدينتى ورقلة وتوغرت بحيث أصبحت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية مرهونة بمدى انخفاض منسوب المياه وبمدى قدرة الاهـالى على استغلال تلك الميـاه الجوفية ، وذلك فى أغلـب الفترات التاريخية التى عاشتها المنطقـــة .

فورقلة بفضل هذا الوضع الطبوغرافى المتحكم فى مصدر المياه وتوزيع الكثبان ، كانت أثناء الفترة العثمانية عبارة عن قصر صحراوى (2) ، مقام فوق مرتفع من الارض يشرف على نخيل الواحة ، يحيط به سور فى أسفله خندق مملوء بالماء ، يرد المهاجمين ويبعد المغيرين عليه . (3)

ويتكون قصر ورقلة الذى تقدر مساحته بحوالى نصف فرسخ فى مثله ، من ثلاث حارات موزعة حول سوق المدينة ، تتخللها طرق ومسالك وازقة ملتوية تؤدى الى أبواب المدينة السبع (4) ، وتختص كل حارة من هذه الحارات باحدى المجموعات السكانية الثلاثة المنتمية فى أصولها الى قبيلة بنى ورجلان الزناتية التى تأثرت بالدماء الزنجية عن طريق العبيد ، وهذه المجموعات هى بنو سيسين فى الجهة الشمالية ، وبنو واجـين فى الناحية الغربية وبنو ابراهيم فى القسم الشرقى من ورقلة .

(1) Despois J., Raynal R. - Géographie de l'Afrique du Nord Ouest - Paris, Payot, 1967 pp. 421-440.

(2) أقيمت مدينة ورقلة الحديثة الى الجنوب الشرقى من هذا القصر الذى هو فى واقع الامر قلعة محصنة تشرف على نخيل الواحة .

(3) عبد الله بن محمد بن ابى بكر العياشى ، الرحلة المعروفة بماء الموائد ، طبعة فاس 1316 هـ ، 1898 م ، المجلد الاول ، ص 46 .

(4) نفس المصدر ، ص 46 ، غير أن فى الفترة الاخيرة يصبح عدد أبواب المدينة خمسة فقط هى باب الربايع وباب بابا أحمد وباب ابو اسحاق وباب عمر وباب عزى .

أما أماكن العبادة وهي ملتقى النشاط الاجتماعي والثقافي بورقلة لاشتمالها على مدارس للتعليم ، فتتوزع على مسجدى المدينة الرئيسيين ، وهما المسجد المالكي المعروف بجامع سيدى عبد القادر الجيلالي ، حيث تجتمع جماعة البلد واهل الرأى وتقام صلاة الجمعة ويخطب للحاكم (5) ، والمسجد الخاص باتباع المذهب الاباضى ، الذى اعجب به العياشى فى رحلته ووصفه بقوله : « متقن الصنعة مجصص الارض والحيطان وعلى بابه وجوانبه أماكن معدة للوضوء ولقضاء الحاجة ، ومكان معين لتسخين الماء » . (6)

أما مدينة توغرت فقد ظلت هى الاخرى طيلة العهد العثماني عبارة عن قصر مقام بالقرب من التقاء مياه وادى مية وايغار غار الجوفية ، يحيط به سور وحوله حفير ويؤدى اليه بابان أحدهما يعرف بباب الخضراء والآخر بباب السلام (7) ، وتتخلله أزقة عرفت فى الفترة المتأخرة بأسماء محلية مثل : البلوش فى الشمال وهو حى أولاد نائل ، ومستاوة فى الشمال الشرقى وهو حى تمتزج فيه جماعة المجارية بأفراد فرقة الرواغة التى يتجمع معظمها فى الناحية الغربية خارج المدينة ، وبهذا الحى توجد أماكن للعبادة مثل المسجد العتيق التى أصبح يضم فى القرن الثامن عشر ضريح الشيخ سيدى الهاشمى وكذلك المسجد الكبير الذى تم بناؤه عام 1780 من طرف أحد سلاطين بنى جلاب ، وهو ابراهيم بن محمد تكفيرا عن جريمته فى حق أخيه على الكبير ، وإلى الغرب من هذين المسجدين توجد مقابر أسرة بنى جلاب سلاطين توغرت تتوجها قبة ذات نقوش بسيطة .

أما خارج نطاق مدينتي ورقلة وتوغرت فكانت القبائل البدوية تجوب المنطقة بحثا عن الكلأ والمراعي ، وتتردد بين الحين والآخر على هاذين المركزين العمرانيين لتصريف منتوجاتها والتزود بالاقوات وتقديم يد المساعدة والعون للحكام عند الحاجة . وهذا ما جعل هذه القبائل البدوية تلعب دورا رئيسيا فى حياة المنطقة فى العهد العثماني.

---

(5) Trumelet C. - Les Français dans le désert, 4e édit, Paris, Challamet ainé, 1887, pp. 24-29

(6) العياشى نفس المصدر ، ص 46 .

(7) Daumas, le lieutenant col. - Sahara Algérien, Paris, Fortin-Masson, 1845, pp. 73 et 126.

وكانت أغلب هذه القبائل تتألف من مجموعات عشائرية متمايزة تختص كل واحدة منها بمجال لا تتجاوزه فى أغلب الاحيان ، ومن أشهر هذه العشائر البدوية نذكر :

1 ــ قبيلة سعيد : التى ظهرت بالمنطقة فى القرن الثالث عشر الميلادى على الارجح وكانت تتفرع فى مطلع العهد العثمانى الى فرعين رئيسيين ، الفرع الاول يضم أولاد مولود الذين توطنوا نواحى توغرت ، وسعيد عطبة الذين استقروا بنواحى نقوسة ، امــا الفرع الثانى لهذه القبيلة فهو يتكون مــن عشيرتين هما : سعيد عمر المستقرين بتماسين والحجيرة والمخادمة المنتشرين بين ورقلة والرويسات (8) ·

وقد امتازت كل من عشيرتى : المخادمة وسعيد عطبة بوفرة فرسانها وشدة بأسها وتنقلها الدائم طلبا للمراعى ، فالمخادمة ظلوا يترددون على مراعى وادى مية والحمـــاد الواقعة الى الجنوب الشرقى من ورقلة ، بينما سعيد عطبة أصبح مجال تنقلهم يصل الى الهضاب العليا ؛ فهم بعد قضاء فصل الشتاء بجهات ورقلة ونقوسة يتوجهون مـــع مستهل الربيع الى وادى مــزاب ، ليعبروا بعــد ذلك الى الهضاب العليا عبر مضيــق تاجرونة شرق جبل عمور ، وبعد أن يقيموا كامل فصــل الصيف بنواحى السرسو يعودون مرة أخرى فى فصل الخريف الى ناحية ورقلة ، ليعيدوا الكرة من جديد كــل سنة ، وكأنهم بهذه الرحلة السنوية بين ورقلة والسرسو يعيدون بدون شعور منهــم وبطريقة معاكسة تلك الرحلة التاريخية التى حملت جماعات الاباضيين الرستميين ، من تاهرت (السرسو) الى سدراتة (ورقلة) فى القرن العاشر الميلادى ·

2 ــ الشعانبة : وفدوا الى المنطقة وتوطنوا جهات ورقلة منذ القرن السادس عشر الميلادى ، وهــم يتكونون من عشائر عــديدة ، أهمها : شعانبة أولاد سعيد المعروفين بالشعانبة القبالة أو مواضى القليعة نظرا لتوطنهم جهات القليعة ·

وشعانبة هب الريح جنوب ورقلة ، وشعانبة متليلى المعروفين بالبرازقة فى النواحى الغربية من ورقلة ، ولعل أهــم هذه الفروع فى حياة منطقة ورقلة هو فـــرع شعانبة

---

(8) Romey A. - Histoire toponymée et traduction orale d'une oasis arabe-berbère - M'Goussa. C.E.M. Ecole pratique des Hautes Etudes (Sorbonne), 1973-74 - p. 95.

بوروبة أو شعانبة الشرق الذين يسكنون نواحي البور ويجوبون العرق الشرقي الكبير ويترددون على مدينة ورقلة في بعض الاحيان ٠

3 ـ بنو ثور : وفدوا على المنطقة من جهات الجريد في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وانتشروا في النواحي الجنوبية لورقلة بالقرب من واحة الرويسات وعين حمار « الشط » ، وكانت لهم روابط متينة مع عشيرة المخادمة ، وأحلاف وطيدة مع أولاد سيدي الشيخ منذ القرن السابع عشر ، ساعدتهم على ما يظهر في توطيد نفوذهم بالمنطقة والمحافظة على مراعيهم والوقوف في وجه سعيد عطبة ٠

4 ـ الربايع وأولاد نائل ، رغم كون مواطنهم الاصلية تقع بالاطلس الصحراوي والهضاب العليا جنوب التطري ، فان لهم علاقة خاصة بمنطقة ورقلة التي يقصدونها مع حلول فصل الشتاء لتصريف منتوجاتهم والبحث عن المراعي لمواشيهم (9) ٠

كل هذه القبائل البدوية كان لها أثر ملموس على الاساليب التي مارس بها حكام الجزائر العثمانية بسط نفوذهم على المنطقة ، بحيث أصبح الوجود العثماني يتمثل في عدة أحداث ومظاهر ، يمكن التعرض لها في هذه النقاط :

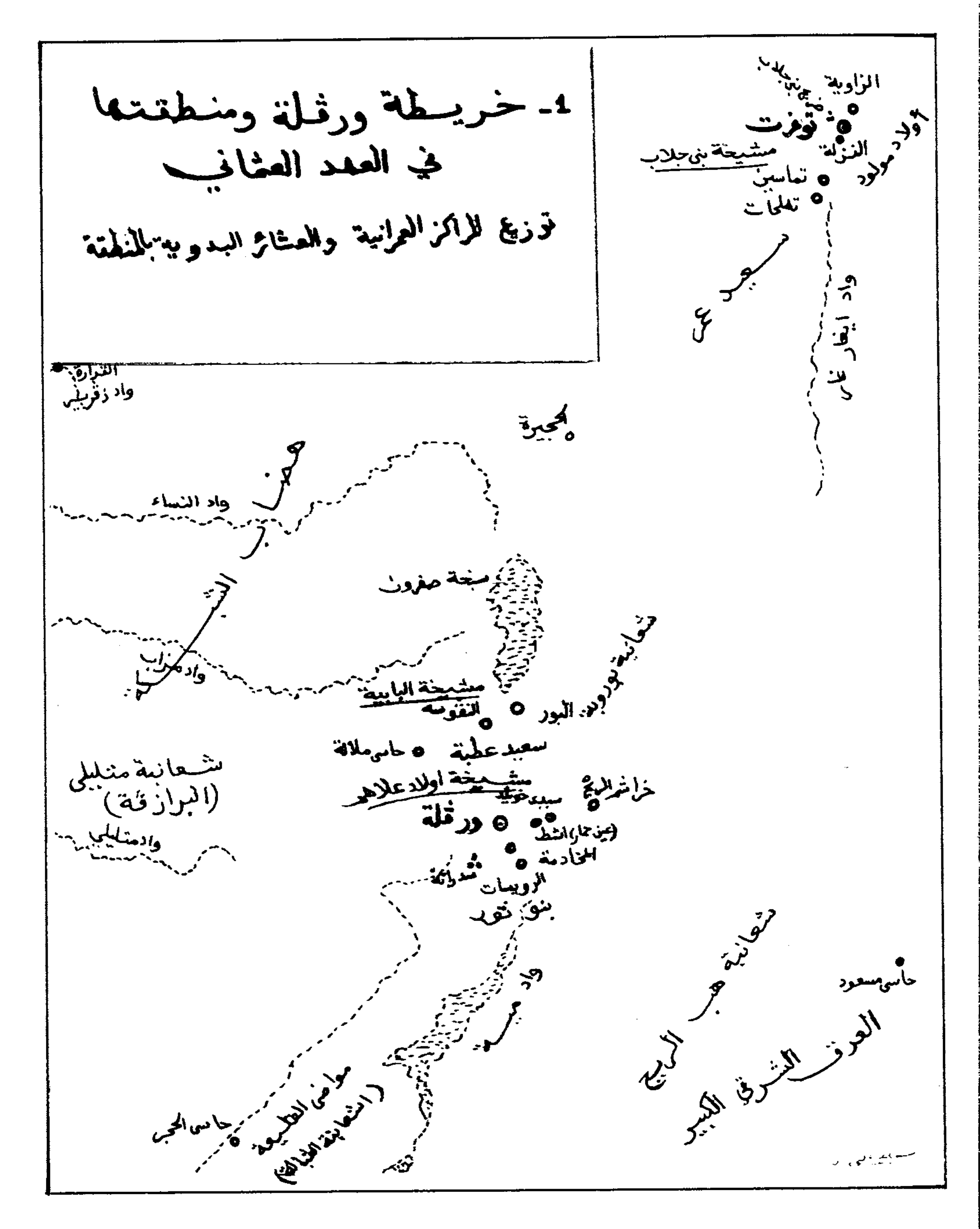
1 ـ الحملات العسكرية : التي أعتاد حكام الجزائر العثمانية تجريدها على المنطقة على فترات متوالية ، اثر فتوحات حسن آغا سنة 1541 التي مكنتهم من بسط نفوذهم على مناطق الحضنة والزاب وابقاء حامية تركية (نوبة) بمدينة بسكرة ٠

أ ـ وكانت أولى هذه الحملات التي تعرضت لها منطقة ورقلة، هي الحملة التي شنها صالح رايس باي لارباي الجزائر في شهر أكتوبر من سنة 1552 ، على رأس جيش مجهز بمدفعين لفك الحصار ومكون من 3000 من المشاة و 1000 من الفرسان ٠

وقد تمكن صالح رايس أثناء هذه الحملة من محاصرة توغرت وارغامها على دفع غرامة لباشا الجزائر ، بعد ان اضطرت الى الاستسلام اثر حصار دام ثلاثة أيام ٠

بعدها توجه لورقلة التي رفض حاكمها تقديم ضريبة لباشا الجزائر ، فوصلها بعد أربعة أيام من السير ، ولم يجد بها سوى أربعين تاجرا من أغنياء السودان حطوا

(9) راجع خريطة العشائر البدوية بالمنطقة الملحقة بالمقال



1- خريطة ورقلة ومنطقتها
في العهد العثماني
توزيع المراكز العمرانية والعشائر البدوية بالمنطقة
الزاوية
تومرت
أولاد مولود
النزلة
مشيخة بني جلاب
تماسين
تملحات
واد النساء
الحجيرة
سبخة صفيون
واد مزاب
مشيخة البابية
البور
النقوسة
سعيد عطبة
حاسي ملالة
شعانبة متليلي
(البرازقة)
وادمتليلي
مشيخة أولاد علاهم
ورقلة
الخادمة
الرويسات
بنو ثور
حاسي مسعود
العرق الشرقي الكبير
حاسي الحجر

رحالهم بالمدينة ، فأخذ منهم 200 ألف ريال ومكث بالمدينة عشرة أيام ينتظر عودة حاكمها الذى فضل الانسحاب الى نواحى القليعة مع أربعة آلاف فارس ، وكثير من الاهالى (10) ·

ثم قفل صالح رايس راجعا الى مدينة الجزائر مارا بتوغرت ، بعد أن وجه رسالة الى حاكم ورقلة يأمره بالعودة الى مدينته ، ويعده بالمصالحة شريطة تقديم ضريبة سنوية لباشا الجزائر لا تقل عن ثلاثين عبدا من رقيق السودان ·

ومع أخذنا بهذه المعلومات التى أوردها هايدو ، فاننا نستبعد أن يكون صالح راس قد عمد الى ابادة سكان مدينة توغرت عن بكرة أبيهم كما لا نسلم بان مقاومة ورقلة وموقف حاكمها هى التى جعلت صالح رايس يعجل بالعودة الى الشمال ، بل نرى أن هذا الانسحاب السريع دون تنظيم شؤون المنطقة وابقاء حامية بها كان ناتجا عن الاحداث التى كانت تعيشها الجزائر والمتمثلة فى هجمات الاسبان وثورات بنى عباس وفليسة بالخصوص ·

ب ـ اما الحملة الثانية : فقام بها يوسف باشا ضد مدينتى ورقلة وتوغرت عام 1649 ، ورغم الغموض الذى أحاط بهذه الحملة ، فان النتائج التى ترتبت عنها كانت أبقى واثبت مع الزمن من سابقتها ، بدليل أن الضريبة التى اعتاد سكان المنطقة المساهمة بها فى خزينة الجزائر والتى ربطت المنطقة بالحكم المركزى بالجزائر ترجع أسبابها الى هذه الحملة بالذات ·

وتتلخص هذه الضريبة ـ التى جاء ذكرها فى دفتر التشريفات مسجلة بتاريخ 1205 هـ ـ 1790 م فى مساهمة المنطقة بخمسة وأربعين فردا من رقيق السودان سنويا ، يتوزعون كالتالى : يخص ورقلة 25 عبدا وتوغرت 16 عبدا وتماسن 4 عبيد (11)·

جـ ـ الحملة الثالثة : قام بها صالح باى ضد توغرت بتحريض من احد أفراد أسرة بنى جلاب المطالبين بحكم منطقة توغرت وهو الشيخ أحمد الناقم على ابن عمه الشيخ

(10) Haedo (Fray diego de) Histoire des Rrois d'Alger, 1612, traduction Grammont. *Revue Africaine* - 1880 - pp. 271-272.
(11) Tachriffat, Recueil de notices historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger. Publiée par Devoulx - Alger 1853 - Cité par Féraud : Sahara Constantinois, 1885 - p. 33.

عمر حاكم توغرت آنذاك (12) ولم تؤد هذه الحملة على ما يظهر الى نتائج حاسمة ، فبعد حصار طويل دام ما بين 25 يوما و 6 شهور حسب اختلاف الروايات ، اضطر أثناءه صالح باى الى قطع أشجار النخيل القريبة من توغرت انتقاما من الاهالى الذين التفوا حول الشيخ عمر حاكم المدينة للوقوف فى وجه الحملة ومقاومتها فى وقت كادت أن تنفد فيه مؤن وأقوات جيش المهاجم (13) ، ولهذا اضطر الباى فى الاخير الى شن هجوم كاسح مستعينا بقطع المدفعية التى أحدثت ثغرات فى سور المدينة ، وبذلك امكن للباى أن يأخذ من الحاكم الجديد الذى استعان به وهو الشيخ أحمد رسما للتوليه يقدر بمليون فرنك ، زيادة ان تسلمه 1000 بوجو عن كل مرحلة قطعها من قسنطينة الى توغرت (14) .

ومما يلاحظ على هذه الحملة أنها كانت تختلف عن سابقتيها ، فهى ناتجة عن دوافع شخصية وأغراض انتقامية أكثر من كونها توسعا تفرضه مصلحة الايالة الجزائرية ، كما أنها شنت من بايليك الشرق مباشرة فى وقت كانت فيه نواحى الاغواط وعين ماضى تتعرض لحملة انتقامية على يد محمد الكبير باى الغرب عام 1785 م . فضلا عن أنها اقتصرت على مدينة توغرت دون التوجه نحو ورقلة عكس الحملتين السابقتين .

د ـ الحملة الرابعة : وهى تشبه فى أحداثها وظروفها الحملة ، السابقة ، اذ أنها اكتفت بمدينة توغرت ، وحدثت فى وقت كان فيه الباى حسان آخر بايات وهران يقوم بحملة تأديبية بنواحى عين ماضى والاغواط انتقاما من نشاط الطريقة التيجانية المعادى لسلطة البايليك ، كما أنها شنت على المنطقة من مركز بايليك الشرق عن طريق بسكرة ، نتيجة تحريض فرحات بن السعيد الراغب فى القضاء على سلطة بنى جلاب ، والحاق توغرت ونواحيها بمشيخته .

وقد عمد الباى أحمد المملوك اثناء هذه الحملة الرابعة التى وقعت سنة 1818 الى تخريب منطقة توغرت بقطع نخيلها وطمس مياهها ، مما جعل محمد بن جلاب يسارع الى

(12) Daumas, op. cit., pp. 113-134.
(13) Archives du ministère de la guerre à Vincennes (A.M.G.). H. 227 - Notice sur la province de Constantine, p. 5.
(14) Daumas, op. cit., p. 133.

ارضائه وتقديم ضريبة سنوية له تقدر بـ 100 ألف ريال بسيطة ، وهو ضعف المبلغ الذى كان فرحات بن سعيد يعد الباى بتقديمه له مقابل حكم المنطقة ، وذلك بعد أن تمكن الباى من قطع حوالى 200 نخلة فى مدة وجيزة (15) ٠

ولم ينقطع حكام توغرت عن تقديم هذه الضريبة حتى سقوط قسنطينة عاصمة بايليك الشرق فى يد الفرنسيين عام 1837 ٠ وهذا ما ساعد الشيخ سى حمزة قائد أولاد سيدى الشيخ على التدخل فى شؤون المنطقة عام 1847 واحتلال ورقلة عام 1853 باسم السلطات الفرنسية ٠

2 ـ أما المظهر الآخر للنفوذ العثمانى بورقلة ومنطقتها فنلمسه فى تلك العلاقة التى ربطت أهالى المنطقة بحكام الايالة الجزائرية عن طريق الهجرة المؤقتة للمناطق التلية.

وتتلخص دوافع هذا الانتقال للتل والاحتكاك بسلطة البايليك فى طبيعة المناخ ونوعية الانتاج بالمنطقة الجنوبية والحاجة الملحة للحصول على المواد الاولية الضرورية للعيش (16) ، فالقبائل المقيمة بنواحى ورقلة وتوغرت كانت تتردد على الاسواق الواقعة بالتل لتصريف منتوجاتها المحلية من أصواف وجلود وتمور ، والحصول على ما تحتاجه من حبوب ومواد استهلاكية لا تتوفر فى الصحراء ، وايجاد المراعى الخصبة لمواشيها فى أواخر الربيع وطيلة فصل الصيف ٠

وتأتى فى طليعة هذه القبائل البدوية التى كانت لها اتصالات منتظمة مع رجال البايليك : الشعانبة والارباع وأولاد نائل (17) ، وسعيد عطبة ، وقد أدى هذا الاتصال بقبيلة سعيد عطبة الى قبول الانخراط ضمن قبائل المخزن ، وذلك لتضمن المراعى لمواشيها على حساب عشائر المخادمة وبنى ثور وبعض مجموعات الشعانبة (18) ٠

وقد زاد فى تدعيم هذا الاتصال البشرى تشجيع الحكام الاتراك لهذه القبائل على الهجرة الفصلية للتل ، بعد أن وجد هؤلاء الحكام فى هذه العلاقة المؤقتة وسيلة فعالة

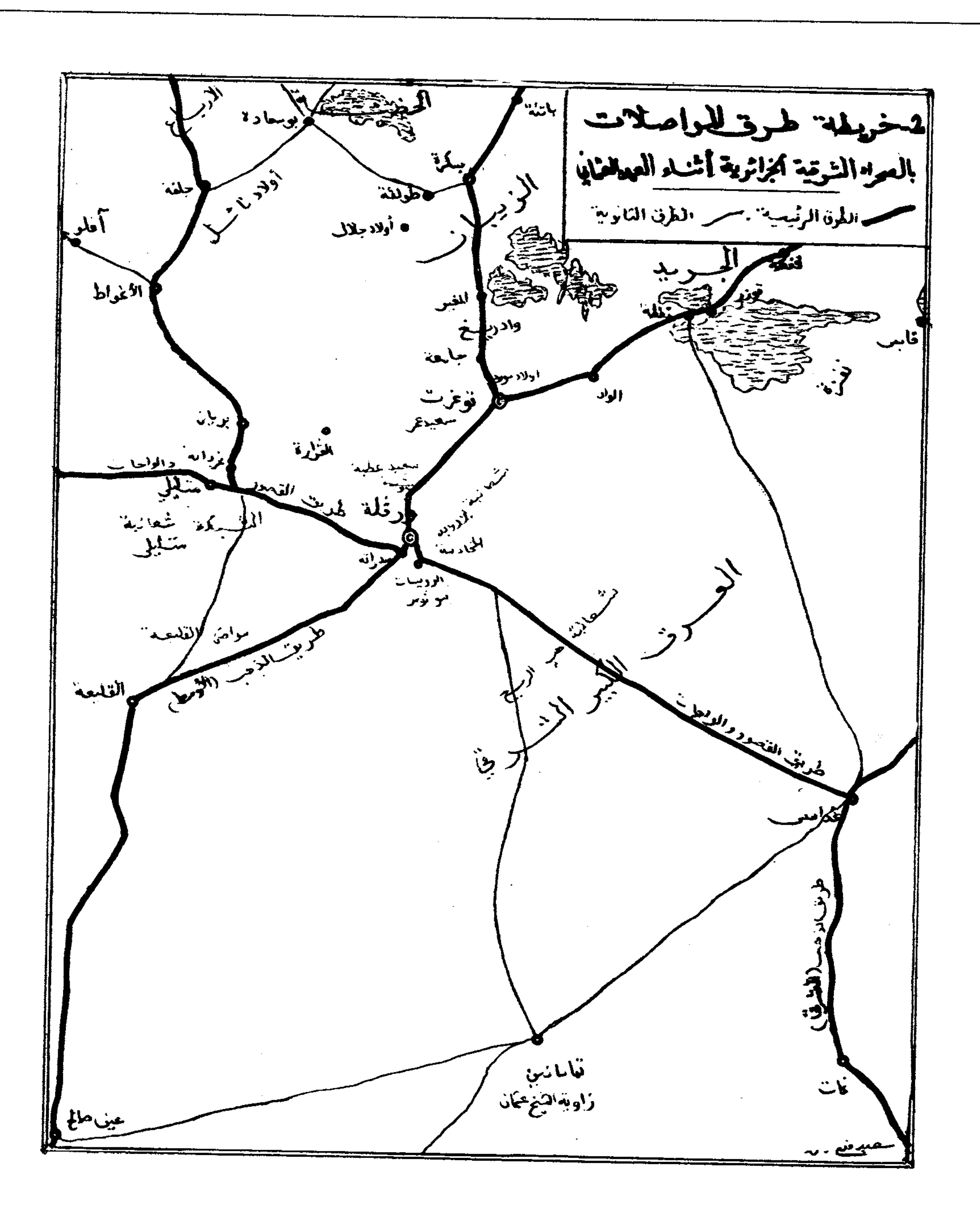
(15) Féraud (L. Ch.) - Le Sahara de Constantine - Notices et souvenirs, Alger, A. Jourdan, 1887, pp. 80-81.
(16) Carette (E.) du commerce de l'Algérie avec l'Afrique Centrale et les Etats barbaresques - Paris, Guyot 1844, pp. 13-14.
(17) Emerit M. - Les liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au XVII^e et début du XIX^e siècles, travaux de l'I.R.S., T. x, N° 1, 1954, p. 37.
(18) Romey, op. cit., p. 102.

لتوطيد سلطتهم وتأكيد نفوذهم على سكان الجنوب (19) ، ومناسبة سانحة لاخذ ضريبة خاصة من تلك القبائل مقابل السماح لهـا بالتردد عـلى الاسواق والاقامة بالمراعى .
وكانت هذه الضريبة الخاصة تعرف عـادة بمناطق التطرى القريبة من المدينة بـرسم العسة أو المعونة وهى تختلف باختلاف الجهات والقبائل والاسواق ، بحيث تخفف على القبائل الموالية ، ويزاد فى مقدارها بالنسبة للعشائر المعادية للبايليك ، مثل أولاد نائل الشراقة الذين كانوا يدفعون رسما مرتفعا من ضريبة العسة يقدر بـ 3150 خروفا و 270 جرة زبـدة غنـــم و 90 جملا بالاضاعة الى مبلغ من المـال حدد بـ 2700 ريـال بسيطة (20) .

وقد نتج عن فرض هذا الرسوم الخاصة على القبائل المهاجرة للتل بعض الاعمـال العدائية ، التى زادت فى حدتها الحملات التى اعتاد بايات قسنطينة ووهران والمـدية شنها على مناطق الهضاب العليا والاطلس الصحراوى فى فصلى الربيع والخريف .

وعلى كل حال فان هذه الحوادث المؤقتة كانت محدودة من حيث الزمان والمكان الذى وقعت فيه ، بحيث لم تكن تمس المصالح الحيوية لحكام الايالة الجزائرية ، فهى لم تكن تشكل أى خطر على الوجود العثمانى داخل البلاد ، كما أنها لم تتسبب على ما يظهـر فى عرقلة هجرة البدو نحو التل ، وهذا راجع لكون أغلبها كان يدخل ضمن الصراع المستميت والعداء المستحكم بين القبائل البدوية نفسها ، مثل العداوة التقليدية بـين سعيد عطبة من جهة ومن الشعانبة وبنى ثور والمخادمة من جهة أخرى ، على أن الشىء الذى يمكن ان نستنتجه من هذه المناوشات هو أنها كانت تبرز لنا مع مطلع القـــرن التاسع عشر مـوقفا عدائيا بـدأت تتسم به عـلاقة هؤلاء البدو بالسلطات العثمانية الحـاكمـة (21) .

(19) Baudicour (Louis) - La guerre et le gouvernement de l'Algérie - Paris, Sagnier et Bray, 1853, p. 290.
(20) Urbain I. - Notice sur l'ancienne province du Titteri, in tableau de la situation en Algérie, années 1843-44, Paris, p. 403.
(21) Mantran R. - Algérie turque et Sahara, in Le Sahara - Rapports et contacts humains, 7e Colloque d'Histoire, Faculté des Lettres d'Aix-en-Provence, P.A.F.L. 1967, p. 67.



2 خريطة طرق المواصلات
بالصحراء الشرقية الجزائرية أثناء العهد العثماني
الطرق الرئيسية
الطرق الثانوية
بوسعادة
باتنة
بسكرة
طولقة
أولاد جلال
الزيبان
أولاد نايل
جلفة
آفلو
الأغواط
المغير
وادي ريغ
جامعة
تقرت
الوادي
الجريد
نفطة
توزر
قابس
ورقلة
متليلي
الشعانبة
الرويسات
طريق الذهب الأوسط
القليعة
طريق القصور والواحات
العرق الشرقي الكبير
غدامس
غات
تماسنين
زاوية الشيخ عثمان
عين صالح

3 ـ أما المظهر الثالث للنفوذ العثمانى بالمنطقة ، فكان يقوم على التبادل التجارى ، ويعتمد على حركة القوافل ونشاط التجـار ، فهـو بتعبير آخر ناتج عن كـون ورقلة ومنطقتها ظلت طيلة الفترة العثمانية كما كانت فى الفترة الاسلامية السابقة ملتقـى التجار وعقدة المواصلات ومحطة للقوافل التى كانت تعبر الصحراء وتربط أقاليم المغرب ببلاد العرب ، وجهات التل باقطار السودان (22) ٠

فالطريق الرئيسى الذى أعطى لورقلة أهمية خاصة ، والذى كان يعرف بطـريق الواحات والقصور ، كان ينطلق من تافلالت نحو غدامس ، ويتفرع من ورقلة وتوغرت الى كل من غات وتماسين والقليعة والاغواط والزيبان ٠

وهذا الطريق الرئيسى الذى سلكه بن ملـيح السراج عام 1630م (23) ، ووصفـه العياشى فى رحلته عندما كان ذاهبا للحج سنة 1663 ، كان يمتاز باستتباب الامن ، وكثرة الارباح التى يحصل عليها التجار بواسطته (24) ، بحيث يصبح التاجر موسرا بعد أن يشارك فى رحلة أو رحلتين عبر هذا الطريق (25) ٠ فضلا عن كون هذا الطـريق اقصر مسافة من طريق التـــل الواصل بين فـــاس وتلمسان والجـزائر وقسنطينـة وتونس (26) ، فهو لم يتجاوز الالف كيلومتر بين منطقة متليلى ـ مـزاب وبين مدينة تونس ، مرورا على مدينة ورقلة (27) ٠

وهناك طريق آخر لا يقل أهمية عن الطريق السابق وهو الطريق المعروف لـدى الرحالة والجغرافيين العرب بطريق الذهب ، الذى كان يمر بورقلة وتوغرت ويربط موانىء بلاد المغرب العربى بالمدن الرئيسية لممالك السودان كأغاديس وكانو وتمبكتو ٠

---

(22) Mauroy M. - Du Commerce des Peuples de l'Afrique Septentrionale, Paris 1845, p. 63.

(23) ابن مليح السراج ، أنس السارى والسارب من أقطار المغارب الى منهى الآمال والمآرب ٠

(24) Prax M. - Commerce de l'Algérie avec La Mecque et le Soudan, Paris, Just-Rouvier 1849, pp. 4 et 259.

(25) Emerit, op. cit., p. 39.

(26) Au capitaine B. H. - Etude sur la caravane de La Mecque et le Soudan de l'intérieur de d'Afrique, Paris, J. Claye, p. 4.

(27) Carette, op. cit., p. 22

ملاحظة : راجع خريطة طرق المواصلات الملحقة بالمقال ،

فبفضل هذه الطرق أصبحت ورقلة ومنطقتها محطة ومستودعا مؤقتا وسوقا استهلاكية لمنتوجات الصحراء والتل والسودان ٠

فالصحراء كانت تزودها بالتمور والاصواف والجلود والملح النطرون والحنة والمواشي والجمال ومختلف الانسجة كالبرانيس والحياك والاغطية ، فضلا عن ملح البرود وأنواع السكاكين والسيوف والحلي الفضية ٠

والتل كان يمدها بالحبوب والزيوت والاسلحة والعطور مع بعض المنتوجات المستوردة عن طريق البحر كالاقمشة المتنوعة والقهوة والسكر والشاي والورق ، بينما السودان كان يصدر عن طريقها : البخور الاسود والعاج والفلفل والفول السوداني ، مع كميات معتبرة من التبر واعداد وفيرة من عبيد السودان (28) ٠

وقد كان لهؤلاء العبيد الذين كانت تقوم عليهم تجارة الرقيق والنخاسة أهمية خاصة في حياة ورقلة الاقتصادية طيلة العهد العثماني ، بعد أن تضاءلت كميات التبر المستورد من السودان ، وبعد أن ارتفعت أسعار الدقيق الاسود بصفة خاصة نتيجة تزايد الطلب بالمناطق الشمالية لاقتناء العبيد للخدمة في المنازل وبعد أن أصبحت القرصنة لا توفر العدد الكافي من الدقيق الابيض ٠ كما يعود ارتفاع اسعار الدقيق أيضا الى ازدياد تكاليف النقل بالصحراء منذ أواخر القرن الثامن عشر ؛ ففي هذا الصدد نجد أن مدينة توغرت مثلا كانت تستقبل كل سنة حوالي 500 فرد من الدقيق ، يقدر ثمن الواحد منهم في نفس المكان من 150 الى 250 ف ، لكن بعدما ينقلون الى التل يصل ثمن الفرد الواحد منهم الى 400 أو 500 ف (29) ، وقد يرتفع هذا الثمن الى 5000 بوجو (حوالي 3000 ف) عند توفر المواصفات والشروط المطلوبة (30) ٠

على أن الشيء الذي يلفت انتباهنا في هذا النشاط التجاري المتمثل في جلب العبيد واقتناء السلع والبضائع والمبادلة بها ، هو كونه كان احدى الوسائل التي مكنت حكام

(28) — Mauroy - op. cit., p. 22.
— Carette - op. cit., pp. 23-26.
— M. le Comte d'Escayrac de Lautune - Le désert et le Soudan, Paris E. Thunot 1853, pp. 540-561.

(29) Emerit, op. cit., p. 39.

(30) Boyer P. - La vie quotidienne d'Alger à la veille de l'intervention française. Paris, Hachette 1963, p. 166.

الايالة الجزائرية من ممارسة نفوذهم وتأكيد سلطتهم واسماع كلمتهم لدى سكان منطقة ورقلة ، فى وقت كان فيه اهالى المناطق الجنوبية الشرقية من البلاد الجزائرية يحرصون كل الحرص على ابقاء علاقات تجارية مع مدن الشمال ، لانهم كانوا يرون أن رخاء منطقهم مرهونا بانتظام القوافل التجارية وزيادة حمولتها .

وقد لاحظ أهمية المبادلات التجارية فى حياة المنطقة ليون الافريقى ، عندما ذكر بأن قبيلة سعيد (عطبة) الغنية بمواشيها ، كانت تمارس التجارة مع ورقلة وتوفر اللحوم لكل الجهات المحيطة بها فى فصل الصيف (31) ، كما أن العياشى ذكر بأن وصوله لورقلة صادف « دخول قافلة من اعراب الارباح قدموا بسمن كثير وغنم وابل وزرع ، اشترى الناس منهم ما احتاجوا اليه بارخص ثمن ، وقدمت قافلة أخرى بعدها بيوم واحد تحمل مثل ذلك وأكثر فتنعم الناس فى اللحم والتمر والسمن » . (32)

ومما يلاحظ على هذا النشاط التجارى الذى يعكس لنا بصفة ايجابية النفوذ العثمانى بنواحى الجنوب ، انه تأثر سلبيا بالانكماش الاقتصادى وحالة الفوضى والاضطرابات التى بدأ الجنوب الجزائرى يعيشها منذ منتصف القرن السابع عشر بالخصوص . وقد كانت هذه الحالة من الفوضى والاضمحلال الاقتصادى والانعزال السياسى بالمنطقة ناتجة عن عدة عوامل ، منها :

1 ــ تحول طرق التجارة البعيدة المدى عن منطقة ورقلة ، وبذلك فقدت طريق الذهب الرابطة بين السودان وأقطار المغرب العربى أهميته ، مما ترك آثارا سلبية على ورقلة ومنطقتها ، بعد أن كان بمثابة الدعامة التى يقوم عليها ازدهار المنطقة كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وكما أكدته كتابات بعض الرحالة والجغرافيين العرب مثل البكرى (القرن الحادى عشر) والادريسى (القرن الثانى عشر) وابن حوقل (القرن الثالث عشر) الذين أشادوا فى كتاباتهم بأهمية هذا الطريق .

ويعود هذا التحول لطريق الذهب الى أسباب عدة ، منها تمكن البرتغاليين من

(31) Léon l'Africain, op. cit., v, II, p.439.

(32) العياشى ، نفس المصدر ، ص 46 .

تغيير تجارة الذهب عن طريقها الطبيعي نحو سواحل المتوسط ، الى مرافىء الاطلس ، منذ السنوات الاولى من القرن السادس عشر (33) ، على أن هذا التحول فى الطريق التجارية تم بصفة تدريجية وبطريقة مطردة ، بحيث لم تظهر آثاره المدمرة ونتائجه السلبية على مراكز الصحراء المهمة مثل ورقلة وتوغرت وغدامس والفقيق وتافلالت ، الا بعد نهاية القرن السابع عشر ، الذى أصبح فيه التعامل التجارى لا يتجاوز نطاقه العشائر البدوية المحلية ، فى وقت اختفت فيه منتوجات السودان من الاسواق وأصبحت لا تدخل ضمن قائمة السلع المحلية الا عرضا ٠ (34)

ويضاف الى هذا السبب الرئيسى ، أسباب أخرى ثانوية تتمثل فى الفوضى التى كانت تعيشها أقاليم السودان منذ نهاية القرن السادس عشر اثر انهيار مملكة الصنغاى عام 1591 على يد السعديين ، وتفكك امبراطورية الهوسا ، فى وقت اشتد فيه التنافس بين البدو والطوارق (35) واستحكم العداء بين حكام ورقلة وبعض العشائر البدوية المجاورة ٠

وهذا ما ساعد على تحويل البقية الباقية من تجارة السودان عن ورقلة وتوغرت الى اقليم فزان وحوض وادى النيل ، حتى انه فى نهاية القرن الثامن عشر لم تعد تعبر منطقة ورقلة سوى مجموعة من الجمال متوجهة نحو قسنطينة ، هى فى حقيقة أمرها جزء من القافلة التى تتفرع فى غدامس الى كل من مدينتى تونس وطرابلس الغرب (36).

والجدير بالذكر هنا أن هذه الحالة من الفوضى والاضطراب رغم كونها عاملا مؤقتا ومساعدا على انهيار اقتصاد المنطقة ، الا أن بعض الكتاب الغربيين بالغوا فى تقديرها والتأكيد عليها حتى اعتبرها البعض منهم السبب الوحيد لهذه الحالة التى أصبحت عليها المناطق الصحراوية والنتيجة الطبيعية للحكم التركى بالجزائر هذا الحكم المنافى

(33) Braudel F. - Monnaies et civilisations de l'or du Soudan à l'argent de l'Amérique, un drame méditerranéen, Annales, Economies, sociétés, civilisations, 1er année N° 1, 1946, pp. 9 et 22.
(34) Emerit, op. cit., p. 39.
(35) Carette, op. cit., p.
(36) Archives nationales de Paris F. 80, B 1670, lettre du 6 Février 1892 de Prétot au général Pelet.

لكل تقدم واستقرار وحضارة حسب زعمهم (37) متناسين بذلك جوهر المشكلة الكامن فى الاغتصاب غير الشرعى لمسالك التجارة العالمية الذى نتج عن الاكتشافات الجغرافية وما صاحبها من توسع استعمارى أوربى ·

2 ـ الصراع العشائرى بين المجموعات القبلية بالمنطقة ، الذى أدى الى تكوين أحلاف ظلت طيلة الفترة العثمانية تتصارع من أجل الاستحواذ على نقاط المياه وحيازة المزيد من المراعى ·

وقد برزت هذه الاحلاف فى شكل صفين متنافسين ، احدهما يعرف بالصف الغربى ويتكون من الشعانبة والمخادمة وبنى ثور ، يعاضدهم بنو سيسين بورقلة ، أما الصف الآخر فكان يعرف بالصف الشرقى ويتألف من سعيد عطبة وأحلافهم من بنى واجين المستقرين بورقلة (38) ، ولم يبق خارج هاذين الصفين سوى بنو ابراهيم القاطنين بورقلة ، والذين كانوا فى حالة حياد الا اذا اضطرتهم الظروف فانهم ينظمون الى احد الصفين حسبما تتطلبه مصالحهم وميولهم ·

أما الغلبة فى هذا الصراع المحلى بين الصفين ، فكانت فى أغلب الاحيان لسعيد عطبة ، وذلك لتمكنها من محالفة قبيلتى الارباع والحرازلة بجنوب التطرى · ولمناصرتها حكام ورقلة ضد تحرشات الصف الآخر المعادى ، وهذا مامكن شيوخ سعيد عطبة المتمركزين بنقوسة بأن يصبحوا سادة منطقة ورقلة بأكملها ، وذوى الكلمة المسموعة لدى حكامها منذ القرن الثامن عشر ·

وقد عرف حكام الايالة الجزائرية استغلال هذا الصراع الناتج عن روح الصف فى فرض نفوذهم على الاهالى وربط صلاتهم مع الحكام المحليين ، لا سيما بعد أن أدرجوا قبيلة سعيد عطبة ضمن قبائل المخزن المتعاملة معهم باعطائها حق حيازة المراعى فى الهضاب على حساب السعانبة والمخادمية وبنى ثور · (39)

(37) Escarayrac de Lautune (D.), op. cit., p. 50.
(38) Blanchet P. - L'Oasis et le pays de Ouargla, in Annales de géographie 9/1900, p. 155.
(39) Romey, op. cit., p. 102.

3 ـ التنافس بين الحكام المحليين : الذى ظل قائما بالمنطقة بين أفراد الاسـر الحاكمة أو بين بعض العائلات القوية المتنافسة على توسيع نطاق سلطتها ، منـذ منتصف القرن السابع عشر ، بعد أن عرفت المنطقة نوعا من الاستقرار طيلة القرن السادس عشر وحتى بداية القرن السابع عشر تحت حكم أسر اشتهرت بالعـدل والصـلاح مثـل : بنى جـلاب بتوغرت الذين يتحدرون مـن سلالة الشيخ أحمـد ابن جلاب ، الذى ينتسب الى بنى مرين ، ومثل عائلة مولاى علاهـم بورقلـة التى تنتسب على الارجح الى احدى العائلات المعروفة بمدينة فاس والتى وفدت على المنطقة بطلب من أهل ورقلة عام 1602 م ، بعد أن تلاشى حكم أسرة ابن أبى غلبون بورقلة ، ومثل شيوخ أسرة البابية بنقوسة المنتسبين الى الشيخ الولى الفاسى الذى حل بالمنطقة عام 1021هـ/1613 م ٠

وقد أدى هذا التنافس الذى كان يشتد اواره بين أفراد الاسرة الواحدة فى بعض الاحيان الى جعل المنطقة تعيش عزلة سياسية وانكماشا اقتصاديا وتقهقرا عمرانيا ، وهذا ما ساعد على جعل الكلمة الاولى فى المناطق الصحراوية لشيوخ العشائر البدوية .

ففى هذا المجال نجد أن أسرة بنى جلاب التى كانت فى أول عهدها تحكم مناطـق شاسعة من وادى ريغ وايغار غار ، أصبح حكمها نتيجة هذا التنافس لا يتعدى مدينة توغرت وواحة تماسين القريبة منها ، فى عهد محمد بن محمد بن جلاب (22 ـ 1830) الذى اشتهر بأخلاقه الفاسدة وبقتله لاخوته ليأمل من منافستهم ٠

كما نجد أن عائلة علاهم بورقلة أدت بها تلك المنافسات الى حدوث مذابح وأعمال انتقامية تضررت منها تلك الجهات ، ولعل أحسن وصف لذلك نجده لدى العياشى الذى تعرض الى احدى هذه الحوادث الانتقامية بقوله : « وقد خلا كثير منها (اشارة الى مدينة ورقلة وسكانها) بسبب فتنة وقعت فيها قبل قدومنا بنحو من شهرين ، وذلـك ان طائفة منها هم بيضة البلد وعصبة اهلها اتهمهم الامير بالقيام عليه فاتفق مع رعيته على قتلهم كلهم وان لا يفلتوا أحدا منهم كبيرا أو صغيرا فامر بسد أبواب المدينة وتقـدم

الى من هو خارج البلد من الاعراب ان يرتصدوا خارج السور فمن أفلت من البلد قتلوه ، فقام عليهم بالسيف بغتة هو ومن معه قتل منهم مقتلة عظيمة، نحوا من المائتين، ولم يسلم منهم الا من تسور جدار السور ان لم يلقه الاعراب أو افتدى منهم ، وهى فعلة شنيعة عدت من هفوات ذلك الامير وأسقط ذلك منزلته عند كثير من الناس » (40).

ولم يقتصر هذا العداء على أفراد الاسر الحاكمة ، بل تعداها الى المراكز العمرانية بالمنطقة ، فأصبحت العداوة والنزاع مستحكمة بين توغرت وتماسين ، وبين ورقلة ونقوسة (41) .

ومما زاد فى حدة هذا التنافس فى المنطقة ، تشجيع حكام الايالة له وتحريضهم عليه ، وانتصارهم لحاكم دون آخر ، لانهم وجدوا فى الابقاء على هذه العداوة بين الحكام المحليين خير وسيلة لفرض نفوذهم واقرار سلطتهم على كامل مناطق الجنوب .

ففى هذا الصدد نجد أن الباى محمد بن أحمد القبائلى يناصر عائلة بن قانة بالزيبان فى نزاعها مع عائلة بنى جلاب ، بحكم المصاهرة (42) والمصالح المشتركة ، مما اضطر الشيخ ابراهيم بن جلاب الى الفرار والتخلى عن زعامة توغرت الى ابراهيم بن الحاج ابن قانة ، لكن هذه النتيجة لم ترض الباى محمد بن أحمد القبائلى ، ولهذا سعى جاهدا فى تدبير مؤامرة لقتل ابراهيم بن جلاب وذلك بتحريض أفراد أسرة بن جلاب ضد أخيهم محمد بن محمد بن جلاب للتخلص منه ، ونفس الموقف وقفه الباى أحمد المملوك فيما بعد عندما حاول الانتقام من محمد بن جلاب ومناصرة فرحات بن سعيد من عائلة بوعكاز الراغب فى حكم توغرت مقابل تقديم مبالغ مالية لخزينة البايليك كما سبقت الاشارة الى ذلك أثناء التعرض للحملة الرابعة على المنطقة .

(40) العياشى ، نفس المصدر ، ص 46 — 47 .

(41) Daumas, op. cit., pp 89 et 135.

(42) أحمد بن محمد القبائلى ، كان متزوجا من رقية بنت بن قانة شيخ العرب ، وقد رزق منها بابنه أحمد الذى أصبح فيما بعد آخر بايات قسنطينة : الحاج أحمد باى (1826 — 1837) .

4 ـ كثرة الضرائب وتزايد المطالب المالية التى اثقلت كاهل سكان المنطقة وجعلتهم يعيشون فى حالة فقر وعوز بعد أن كانوا فى أثناء القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر يشتهرون بيسر أحوالهم وسعة عيشهم وكثرة ثرواتهم.(43)

ومما زاد فى ثقل هذه المطالب الضرائيبية انها كانت تفرض عليهم من جهات متعددة ، كالحكام المحليين وسلطات البايليك وشيوخ العشائر البدوية ، فمدينة ورقلة كانت تضطر الى دفع ضريبة مرتفعة لقبيلة سعيد (44) ، كما كانت ملزمة بتقديم هدايا ثمينة لبايات قسنطينة عندما يكونون فى حالة تسمح لهم بتوجيه الحملات الانتقامية ضدها (45) ، هذا بالاضافة الى الغرامة السنوية التى كانت تساهم بها فى خزينة الايالة منذ حملة يوسف باشا عام 1649 م، والتى أصبحت منذ سنة 1787 تقدم فى شكل هدية مؤلفة من 25 عبدا ، ثم تحولت فيما بعد الى مقدار من المال يعرف بحق البشماق وهو يساوى 928 صايمة ، أى ما يعادل 165 ف (46) .

ونفس الاوضاع كانت تعيشها مدينة توغرت التى ألزمها أحمد المملوك باى قسنطينة عام 1820 م ، بدفع ضريبة مرتفعة قدرت بحوالى 500،000 ريال بوجو (47) ، مع أنها اعتادت قبل ذلك تقديم كمية من الحياك والاغطية الصوفية للباى ، يصل عددها الى 5000 أو 6000 حايك وغطاء ، أى ما يعادل 40 أو 50 ألف فرنك (48) ، هذا زيادة عن مساهمة عشيرة الارماك بـ 7000 ريال بوجو كل سنة من جملة 21850 ريال بوجو كانت تتعهد بها مناطق الصحراء الشرقية لخزينة البايليك ، ويتسلمها شيخ العرب ابن قانة باسم البايليك تحت تهديد رجال القوم وفرق الحامية التركية (النوبة) المعسكرة بمدينة بسكرة (49) .

---

(43) — Haedo, op. cit., p. 271.
— Léon l'Africain, op. cit., vol. II, p. 630.
ـ العياشى ، نفس المصدر ، ص 48 .
(44) Léon l'Africain, op. cit., vol. II, p. 439.
(45) A. M. G., H. 227, p. 5.
(46) Trumelet, op. cit., p. 31.
(47) Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie en 1840, p. 363.
(48) Daumas, op. cit., p. 134.

هذه بعض الاسباب والعوامل التى أثرت سلبيا على حياة ورقلة ومنطقتها اقتصاديا وأجتماعيا فى أواخر الفترة العثمانية ، والتى ستبقى ناقصة وغير قادرة على اعطائنا صورة متكاملة وواضحة عن واقع المنطقة الا اذا تعرضنا الى ذكر الخصائص والمميزات التى اتصفت بها المنطقة طيلة الفترة العثمانية والتى يمكن غرضها فى هذه النقاط :

1) ظلت ورقلة ومنطقتها فى أغلب فترات العهد العثمانى خاضعة لحكام الايالة الجزائرية بشكل مباشر عن طريق توجيه حملات عسكرية ، أو بشكل غير مباشر من خلال اظهار التبعية وابداء فروض الطاعة بذكر اسم السلطان العثمانى فى خطبة الجمعة ، كما أكد ذلك العياشى عندما أورد أن امام المسجد الجامع كان يدعو فى خطبته « للسلطان الاعظم والخاقان الافخم محمد بن ابراهيم بن مراد » (50) ، وذلك رغم احتفاظ المنطقة بنظامها الداخلى ونمط حياتها الخاصة .

ومرد ذلك أن حكام الايالة اكتفوا بهذا الوضع الخاص الذى لم يكلفهم كثيرا ، فلم يبادروا الى اقرار التنظيمات وسن القوانين وتنصيب الحكام وابقاء الحاميات بكل مناطق الجنوب باستثناء مدينة بسكرة التى ظلت كما هو معلوم ترابط بها حامية تركية مؤلفة من 64 رجلا «موزعين على أربع سفرات تضم على التوالى : 15 و 16 و 17 و 16 رجلا»(51)

وقد ترتب عن هذه السياسة الخاصة أن أصبح كل من الاطار الزمانى والمكانى للوجود العثمانى فى هذه المناطق غير قار ولا محدد ، وهذا عكس ما جرى به العمل فى الصحراء الليبية التى حرص العثمانيون كل الحرص على التوغل فيها حتى واحة فزان الواقعة فى أعماق الصحراء .

2) كان للنفوذ العثماني بمنطقة ورقلة جانبان أحدهما سلبى يقوم على استعمال القوة وشن الحملات وفرض الضرائب والتحكم فى المراعى ، والآخر ايجابى يعتمد على المبادلات التجارية والهجرة المؤقتة وذلك بفضل الاسواق ومراعى الهضاب والتل وطرق الصحراء ومراكزها .

(49) A. M. G., H. 227, p. 24.

(50) هو محمد الرابع بن ابراهيم بن مراد الرابع الذى حكم من 1648 الى 1687 م ، راجع العياشى ، نفس المصدر ، ص 46 .

(51) Tachriffat, op. cit., pp. 70-71.

وقد أكتسب الجانب الاخير ايجابية من كونه عاملا بناء ومساعدا على ازدهار المنطقة فى نطاق التبعية العثمانية ، بينما الجانب الاول وهو السلبى كان يتنافى مع المصالح المشتركة لكل من رجال البايليك وأهالى الجنوب ، وذلك لما آنجر عنه من روح عدائية وأعمال انتقامية ، زادت فى الروح العشائرية بين بدو الصحراء ، وأبعدت أهالى الجنوب عن كل تعاون مع سلطات البايليك ، وهذا ما يكون له أثر على معنويات النضال المسلح فى الجنوب ضد الاحتلال الفرنسى ، لا سيما أثناء مقاومة أحمد باى بمنطقة الزيبان ٠

3) ارتبط ازدهار منطقة ورقلة طيلة الفترات التاريخية التى عاشتها وبالخصوص أثناء الوجود العثمانى بالبلاد الجزائرية ، بمدى قدرة الاهالى على استغلال المياه الجوفية والمحافظة عليها ، فهجرة الاباضيين الى المنطقة فى القرن العاشر الميلادى التى صادفت توسعا زراعيا وازدهارا عمرانيا لا تزال آثاره ماثلة فى خرائب سدراته ، قد آرتبط بالتحكم فى المياه الجوفية والعمل على الانتفاع بها ، بينما كان قدوم القبائل الهلالية للمنطقة أثناء القرن الثانى عشر يحمل معه انكماشا عمرانيا وتقهقرا اقتصاديا نتج أساسا من اهمال هؤلاء البدو لاستغلال مصادر المياه الجوفية وجهلهم بطرق استعمالها والاحتفاظ بها عند الحاجة ٠

على أن هذا الوضع ما لبث أن تغير عندما بدأ الاهالى يتمرسون من جديد على الانتفاع بالمياه الجوفية بعد ان اضطرتهم الحاجة الى توفير المزيد من المياه لسد حاجات مدينة ورقلة التى اصبحت منذ منتصف القرن الثالث عشر محطة رئيسية للقوافل وملتقى المسافرين والحجاج من مختلف الجهات والاقاليم ٠ ونستدل على الازدهار والرفاهية المرتبط بحسن الانتاج بالمياه الجوفية أن سكان ورقلة كان فى وسعهم دفع ضريبة لحاكمهم تقدر بـ 150 ألف دقة ذهبية كما أن حاكم ورقلة كان قادرا على الانفاق عن حامية ضخمة مؤلفة من 1000 فارس (52) فى وقت كان فيه أهم انتاج للمدينة توفره أشجار النخيل ٠ (53)

---

(52) Léon l'Africain, op.cit., vol. II, p. 630.
(53) Haedo, op. cit., p. 271.

لكن المنطقة لم تحافظ على ازدهارها ، بعد أن اهملت مصادر المياه منذ منتصف القرن السابع عشر من جراء الاضطرابات والفتن والتخريب وتحول كثير من فـلاحى الواحات الى رعاة ، وقد آستمر هذا الوضع بالمنطقة حتى حلول الفرنسيين بالمنطقة نهائيا عام 1882 وفرضهم الحكم العسكرى الظالم على أقاليم الجنوب .

4) ظلت الحياة الاقتصادية بورقلة ومنطقتها ، يغلب عليها الطابع التجارى ، رغم اشتغال قسم كبير من السكان بالاعمال الفلاحية وبعض الصناعات المحلية .

وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن التجارة رغم الضعف الذى أصبحت عليه فى أواخر الفترة العثمانية ، ظلت تعتبر عماد اقتصاد المنطقة ، ومصدر غنى سكـان ورقلـة بالخصوص (54) ، وذلك بفضل ظهور طبقة موسرة من التجار ذات خبرة ودراية بالاعمال التجـاريـة .

وتتجلى لنا خبرة تجار ورقلة وتوغرت ، فى تخليهم عن مبدا المبادلة والمقايضة عند تصريف البضاعة وشراء السلع ، واستعمالهم العملة الجزائرية الآنذاك مع العملات الاخرى كالريال التونسى المعروف بالطرباقة والدورو الاسبانى (55) ، بازاء عملـة محلية وصفها العياشى فى رحلته بأنها كانت تتألف من دراهم فضية ، يعادل كـل أربعة وعشرين درهما منها ريالا واحدا وذلك لما فيها من نحاس كثير (56) . كما تظهر لنا دراية تجار المنطقة فى تمكنهم من تأليف قوافل مسلحة تربط كلا من توغـرت ونقوسة وورقلة بالمراكز التجارية الاخرى بالصحراء كغدامس والواد ومتليلى وميزاب، وهذا ما مكنهم من ضمان نقل بضائعهم الى خارج المنطقة دون الالتجاء الى وساطة التجار الآخرين ، وبذلك وفروا مبالغ باهضة من الاموال كان يتطلبها نقل البضاعة من مكان الى آخر ، ونستدل على تكاليف النقل التى وفرها تجار المنطقة من أن حمولة جمل من التمر كانت تشترى من طرف تجار ورقلة أو توغرت بـ 15 ف ، لتبدل بأربع حمولات من الحبوب عند نقلها الى التل ، وعندما تعود هذه الحمولات الى المنطقة تباع مرة أخرى

(54) Léon l'Africain, op. cit., vol. II, p. 630.
(55) Daumas, op. cit., p. 135.

(56) العياشى ، نفس المصدر ، ص 48 .

الى البدو بـ 400 ف ، وبذلك يحصل التاجر مقابل نقل البضاعة وابدالها على ربح يربو على 385 ف • (58)

وبازاء هذا النشاط التجارى الرئيسى ، ظلت بعض المهن الصناعية والاعمال الفلاحية تؤلف نشاطا اقتصاديا هامشيا يسد حاجات الاهالى ويتماشى مع أوضاع المناطق الصحراوية ، فالفلاحة كانت تتمثل فى غرس اشجار النخيل (58) ، وزراعة بعض المنتوجات الاستهلاكية عندما تسمح المساحة المروية من الواحة بذلك ، أما الصناعة فقد كان لها طابعا محليا تقليديا استمد وجوده من معالجة بعض المواد الاولية المتوفرة فى عين المكان ، مثل الجلود والاصواف وخردة الحديد ومعدن الفضة ومادة ملح البارود ، التى مهر صناع المنطقة فى تحويلها الى سروج وألجمة وأحزمة وحافظات واحذية واغطية وأردية وبرانس وسكاكين وسيوف وبارود وحلى (59) ، مما أكسبها جودة واتقانا واعطاها شهرة تجاوزت نطاق الجهات الجنوبية رغم قلة أعدادها وضآلة كمياتها •

5) يعطى لنا النفوذ العثمانى بمنطقة ورقلة فكرة صحيحة عن مدى ارتباط البلاد الجزائرية بافريقيا السوداء ، وذلك لكون هذه المنطقة بوضعها الجغرافى ونشاطها الاقتصادى ظلت طيلة الفترة العثمانية تشكل حلقة وصل وبوابة طبيعية بين بلاد المغرب الاوسط واقاليم السودان الغربية ، ومعبرا حيويا تمر منه السلع وتنتقل عبره وفود الطلبة والتجار وجماعات العبيد بين مختلف جهات الصحراء الكبرى •

وهذا ما أكسب المنطقة رسالة انسانية سامية تمثلت خطوطها الرئيسية فى ذلك الاقتباس الحضارى والتمازج العرقى الذى أصبحت معه مدينة ورقلة مركزا مهما

---

(58) Emerit, op. cit., p. 39.

(59) كان عدد أشجار النخيل عند خضوع المنطقة للحكم الفرنسى عام 1881 يقدر بنواحى ورقلة بـ 436،252 نخلة ، فى وقت كان فيه عدد سكان المدينة والقصور المجاورة لها لا يزيد على 4331 نسمة ، أما مدينة توغرت فكان عدد أشجار النخيل المحيطة بها يقدر بحوالى 300 ألف نخلة تسقى بمياه 450 بئر ارتوازية • وذلك فى سنة 1856 م •

راجع : — Blanchet, op. cit., p. 148.
— Raynal, op. cit., p. 435.

يستمد منه أهالى السودان الغربى تعاليم الاسلام ومبادىء العربية وأساليب الحيـاة والمعيشة المتماشية مع مفهوم الحضارة الاسلامية ، مما زاد العلاقة الجزائرية الافريقية رسوخا وتلاحما ، واظهر من جهة أخرى مدى الاضرار التى أصابت افريقيا فى علاقتها باوروبا ، تلك العلاقة التى حولها الاستعمار الاوروبى عن اتجاهها الطبيعى فلم تهتم الا بنهب الثروات واستنزاف الخيرات وتشييع تجارة النخاسة على حساب مصـالح شعوب القارة الافريقية .

6) كما يثبت لنا النفوذ العثمانى بمنطقة ورقلة من جهة أخرى ، تكامل اقليمى الصحراء والتل ، هذا التكامل الذى يعطى للايالة الجزائرية منذ القرن السادس عشر وحدة طبيعية ، ترتكز على الترابط البشرى الفعال والتبادل الاقتصادى المثمر والعمل الحضارى البناء .

الوضع فى منطقة ورقـلة قبل الاحتلال الفرنسي

عبد الحميـد زوزو
معهد العلوم الاجتماعية جامعة الجزائر



تدخل دراسة منطقة ورقلة فى عهد الاحتلال الفرنسى للشمال ضمن الدراسة التاريخية الشاملـة للصحراء الجزائرية ؛ ذلك أن الثورات الصحراوية ، فى نظرنا ، تشكل وحدة متكاملة وتكون سلسلة مترابطة الحلقات منذ ثورة الزعاطشة بالجنوب الشرقى ، والشريف محمد ابن عبد الله بالجنوب الاوسط ، الى ثورة أولاد سيدى الشيخ وبوعمامة بالجنوب الغربى ، مع ما هنالك من خصائص جغرافية ، ومميزات تاريخيـة ، وظـروف محلية تتحكم فى هذا الاقليم دون ذاك •

ومنطقة ورقلة كانت فى ظرف تاريخى معين ملجأ للمهاجرين ، ومأمنا لبعض الجماعات والافراد من غضب السلطة المركزية فى الشمال ، وذلـك بحكم موقعها الجغـرافى

البعيد عن المناطق الساحلية والتلية ، فقد هاجرت اليها الفرقة الاباضية عندما شتت الفاطميون دولتهم فى القرن العاشر الميلادى • وكان لموقعها الرابط لطرق التجارة الصحراوية بين الشرق والجنوب الشرقى الدور الهـــام فى حياتها الاقتصاديـــة والاجتماعية والعلمية ، فضلا عن الاثر الطيب لهذا الدور على البلد كله • لقد كـان نشاطها التجارى متصلا ببلاد السودان وبمدينة غاو بامبراطورية السنغاى جنوبا ، ومرتبطا بغدامس وليبيا شرقا • وقد سجل المؤرخون فى كتاباتهم ، ومثلهم الرحالة ، الرخاء الاقتصادى والعيش الهنىء السائدين بها ، امثال الادريسى (ق 12) والحسن ابن محمد الوزانى المعروف بليون الافريقى (ق 16) وهايـــدو (ق 16) والعيـاشى (ق 17) • (1)

لكن يبدو أن عوامل جديدة عملت على اضعاف تجارتها منذ أواخر القرن 17 ، من بينها : ظهور طريق بحرى جديد لنقل الذهب من خليج غينيا الى البرتغال ، وظهور طريق صحراوى آخر من السودان الى مصر ؛ ومن بين العوامـــل اهتمام السلطـــة العثمانية فى الجزائر بالتبادل التجارى فى البحر المتوسط، وأهمالها له عبر الصحراء • ثم كان سقوط مملكة السنغاى سنة 1591 عاملا آخر أثر على تجارة الذهب بالمنطقة •

وخلال القرن السابع عشر استقر بالمنطقة عنصر جديد ساهم فى خلق أوضـاع سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة ، يتمثل فى استقرار قبائل سعيد ، وبنى ثور والشعامبة والمخادمة كما سيأتى •

وسينصب اهتمامنا فى هذا المقال على الوضع فى المنطقة خلال الفترة الممتـــدة من 1830 الى خضوعها للفرنسيين فى مطلع سنة 1854 • والمقصود بالمنطقة هنا واحتى ورقلة ونقوصة وما اتصل بهما من قصور • وخلال هذه الفترة ، مرت المنطقة بمرحلتين تميزت الاولى (1830 ـ 1851) بالصراع المحلى ، حال دون الاستعداد لمجابهة العدو الفرنسى ، فى حين تميزت الثانية (1851 ـ 1854) بمقاومة الفرنسيين بقيادة محمد

(1) أنظر بلحميسى ، مدينة ورقلة فى رحلة العياشى ، مجلة تاريخ وحضارة المغـرب عدد 8 ، يناير 1970 ، كلية الآداب ، جامعة الجزائر ص 41 ـ 51 •

ابن عبد الله التلمساني . واذا كانت ورقلة قد قادت المرحلة الثانية فقد تزعمت نقوصة المرحلة الاولى .

ونبدأ بالتعرف على الوضع الاجتماعي والاقتصادي لعلاقته بالصراع السياسي (2)، تعتمد كل من واحتي « انقوصة » (3) وورقلة في اقتصادها ، بالدرجة الاولى ، على انتاج التمور ، فورقلة تحيط بها غابات من اشجار النخيل ، تتخللها بعض البساتين ، مثلما تحيط بالقصور الاخرى المتممة للواحة وهي : بامنديل والرويسات ، وعجاجة ، وعين احمار ، وسيدي خالد ، بحيث يشكل وضعها العام شكلا اهليجيا تغطيه أربع مائة ألف نخلة ، وترجع هذه الثروة الى توفر المياه الجوفية بشكل جيد ، تصل الى الواحة عن طريق وادى « مية » (4) ، القوى بروافده الكثيرة لتتدفق ينابيع ، أو تستخرج من مئات الآبار القليلة العمق .

وينطبق نفس الوضع على واحة نقوصة الواقعة الى الشمال من ورقلة بنحو ثمانية عشر كيلومترا ، فهي أيضا تقع وسط غابات النخيل، تسقيها مياه وادى نساء وميزاب، والتي يتم استخراجها عن عمق لا يزيد على ستة امتار وعليه فان غابات النخيل لا تلعب دورا اقتصاديا رئيسيا فحسب ، بل وتشكل بالنسبة للسكان حصنا دفاعيا طبيعيا ضد الغارات المتكررة .

أما الاصل العرقي للسكان فهو مزيج من العرب والبربر والزنوج . والسكان بحسب نمط حياتهم صنفان : حضر مستقرون ، وأعراب رحل . يقطن الصنف الاول داخل القصور المسورة ، ويتوزعون داخلها على عدد الاحياء المساوى لعدد الجماعات

---

(2) اعتمدنا في هذه الدراسة بالدرجة الاولى على كتابين لان مؤلفيهما قد زارا المنطقة للتعرف عليها وذلك خلال سنتي 1842 و 1853 ، وهما :

Daumas : Le Sahara Algérien - Etudes géographiques, statistiques et historiques, sur la région du Sud des établissements français. Paris, 1845.

C. Trumelet : Les Français dans le désert - Journal historique militaire et descriptif d'une expédition aux limites du Sahara Algérien. Paris, 1887.

(3) « انقوصة » من النقص كما جاء بيان ذلك في مخطوط بعنوان « تجريب القلم » نقله فيرو في كتابه

L. Charles Féraud : Le Sahara de Constantine. Alger, 1887, p. 456.

(4) من العدد « مائة » لكثرة الروافد الرافدة للوادى والتي قد تصل الى مائة .

أو الاسر القاطنة ضمن القصر • فورقلة كانت تضم ثلاثة أحياء ، يقطن حيها الشمالى بنو سيسين ، وحيها الشرقى بنو ابراهيم • أما بنو واجين فيقطنون الحى الغربى منها• وكانت للمدينة ستة أبواب باعتبار أن لكل حى بابين خاصين به ، فلحى بنى ابراهيم باب عمار وباب عزى ، ولحى بنى واجين باب ربيعة وباب الربح • أما حى بنى سيسين فله باب السلطان وباب أحمد (5) • ويقدر دوماس Daumas الذى زار المنطقة سنة 1842 عدد الديار داخل قصر ورقلة بستمائة دار ، بالاضافة الى ثلاثة مساجد جامعة وقصبة ، كما يقدرها بمائة دار فى عين احمار ، وبستين فى العجاجة وبأربعين فى الروسيات • (6)

أما فيرو Feraud ، الذى كان هو الآخر قد زار المنطقة سنة 1871 فيقدر عدد سكان قصر ورقلة وحده بألفى نسمة • (7)

ولا شك أن المادة المستعملة هى اللبن وجذع النخل وسعفه ، أو غيرها من الامكانيات المتوفرة • فكل البناء باللبن الا فى قصر بامنديل وفى قصبة الشريف محمد بن عبد الله بجنوب الروسيات ، أريد بناؤهما بالحجر لمتطلبات دفاعية محضة •

ويقطن قصر نقوصة كذلك حضر مستقرون يضمهم حى واحد وتقدر دياره بنحو مائة وثمانية وثلاثين ، بالاضافة الى مسجدين وقصبة (8) • وتحيط بقصرهم سور

L. Charles Féraud : Le Sahara de Constantine. p. 456.

(6) Daumas, pp. 72 et 80 ينفرد دوماس بذكر ثلاثة جوامع ، بينما يتفق فيرو وتروميلى فى ذكر جامعين فقط ، وهما جامع عزة الذى بناه الميزابيون ، والجامع الكبير المعروف بجامع المالكية • وربما كان هناك جامع ثالث سقط اثر التلف الذى لحق به قبل زيارتهما لورقلة ، اذ أشار دوماس الى الضعف الذى لحق باحدى الصوامع الثلاث فى سنة 1842 • ويذكر تروميلى فى مكان آخر من كتابه (ص 471) بوجود سبعة عشر زاوية ضمن قصر ورقلة •

(7) نتصور أن يكون عدد السكان المقدر من طرف فيرو لا يختلف كثيرا عما كان عليه فى الفترة المدروسة بسبب كثرة الحروب والهجرة نحو أماكن أخرى •

(8) Trumelet, p. 449 فى حين يقول دوماس بأن عددها كان يتراوح ما بين 150 و 200 • والرواية الاولى أكثر دقة فى نظرنا ، لان تروميلى كان قد دخل نقوصة وجال فى انحائها ، أما دوماس فقد اكتفى بتسجيل ما سمع عنها •

مخطط مدينة ورقلة سنة 1880 .

باب الجديد
عين حزى
باب عزى
باب الربح
باب احمار
بنو وجين
عين بيوض
بنو ابراهيم
صومعة
صومعة
سوق
عين بستان
بنو سيسين
عين بو سحاق
قصبة
باب حميد
باب السلطان

$\frac{1}{10.000}$

المرجع : نقلا عن P. VUILLOT, l'Exploration du Sahara. E. Historique et Géo. PARIS, 1895. P. 177.

مسننة تعلوها تدعيمات مربعة يصل عددها الى ثلاثين · وللقصر بدوره خمسة أبواب هى : باب الزريبة، باب العلوش، باب تلموناست، باب القصبة وباب العين الزرقاء.(9)

وهكذا كان يحيا الحضر داخل أسوار قصورهم وخارجها حياتهم العاديـــة ، ففى الداخل يمارسون التجارة، ويمتهنون الحرف المختلفة من حدادة ونجارة وما الى ذلك(10)

وفى خارجها يعنون ببساتينهم ونخيلهم · أما فى زمن الحرب فانهم يتصـــدون للدفاع عنها ، مستحكمين التدعيمات ومدعمين للتحصينات · وتظل الابواب موصدة ، والخنادق المحيطة بالقصور مليئة بالمياه المتوفرة الى أن يسود الامن · (11)

أما الصنف الثانى ، وهم البدو الرحل ، والذين استقروا بالمنطقة فى بداية القرن السابع عشر فقد ظلوا الى هذه الفترة التى نكتب عنها محافظين على حياة الترحـال ، باستثناء نسبة قليلة منهم ، ويضربون مضاربهم عند أسوار القصور ، أو بقربهـــا هنا وهناك فى غابات النخيل · لكن علاقاتهم بالسكان داخل الاسوار كانت وطيدة عن طريق المصالح المتبادلة ، بحيث كان بعضهم لبعض خدم · وعلى هذا النحو ارتبطت قبيلة سعيد عتبة بأسرة بنى ·اجين ، وقبيلة المخادمة ببنى سيسين ، وبدو بوروبة ، وهم فرع من قبيلة الشعامبة ، ببنى ابراهيم (12) · وربما اقتضت الحاجة الى التحالف مع عدو سابق ضد صديق الامس · ومهما كانت طبيعة العلاقة فيما بين القبائل البدوية من جهة ، وعلاقاتها بسكان القصور من جهة أخرى ، فقد لعبت دورا أساسيا فى مختلف أوجه الحياة · وما دام الامر كذلك فان الصورة الاقتصادية وآلاجتماعية لا تكتمل الا بالتعرف عليها ، وعلى امكانياتها الحربية وثروتها الحيوانيــة ، وبتحديـــد مجـال تنقلاتهـا ·

Daumas, p. 88

(10) تسجل المراجع وجود دكاكين للحرف اليدوية فى كلا القصرين ما عدا حـــرفة الصياغة التى كان يتولاها اليهود القادمون الى المنطقـة لنفس الغرض ولفترة معينـة ، أنظر نفس المصدر ص 86 ·

(11) كانت ورقلة محاطة بخندق مواز لسورها ، بينما كانت نقوصة يحيط بها خندق من جهة الشرق فقط · ويراعى فى حفر الخنادق العمق والعرض خاصة ، فبينما يتراوح العمق ما بين 2 و 3 أمتار ، كان العرض يصل الى 10 أمتار ·

(12) L. Charles Féraud : Kital El Adouani, Constantine 1869, p. 205.

فخلال الفترة المدروسة ، كانت فى منطقة ورقلة ثلاث قبائل كبرى : أولها قبيلة المخادمة التى كان من ضمنها بنو حسان ، أولاد نصر ، بنو خليفة ، بنو ثور ، العريمات وأولاد أحمد • وتملك هذه القبيلة ستين جوادا وخمسمائة بندقية ، ولكنها فقيرة نسبيا فى قطعان الغنم • أما مجال تنقلهم فكان الى جنوب شرق ورقلة فى اتجاه قاسى الطويل وغدامس • وأما فى فصل الشتاء فيقصدون وادى رزقون وصغور "Seggueur" الى الشمال الغربى من غرداية • وهناك قسم من بنى ثور لا يرتحل وانما يقيم باستمرار فى قصرى اروسيات وعين احمار • (13)

والقبيلة الثانية هى الشعامبة بوروبة ، وينتمى اليها أولاد اسماعيـــل ، أولاد أبو بكر، ودرى، أولاد فرج، أولاد سعيد، أولاد زايت • ولها من الامكانيات 30 جوادا ، ومن السلاح كمية تتراوح بين مائتين وثلاثمائة بندقية • (14)

ومجال تنقلهم يمتد حتى غدامس فى الجنوب ، والى تماسين بقرب توقورت شمالا ، والى عين صالح جنوبا ، والى وادى الغربى عند سفوح جبال القصور غربا (15) • وفى هذا المجال الواسع الذى يصل قطر دائرته الى أربعمائة كيلومتر ، تنتشر القبـــائل لمدة ثلاثة أشهر ، تعود بعدها الى ورقلة مع حلول فصل الخريف • (16)

أما القبيلة الثالثة فهى قبيلة سعيد عتبة التى هى فرع من قبيلة سعيد القبيلـة الام ، وتضم فتناسه والرحبات وأولاد يوسف (17) • وتفوق امكانياتها الدفاعيـــة امكانيات القبائل الاخرى بحيث تقدر بمائة جواد وخمسمائة بندقية (18) • ويمتلك أفرادها بالاضافة الى ذلك ثروة هائلة من الغنم والجمال • أما رحلتهم السنوية فكانت تتم بالشكل التالى : بعد الاقامة فى ورقلة مدة تمتد من اكتوبر الى جانفى ويتم خلالها جنى التمور وشحنها ينتقلون الى نقوصة حيث يمكثون ثلاثة أسابيـــع ، ومنها الى بنى ميزاب • ومع مطلع شهر افريل يقصدون وادى زرقون للانتاج مـــن ناحيـــة ،

(13) L. Charles Féraud : Sahara, p. 459.
(14) Daumas, p. 83.
(15) Charles Amat : Le M'Zab et les Mozabites, Paris, 1888, p. 36.
(16) P. Blanchet : L'Oasis et le pays d'Ouargla - Revue de géographie - Tome IX, 1900, p. 151.
(17) Féraud, Sahara, p. 488.
(18) Daumas, pp. 82-83.

والاتصال بحلفائهم الاربعاء من ناحية أخرى ثم يرجعون الى ميزاب لصرف ما زاد عن حاجتهم من الانعام والاصواف . ثم يقصدون مدينة تيارت حاملين معهم التمور ، وأثناء مرورهم بتاجرونه والاغواط وشلالة كانوا يبيعونها ويشترون الحبوب مكانها لبيعها من جديد فى ميزاب والاغواط . (19)

وعن طريق هذه التنقلات يمكننا أن نتصور دائرة النشاط الاقتصادى تبعا للنقاط التى تنتهى اليها رحلات القبائل البدوية ، وأن نتبين أهمية التبادل التجارى الذى تؤديه . فاليها يرجع الفضل فى توفر البضائع ، وتنوع السلع (20) ، وظهور ورقلة كمركز تجارى رئيسى يستقطب نشاط المناطق الصحراوية الاخرى . ولا أدل على ذلك من اقبال القبائل التالية على أسواقها وهى : الاربعاء ، أولاد يعقوب، بنى علال، الاغواط كسل ، قبائل أولاد سيدى الشيخ، بنو مزاب، شعامبة متليلى، بالاضافة الى الطوارق وتجار من مدينة غدامس .

وتتبين لنا ، هكذا ، مدينة ورقلة مستودعا ضخما فى قلب الصحراء ، وسوقا عامرة لمدة فصل الخريف بكامله . ومما كان يزيد للحركة التجارية نشاطا فى هذا الموسم بالذات تواجد البدو في مراكزهم ، وحلول موسم جنى التمور . ونتصور السوق الموسمية التى كانت تعقد بمنطقة ورقلة شبيهة بأسواق الموقار التى تعقد فى أيامنا هذه .

وبما للقبائل من امكانيات حربية ، ودور اقتصادى قوى كما رأينا ، فان مواقفها من الصراع على النفوذ فى المنطقة بين مشيخة نقوصة وسلطنة ورقلة ستكتسى

---

(19) P. Blanchet, p. 150.

(20) أهم منتوجات منطقة ورقلة : التمور بأنواعها والملح . أما السلع التى ترد اليها فهى من غدامس : التبر ، الفتائل المذهبة ، العبيد . ومن بلاد الطوارق : العاج ، التبر ، الزنوج . ومن تونس : العمائم ، الافاوية ، الاسلحة ، الشواشي ، الاحذية ، حلى (جواهر ، أسورة) وأدوات حديدية (معاويل ، فؤوس ، مطارق) . فضلا عن المنتوجات الجزائرية كالحبوب ، والبارود ، والرصاص ، وما الى ذلك . أما العملة المتداولة فى الاسواق فهى البوجو والدورو الاسبانية والفرنك ، لكن هذا الاخير يذوب ليستعمل حليا . أنظر Daumas, p. 86

واحة ورقلة سنة 1854



نقلا عن TRUMELET، ص 465

أهمية خاصة بالنسبة للنظام السياسى لدى كل منهما • فالصراع السياسى بين الواحتين يبدو تقليديا بحسب ما تسجله المراجع (21) ، ومرتبطا بظهور أسرة بنى بابية الزنجية فى نقوصة مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادى •

وقد توارث الحكم فى نقوصة خلال الفترة المدروسة الشيخ الغالى (1818 ـ 1842) والشيخ الحاج أحمد الثانى (1842 ـ 1851) ، والشيخ أبو حفص (فيفرى 1851 أوت 1851) ، فى حين تعاقب على ورقلة خلال نفس الفترة مولاى الطيب ومولاى دلبى، ومولاى على ، مولاى سليمان ، مولاى مسعود ومولاى عبد القادر • (22)

فالحكم كان فى مشيخة نقوصة مطلقا يتمتع الشيخ بموجبه بجميع الصلاحيات فى حين كان فى سلطنة ورقلة ملكيا مقيدا بمجلس الجماعة المكون من اثنى عشر عضوا، ويتولى مقاليد الامور متخذا من السلطان رمزا للوحدة ، فالسلطان بهذا الاعتبار يملك ولا يحكم • ويرجع ذلك فى نظرنا الى كون السلطة فى نقوصة مدعمة بقاعدة مجتمعية متجانسة عرقيا ، ومترابطة سياسيا • أما فى ورقلة فان الرغبة فى وضع حد للصراعات العشائرية ، وللنزاعات العائلية ، من اجل السلطة ، هى الدافع الى استقدام سلطان غريب من سلاطين فاس لا تربطه أية علاقة بالمحكومين (23) • لذلك ظلت ورقلة محل صراعات متجددة ، تغذيها القبائل البدوية بمواقفها المتقلبة وبتدخلاتها المستمرة ، الامر الذى جعلها فى غالب الاحيان تخضع لمشيئة أسرة بنى بابية على الرغم من تفوقها بشريا واقتصاديا وحضاريا أيضا • ولا أدل على ذلك من تعاقب أكثر

---

(21) للاطلاع على سلسلة بنى بابية الحاكمة فى نقوصة أنظر :

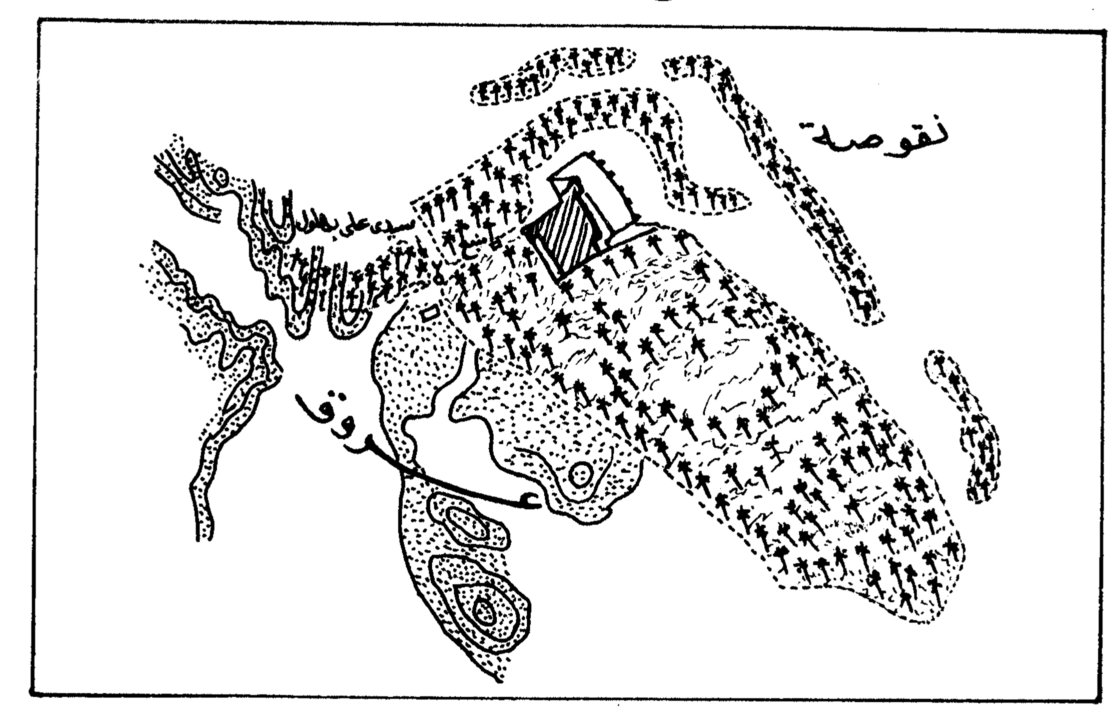
Alain Romey : Histoire, toponymie et tradition orale d'une Oasis, arabo-berbère, N'Goussa, Ecole Pratique des Hautes Etudes, Sciences Economiques et Sociales, Sorbonne année universitaire 1973-1974, pp. 97-100.

وبناء على ما نقله روميى من المخطوط فان حكم أسرة بنى بابية ينبدأ سنة 1021 وينتهى سنة 1909 •

(22) Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 489.

(23) كان أول سلطان من سلاطين فاس الذى نصب على ورقلة هو مولاى اعلاهم ، وذلك سنة 1602 ، ويفهم من المراجع ان الصراعات الطويلة بين الاسر الثلاث ، وعدم توصلها الى اتفاق حول السلطة هو السبب الرئيسى فى استقدام مولاى اعلاهم بعد أن دفعوا وزنه ذهبا • أما قبل ذلك فقد كانت أسرة بنى أبى غابول هى الحاكمة لورقلة ، وكانت لها قرابة مصاهرة بأسرة بنى واجين على حد قول ابن خلدون •

واحة نقوصة في سنة 1854



نقلا عن TRUMELET ص 449

من سبع سلاطين على الحكم فى ورقلة خلال الفترة المدروسة فى حين لم يتعاقب على نقوصة سوى ثلاثة شيوخ ٠

ونلاحظ الصراع على أشده فى الفترة التى تعنينا بحيث تكتل سكان المنطقة من بدو وحضر الى كتلتين ، كتلة « الغرابة » الموالية لسلطنة ورقلة وتضم الشعامبة ، المخادمة ، بنى ثور وبنى سيسين ٠ وكتلة « الشراقة » الموالية لبنى بابية ٠ وتضم قبائل سعيد عتبة وبنى وجين ٠ أما بنو ابراهيم فان مواقفهم كانت تتعاشى مع ظروف مصالحهم ٠ (25)

وقد استعمل بنو بابية شتى الوسائل لارغام سلطنة ورقلة وحلفائها « الغرابة » على تقبل زعامتهم منها : تدعيم شرعية أحقيتهم فى الحكم بالتأكيد على نسبهم الشريف المنحدر من حليمة السعدية ، مرضعة الرسول ـ ص ـ وهو ما كان يرفضه أهل ورقلة. ومنها اتباع سياسة قائمة على التدخل والتحرش بهدف اذكاء الصراع ضمن الكتلة المعادية ، وتطبيق سياسة القوة باعتمادها على قبيلة سعيد عتبة ذات الامكانيات قبائل سعيد عتبة وبنى واجين (24) ٠ أما بنو ابراهيم فان مواقفهم كانت تتماشى مع ظروف مصالحهم ٠ (25)

وقد ذهبت مشيخة نقوصة فى سياستها الرامية الى التسلط على ورقلة الى درجة الخضوع للفرنسيين فى الشمال مقابل الاشراف على كامل منطقة ورقلة ٠ والواقع أن بنى بابية قد طبقوا سياسة الولاء تجاه السلطة العثمانية ، ومنها حصلوا على تأكيد سلطتهم على المنطقة ، واعتبرت ، تبعا لذلك ، قبيلة سعيد عتبة الموالية لهم من قبائل المخزن بحيث حصلت على امتيازات مقابل تأديتها لالتزامات معينة (26) وبهذه السياسة

(24) Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 485.

(25) يستنتج من الصورة التى تمثل تخطيط مدينة ورقلة سنة 1882 ٠ أن بنى ابراهيم كانوا أقلية بالنسبة الى الاسر الاخرى ، كما يستنتج بأن اغلبيتهم كانت على المذهب الاباضى ٠ ولهذين السببين نراهم فى الغالب على الحياد ، ولا يتدخلون الا فى المراحل الاخيرة للنزاع ، **أنظر** :

P. Vuillot : L'exploration du Sahara, Etudes historique et géographique, Paris, 1895, p. 17.

(26) من جملة الالتزامات القيام بجمع الضرائب المفروضة على سكان المنطقة ٠ وقد كانت ورقلة مثلا ملزمة بدفع خمسة وعشرين عبدا كضريبة سنوية ، على أن تحصل مشيخة نقوصة على عبد واحد من المجموع ٠

تسلطت مشيخة تقوصة على سلطنة ورقلة ، وكلما عبرت هذه الاخيرة عن ضيقها أو عز البابيون الى العثمانيين بالتدخل المباشر (27) ٠

لكن عند سقوط مدينة الجزائر فى يد الفرنسيين سنة 1830 ، امتنعت ورقلة عن دفع التزاماتها المعتادة الى مشيخة تقوصة ، واغتنمت فرصة وصول السلطان ابراهيم من سلاطين بنى جلاب على رأس جيش عند أسوار تقوصة ، لحسم خــلاف بينه وبين الشيخ الغالى بنى بابية ، وأرسلت جيشا يساعده على اخضاع مشيخة تقوصة ، لكن هذه الاخيرة تفطنت للحيلة ، وتمكنت من تسوية خلافها مع بنى جلاب وانهائه لصالحها بعد القضاء علىقوات ورقلة ٠ وسلك الشيخ الغالى بن بابية سياسة الانتقام والعنـاد ضد ورقلة طيلة المدة الطويلة لحكمه ، فكان يعمد الى قطع نخيلها ، ويتعرض لقوافلها القاصدة منطقة ميزاب ٠ ولم يكف الا بعد حصوله على العشر والاتاوات (28) ٠ لكن الامر فى عهد الشيخ الحاج أحمد خلاف ذلك بسبب الصراع الداخلى بين أفراد الاسرة الحاكمة من جهة ، والشقاق ضمن قبيلة سعيد عتبة من جهــة أخرى (29) ٠ فكانت النتيجة ، اختلال التوازن فى المحالفات السابقة ، وتبدل موازين القوى فى كل مــن تقوصة وورقلة ٠

انفجر الصراع فى أسرة بنى بابية عندما قام أحمد يدعمه أولاد يوسف بالاستيلاء على الحكم ، وابعاد أبيــه الحاج أحمد بن بابية ، ووقوف أخـويه أبـو حفص والطيب بالتحالف مع فتناسة والرحبات والشعامبة ضده ، وارجاع والدهما الى الحكم مــن جديد ٠ وفى هذا الوقت بالذات تم فى ورقلة خلع مولاى مسعود وتولية مولاى الطيب مكــانه ٠

(27) قاد الحملة الاولى على ورقلة سنة 1552 صالح رايس وأخذ من أهل ورقلة 200.000 ريال ذهبا أما الحملة الثانية فقد قادها صالح بــاى حاكم قسنطينة سنة 1788 ٠ أنظـر :
Alain Romey, p. 90.

(28) Alain Romey, p. 100.

(29) تتفرع قبيلة سعيد الى ثلاثة فروع هى : فرع أولاد مولات الذين استقروا بتوقرت وفرع أولاد عمر المقيمين فى تماسين ، وفرع سعيد عتبة المقيم بنقوصة وهذا الفرع الاخير يتكون من فتناسة والرحبات وأولاد يوسف ٠ أنظر :
Féraud : Le Sahara de Constantine, pp. 462-488.

وأمام الوضع الجديد تحالف أولاد يوسف مع المخادمة وشنوا هجوما فى ربيع سنة 1843 بقرب ورقلة على الرحبات وفتناسة ، حلفاء الشعامبة وبنى ثور . وبعد صراع دام مدة ، تمكنوا خلاله من قتل شيوخ بنى ثور . وأخيرا توصل الفريقان الى عقد صلح بينهما . لكن بعد أسبوعين انفصل المخادمة عن أولاد يوسف ، وانضموا الى بنى ثور والشعامبة . ولسبب أو لآخر قامت حرب بين المخادمة وبنى ثور ، تحالف على أثرها أولاد يوسف مع بنى ثور ، ودخلوا فى حرب ضد فتناسة والرحباب حلفاء المخادمة ، اسفرت عن مقتل ستة عشر رجلا وخسارة ثلاثين جوادا من جانب المخادمة وحلفائهم (30) .

وقد كانت هذه الحرب الاهلية على حساب الاستقرار السياسى فى المنطقة ، وفى ورقلة خاصة ، حيث ظل الصراع قائما بين أفراد الاسرة الحاكمة ، فبعد ما كان بين مولاي الطيب ومولاى مسعود (1843) انتقل بين مولاى على ومولاى دلبى (1847) . وهكذا الى أن تعاقب على الحكم سبعة سلاطين فى فترة لا تزيد عن عشر سنوات (31) . ورغم ذلك فقد عجزت تقوصة على عهد الحاج أحمد بن بابية فى فرض سيطرتها على ورقلة .

وأمام هذا العجز ، اتصل أحمد بن بابية فى ربيع سنة 1849 بالقيادة الفرنسية فى تيارت للحصول على امدادات يخضع بها ورقلة والقبائل المعادية له ، فى مقابل تأدية اللزمة ، رمز الخضوع للسلطة الفرنسية . وفى عشرين من نوفمبر سنة 1849 منحت السلطة الفرنسية الى الحاج أحمد لقب خليفة على كامل منطقة ورقلة ، وأرسلت اليه مائتى فارس لاقرار سلطته على المنطقة (32) . وتوالت أمداد القوم طوال سنة 1850 وفى أكتوبر سنة 1850 ، الى ورقلة . لكن هذه الاخيرة بقيت رافضة لحكمه على الشيخ أحمد بن بابيا الذى سار على رأسها عدة مرات فى ديسمبر سنة 1849 وفى صامدة فى وجه أطماع زنجى منحدر من سلالة العبيد ، لا سيما وقد تبين تحالفه مع قوة أجنبية (33) .

(30) نفس المصدر ص 488 . وأنظر Trumelet : Les Français, p. 32

(31) Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 489

(32) Trumelet, p. 37.

(33) نفس المصدر ص 37 ، 38 .

وعندما ورث أبو حفص لقب الخليفة بعد موت والده (34) ، جرى فى نفس الطريق لكنه انشغل أكثر بالنزاع الذى قام بينه وبين أخيه الطيب • هذا فى الوقت الذى كانت مدينة ورقلة تستعد لتتجاوز مرحلة الصراع الداخلى ، ودخول مرحلة جديدة هى مرحلة مقاومة الفرنسيين بزعامة محمد بن عبد الله •

وهكذا أسفرت المرحلة الاولى عن نتائج سلبية أثرت على المنطقة • ففى المجال السياسى انشغلت المنطقة بالصراعات المحلية ، وانصرفت عن الاعداد لمواجهة العدو الفرنسى فى الشمال ، فضلا عن منح العدو فرصة التدخل فى القضايا الخاصة واعطائه امكانية التسرب الى الصحراء عن طريق سياسة الاستنجاد التى طبقها بنو بابية •

وفى المجال الاقتصادى نتصور أن يعترى التبادل التجارى نوع من الركود النسبى بسبب انعدام الامن ، وكثرة الغارات • كما نتصور حصول انخفاض فى محصول النخيل بسبب القطع والاهمال ، فضلا عما قد يصيب الثروة الحيوانية من موت وما يلحق بالعمران من دمار وتخريب •

وفى المجال الاجتماعى ، ازداد العداء استحكاما بين القبائل العربية المتجاورة ، وتمتنت التحالفات العائلية والعشائرية على حساب التحالفات القومية فى مرحلة دقيقة من تاريخ الجزائر • كما نتج فى هذا المجال بالذات نقص فى السكان لكثرة الحروب بحيث لانكاد نجد اختلافا بين عدد سكان ورقلة فى سنة 1882 وسنة 1842 (35) •

أما المرحلة الثانية التى هى مرحلة مقاومة الفرنسيين فقد ارتبطت فى الواقع بظهور محمد بن عبد الله وابن شهرة فى وقت متقارب ، واللذين طال صمودهما فى وجه الفرنسيين ، لكن مواقفهما فى السنوات الاخيرة من كفاح الامير عبد القادر تبقى غامضة ، بل وقد تجعل الباحث يتساءل عن حقيقة محاولتهما الثورية ، أكانت حقا لاهداف قومية ، أم كانت لاغراض أخرى ؟ ، اذ لو كانت قومية بحتة ، فى نظرنا ،

(34) مات الحاج أحمد بن بابية فى 19 جانفى 1851 اثناء عودته من وهران التى قصدها فى ديسمبر سنة 1850 لتأدية زيارة امتثال للقيادة الفرنسية •

(35) P. Blanchet, p. 146.

لانضم ابن عبد الله الى كفاح الامير ، ولا امتنع عن تقديم خدماته الى الجيش الفرنسى ، ولما لزم ابن شهرة الصمت من جهته والتزم الحياد (36) ٠

وعلى أى حال فقد نودى بمحمد بن عبد الله سلطانا على ورقلة فى شهر جويلية من سنة 1851 (37)٠ ولعل الورع والتقى اللذين اشتهر بهما، بالاضافة الى التجربة الحربية السابقة ، قد جعلت منه فى نظر السكان ، الشخص المؤهل لمواجهة تحديات نقوصة ، والرجل المناسب لصد تحرشات القوم ، عملاء الفرنسيين (38) ٠ ثم ان هناك شيئا جديدا ارتبط بالسلطان الجديد وهو مبدأ اخراج الصراع من مجاله الضيق الى مجال أوسع باعلان الجهاد ضد الفرنسيين ٠

---

(36) كان ابن شهرة آغا من قبل الفرنسيين على قبائل الاربعاء قبل انضمامة الى حركة محمد بن عبد الله ٠ أنظر Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 115. وبخصوص كفاح ابن شهرة أنظر بوعزيز يحيى فى مجلة الثقافية عدد 31 (فيفرى ، مارس) 1976 ص 39 ــ 48 ٠

(37) تتكلم المراجع الفرنسية عن محمد بن عبد الله بصفته خليفة من قبل الفرنسيين على منطقة تلمسان مدة أربع أوست سنوات بهدف استعماله ضد الامير عبد القادر لكن يبدو أنه لم يكن فى المستوى المطلوب منه ، فضلا عن تشككهم فى اخلاصه لسياستهم وقد أشارت عليه السلطة الفرنسية حينذاك بالحج كطريقة لبقة لابعاده ٠ وفى الشرق تعرف على الشيخ محمد السنوسى وغيره من القادة العثمانيين المناصرين لسياسة المقاومة الجزائرية وكان رجوعه الى الجزائر عن طريق ليبيا والجنوب التونسى فى شهر فيفرى سنة 1851 ٠ وفى جويلية من نفس السنة وصل الى ورقلة واتخذ منها مركزا لمقاومته الطويلة ، والمتقطعة ضد الفرنسيين الى أن ألقى عليه القبض فى سنة 1861 بعد معركة انهزم فيها ٠ ونقل بعد ذلك الى السجن العسكرى بمدينة باربينيان فى جنوب فرنسا بتاريخ 6 ديسمبر 1861 ٠ ثم حول الى عنابة فى حدود سنة 1866 بطلب منه ٠ وهناك تزوج ومكث مدة تحت الرقابة ٠ وخلال انشغال الفرنسيين بثورة المقرانى غادر عنابة الى تونس حيث توفى سنة 1876 ٠ للاطلاع أكثر على محمد بن عبد الله ٠ أنظر المراجع الآتية :

Trumelet : Les Français dans le désert, Paris, 1887, pp. 44-79.
Walsin Esterhazy : Le Makhzen d'Oran, S. date, pp. 145-155.
Le Gouvernement de l'Algérie de 1852 à 1858 - Paris, 1859, p. 22.
Note sur l'histoire de Laghouat dans Revue-Africaine, 1895, pp. 20 et 39.

بوعزيز يحيى : كفاح الشريف محمد بن عبد الله ، فى مجلة الثقافة ، عدد 33 (يونيو ــ يوليو 1976) ص 11 ــ 28 ٠

(38) Trumelet : Les Français, Paris, 1887, pp 61-62

وفى هذا الاطار ، ومن خلال نشاط محمد بن عبد الله ، يمكننا استنتاج خطة حركته القائمة على العناصر الآتية :

1 ـ جعل منطقتى الزيبان وسوف تابعتين له باستمرار ، لضمان خط الرجعة نحو الجنوب التونسى من ناحية ، والحصول على الامدادات الغذائية والحربية من ناحية أخرى ، ومنع وصولها الى بنى جلاب • ولهذا كانت قبيلة أولاد مولات تتعرض لغارات من قبل أتباع محمد بن عبد الله بوصفها خاضعة لبنى جلاب وبحكم نقلها للجنوب الى منطقة وادى ريغ (39) •

2 ـ تغذية النزاعات ضمن منطقة وادى ريغ الخاضعة للنفوذ الفرنسى ، بحيث استغل محمد بن عبد الله العداء القائم بين واحة تماسين وورقلة من جهة ، وتطلعات سلمان الى الحكم بعد عبد الرحمن من جهة أخرى ، لاضعاف سلطنة بنى جلاب الخاضعين للفرنسيين والتحكم فى المنطقة للاهمية التى تكتسيها كقاعدة تمد تحركاته نحو الزيبان بالامدادات ، وكمنطلق لنشاطاته نحو جبال أولاد عمور وأولاد نايل •

3 ـ كسب تأييد أكثر الشيوخ نفوذا وأقواهم تأثيرا على القبائل ذات الامكانيات الحربية والمالية مثل ابن شهرة شيخ قبائل الارباع التى يشتهر أهلها بالفروسية ، ومثل سى النعيمى وسى الزبير من قبيلة أولاد سيدى الشيخ القوية (40) •

4 ـ نشر أخبار حركته فى أنحاء كثيرة ، واظهارها فى شكل حركة جهاد واسعة ، يدعمها بايات تونس ويباركها الخلفاء العثمانيون (41) •

أما العمليات الحربية التى خاضها محمد بن عبد الله خلال سنة 1851 فاشهرها هجومه على ورقلة على رأس مائة فارس ، وتسعمائة من المشاة ، وجميعهم من قبائل

---

(39) Commandant Seroka : Le Sud Constantinois de 1830 à 1855, Revue-Africaine 1912, pp. 531-532.

تعرض أولاد مولات لغارتين احداهما فى أوت 1851 عند وادى ارطم حيث انتزع منهم ثمانمائة جمل ، وثانيهما فى سبتمبر من نفس السنة • وقد كانت تحركات هذه القبيلة مراقبة باستمرار من قبل أعوان محمد بن عبد الله فى الزيبان ومنطقة سوف ويبدو أن محمد بن عبد الله قد كسب تأييدهم عندما أقام بينهم مدة قبل توجهه الى ورقلة • أنظر :

Seroka, p. 531 Trumelet, p. 54

(40) Charles Féraud : Le Sahara de Constantine, pp. 490 et 493.

(41) Seroka, pp. 530, 532, 533.

المخادمة والشعامبة وبنى ثور وسعيد عتبة (42) والاربعاع وتماسين • وعند واحة تماسين تقابل السلطان عبد الرحمن الذى كان على رأس ستمائة فارس ومائة وخمسين من المشاة بجيش محمد بن عبد الله • وفى الجولة الاولى تغلب ابن جلاب والحق بجيش عدوه خسائر تقدر بثلاثين قتيلا وثمانية جرحى (43) ، لكنه اضطر الى التراجع فى الجولة الثانية بعد أن خسر ثمانين رجلا وخمسة وعشرين جوادا ، فضلا عن الخسائر المادية الاخرى (44) •

وقد نتج عن هذا الانتصار ان كسب محمد بن عبد الله تأييد سكان واحة تماسين بدوهم وحاضرهم ، وتأييد قبائل شعامبة متليلي أيضا (45) •

أما خلال سنة 1852 ، فقد دخل محمد بن عبد الله فى صراع مرير ضد باشاغا منطقة الجلفة الشريف بن الاحرش ، وخليفة مدينة الاغواط أحمد بن سالم ، وآغا جبل العمور ، الدين بن يحيى ، ففى نهاية سنة 1851 سار أحمد بن عبد الله على رأس قبائل سعيد عتبة وشعامبة بوروبة ، وشعامبة القليعة ضد أولاد سيدى سالم من قبائل أولاد نايل ، وجردها من خمسمائة جمل وأربعمائة رأس من البقر وأكثر من أربعة آلاف رأس من الغنم (46) • وفى شهر فيفرى سنة 1852 تحرك محمد بن عبد الله الى الشمال حيث التقى بجموع القوم التى يقودها الآغوات الثلاث وانتصر عليهم • وكنتيجة لذلك تم التحاق كثير من القبائل بصفوفه ، واستعداد الاخرى للثورة (47) • وفى شهر مارس سار محمد بن عبد الله نحو الشمال فى اتجاه الاغواط ، وعند عودته هاجم أولاد يعقوب الزرارة بوادى زرقون (48) • وفى شهر أكتوبر سنة 1852 وصل الى الاغواط ، ثم عاد اليها فى منتصف شهر نوفمبر برفقة ابن شهرة ، واعتصم

(42) نلاحظ كيف انقلبت قبيلة سعيد عتبة ضد بنى بابية والفرنسيين معا ، وأيدت حركة محمد بن عبد الله ، وذلك لارتباطها بقبائل الحرازلة والاربعاع المؤيدة للحركة •

(43) Seroka, p. 534.

(44) Trumelet, pp. 65-66.

(45) نفس المصدر •

(46) Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 491.

(47) نفس المصدر •

(48) Trumelet, p. 69.

بالمدينة ودافع عنها طويلا ضد الفرنسيين الذين افتكوها منه ودخلوها فى الرابع من شهر ديسمبر سنة 1852 • وقد ثار الفرنسيون لضحاياهم بالانتقام من السكان (49)•
وبالرغم من النتيجة السلبية التى أسفر عنها قتال مدينة الاغواط بالنسبة لمحمد ابن عبد الله فان حركته ظلت متواصلة ، بحيث قام على رأس قبائل الشعامبة والارباع والعرازلة فى جانفى سنة 1853 بالاستيلاء على مواشي قبائل السوامة ورحمان الخاضعة للقائد أحمد الحاج بن قانة • كما قام بهجمات رفقة سى حمزة وسى النعيمى على المنطقة المحصورة بين الاغواط والبيض ، والاستيلاء على مواشي أولاد سعيد بن سالم (50) ••

وهكذا كان محمد بن عبد الله يتحرك ضمن مجال صحراوى واسع ، ملحقا بالقبائل الموالية للفرنسيين أضرارا مادية وبشرية ، ومهددا للمراكز الفرنسية المتقدمة • وأمام هذا النجاح ، بدأ الوالى العام الجديد الجنرال راندون (1852 ـ 1858) يؤكد على ناحيتين فى سياسته الخاصة بالصحراء •

الاولى : ضرورة السيطرة على الصحراء فيما اذا أريد التحكم فى الشمال باعتبارها مصدرا للقلاقل والاضطرابات (51) •

والثانية : ربط علاقات تجارية بأقاليم افريقيا الغربية بشق طرق صحراوية تكون فى مستوى منافسة الطرق التى تصل منها السلع الانجليزية الى المنطقة وهى : طريق غينيا ، وسينيغامبيا ، والمغرب ، وليبيا ، ومصر (52) ، فضلا عن كسر احتكار المغرب وليبيا للتجارة مع السودان (53) •

أما الخطة المتبعة لتحقيق الناحية الاولى من سياسة راندون فتقوم على الضغط باستمرار على الثوار ، وحمل القبائل الموالية للفرنسيين على محاصرة القبائل الثائرة قبل أن تأخذ هذه الاخيرة زمام المبادرة • (54)

(49) لقد خسر الفرنسيون من بين من خسروا فى معركة الاغواط الجنرال بوسكران Bouscaren والرائد موران Morand •
(50) Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 493.
(51) Trumelet, p. 498.
(52) Le Gouvernement de l'Algérie, p. 82.
(53) N. Lacroix, A. Bernard : La pénétration saharienne, Alger 1900, p. 24.
(54) Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 127.

وطبقا لهذه الخطة تم احتلال مدينة الاغواط سنة 1852 ، وتقرر انشاء مركز جديد بالبيض فى سنة 1853 · كما اعتمد فى هذا المجال على نفوذ سى حمزة من قبائل أولاد سيدى الشيخ مقابل أموال وألقاب · وفى نوفمبر سنة 1853 شهدت جميع جهات الصحراء هجوما واسعا ضد محمد بن عبد الله وحركته (55) ، قامت بتنفيذه امدادات القوم بقيادة القياد والآغوات ، ولعب فيه الخليفة حمزة دورا رئيسيا ، بحيث كان على رأس ألف فارس وألف ومائتين من المشاة (56) ، أخضع بها قصر متليلي ومنطقة وادى ميزاب دخل بعدها الى منطقة ورقلة بعد انتصاره على محمد بن عبد الله في عرق بوسروال جنوب ورقلة ، وجاءت قبائل الشعامبة والمخادمة وسعيد عتبة مستسلمة مع أخويه سى حمزة وسى الزبير ، فى حين توجه محمد بن عبد الله رفقة ابن شهرة الى تونس (57) ·

وبذلك تنتهى سلطنة ورقلة على يد سى حمزة ، وتدخل تحت النفوذ الفرنسى بتاريخ 27 جانفى 1854 ، وهذا التاريخ متوافق مع دخول الكولونيل دوريان Durrien الى المنطقة لتسلمها من سى حمزة ايذانا بخضوعها للفرنسيين والزام السكان بدفع ضريبة سنوية تقدر بمبلغ ألفى فرنك رمزا لهذا الخضوع (58) ·

أما الناحية الثانية في سياسة واندون فقد قام بالتمهيد لها سى حمزة أيضا · وهى تأتى من ضمن النتائج المترتبة عن خضوع المنطقة للفرنسيين وهى باختصار كالتالى :

1 ـ بداية الاتصال ببلاد الطوارق ، ومحاولة جلب شيوخها الى الجزائر العاصمة · وقد تمكن بالفعل سى حمزة من استقدام جماعة منهم فى مطلع سنة 1856 ، كما وصلت منهم جماعة أخرى ومعها تجار من غات فى سنة 1857 (59) ، وقد كانت السلطة الفرنسية ترمى الى تكوين دلاة منهم لقوافلها المتجهة الى تومبوكتو · وقام ، فعلا ، بهذا الدور شيخ قبيلة ايفوغاس ، الشيخ عثمان حينما قاد قافلة الى غات ورجع بها الى ورقلة فى

(55) Notes sur l'histoire de Laghouat, R. A. 1895, p. 20.

(56) نفس المصدر ص 32 · كان سى حمزة فى البداية متعاطفا مع حركة محمد بن عبد الله لكنه اخلص للفرنسيين فيما بعد ·

(57) Ch. Féraud : Le Sahara de Constantine, p. 494.
(58) Trumelet, p. 476.
(59) N. Lacroix : Pénétration, p. 24 Gouvernement de l'Algérie, p. 83.

مارس سنة 1858 (60) ، وعلى هذا الاساس يعتبر عهد راندون فى الجزائر بداية عهد الاهتمام بالصحراء والشروع فى التعرف على أسرارها ، ومن ثمة اختراقها للوصول الى بـــلاد الســـودان ٠

2 ـ القضاء على سلطنة ورقلة بواسطة قبيلة أولاد سيدى الشيخ ، وقد أكد الدور الذى لعبته هذه القبيلة فى اضعاف ثورة محمد بن عبد الله مـدى نجـــاح السياسة الفرنسية القائمة على بث نعرات الفرقة بين القبائل الصحراوية وفك أواصر التضامن فيما بينها بالالقاب ، والمال ٠ هذه السياسة التى آمنت السلطنة الفرنسية بفعاليتها الى قيام ثورة أولاد سيدى الشيخ سنة 1864 ٠ وبموجب ذلك عين سى حمزة خليفة على الصحراء الغربية من ورقلة الى البيض ٠ وعين أخوه سى الزبير آغا على منطقة ورقلة ، وجعلت الالقاب متوارثة ضمن هذه الاسرة قبل ثورتها ٠ وهذا ما كان سببا فى فشل كل محاولة ثورية بالمنطقة ٠

3 ـ جعل منطقة ورقلة ، ومنطقة وادى ريغ التى سقطت نتيجة لسقوط ورقلة ، منطلقا للمهام الاستكشافية مثل مهمة اسماعيل بوضربة وغيرها ٠ اعتمادا على القبائل البدوية العارفة بطرق الصحراء ، بحيث جمعت معلومات مفيدة عن الطرق الرابطة بين ورقلـة وغـات ، وبين ورقلـة وغدامس وليبيا ، وتـم التعرف على جغرافية الهقـار والطاسيلى (61) ٠ وقد كانت هذه الكشوف الاولية أساسا للمهات الاخرى الرامية الى ربط الجزائر بالسودان ، والتى تمت بعد الاحتلال الفرنسى المباشر لورقلة سنة 1882 ٠ كما وجد الآباء البيض من جهتهم ، فى خضوع منطقة ورقلة فـرصة لارسال بعثـات تبشيرية الى أعماق الصحراء ، ومنها الى السودان لنشر المسيحية بين السكان السود ٠ وبذلك يتحقق الحلم الذى راود الكاردينال لافيجرى منذ زمن طويل (62) ٠

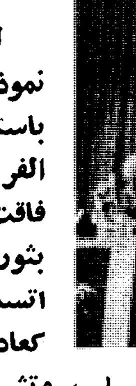
---

(60) N. Lacroix : Pénétration, p. 47.
(61) N. Lacroix : Pénétration, p. 58.

(62) نفـس المصدر ص 72 ـ 71 ٠

نماذج من مقاومة سكان الواحات

د. يحيى بوعزيز
المعهد التكنولوجي للتربية
وهران ـ الجزائر



لقد كانت مقاومة سكان واحة الزعاطشة عام 1849 ، نموذجا رائعا لكفاح سكان الواحات الذين رفضوا باستمرار الخضوع والاستسلام للاحتلال ، والسيطرة الفرنسية . ورغم ما عانوه خلالها من أهوال وأخطار فاقت حدود التصور ، الا أنهم لم يترددوا في القيام بثورات أخرى ، وانتفاضات ، وتمردات مسلحة ، اتسمت كلها بالعنف ، والشدة ، وواجهها الفرنسيون كعادتهم بكل ما يملكون من عدة وعتاد ، وما يقدرون عليه من ارهاب وتقتيل ، وتشريد للسكان ، وتخريب ، وحرق لمظاهر العمران والاقتصاد .

وقد سبق أن نشرنا بعض النماذج عن كفاح سكان الجنوب مثل : ثورة سكان واحة الزعاطشة ومنطقتها عام 1849 ، وكفاح ابن ناصر بن شهرة في أعوام 1851 ـ 1875 ، وللشريف محمد بن عبد الله في أعوام 1842 ـ 1895 ، والشريف بوشوشة في أعوام 1869 ـ 1874 (1) .

(1) راجع مجلة الثقافة أعداد : 31 ، 32 ، 33 ، 34 (الجزائر ـ فيفري ـ سبتمبر 1976).

وفي هذه الدراسة سنتعرض لنماذج أخرى تتمثل فى كفاح سى الصادق بمنطقة بسكرة وخنقة سيدى ناجى عام 1858 ـ 1859 · وكفاح محمد بن بوخنتاش عام 1860 بمنطقة المسيلة والحضنة ، وكفاح سكان واحة العمرى عام 1876 · وكفاح سكان الاوراس الغربية عام 1879 ·

أ ـ حركة سى الصادق فى الخنقة وبسكرة عامى 1858 ـ 1859 :

تعتبر الفترة الممتدة بين عامى 1858 ـ 1860 ، فترة الثورات ، والتمردات فى عمالة قسنطينة خاصة المناطق الجنوبية منها ، وذلك نتيجة للضغط الاستعمارى المتزايد على السكان فى مختلف المجالات : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، بل وحتى الادارية · لان هذه الفترة هى التى طبق فيها نابوليون الثالث نظام : « وزارة الجزائر والمستعمرات » الذى استحدثه ، وعين على رأسه ابن أخيه جيروم نابوليون · وعمل هذا النظام على اطلاق العنان للمستوطنين الاوروبيين ليفرضوا سيطرتهم الكاملة على شمال البلاد ، فى حين أطلق العنان للعسكريين فى جنوب البلاد · وتعرض السكان الجزائريون للمزيد من الضغط ، والارهاب ، والاهانة ، والاحتقار · وعزلوا تماما عن العمل السياسى ، كما انتزعت املاكهم العقارية والحيوانية ، وفق سياسة « الافقار » التى عملت الادارة الاستعمارية على تطبيقها فى هذه البلاد منذ حملة عام 1830 ، ولكنها اشتدت أكثر فى عقدى : الخمسينات ، والستينات ، على أساس أنها أنجع وسيلة فى نظرها ، لمقاومة الثورات ضدها والقضاء عليها ·

وبعد نجاح الفرنسيين فى احتلال جبال جرجرة عام 1857 (2) أخذوا يسعون للتوسع الى الجنوب ، ويعملون على تركيز وجودهم هناك ، بفضل أعوانهم الذين اصطفوهم وكافؤوهم بألقاب ومناصب متعددة · غير أن السكان لم يستكينوا لهذا الوضع ، ولم يقبلوه ، وصمموا على المقاومة بمختلف الوسائل ·

وكان من ضمن من برز للمقاومة ، سى الصادق (أو سى صدوق) بن الحاج الذى ينتمى الى أولاد سيدى منصور ، شيخ أولاد أيوب فى جبل أحمد حذو بسفوح الاوراس

(2) Le colonel N. ROBIN : Notes et documents concernant l'insurrection de 1856-1857 (Alger 1902) pp. 171 et 238-240.

قرب بسكرة • فقد كان منذ صغره يرفض أن يتصل بالفرنسيين ، أو يتعاون معهم • وعندما اندلعت ثورة سكان الزعاطشة عام 1849 ، شارك سى الصادق فى المقاومة على رأس حوالى سبعمائة فارس من قومه واتباعه ، الى جانب الشيخ عبد الحفيظ مقـــدم الطريقة الرحمانية بخنقة سيدى ناجى ، وعملا على مساندة الشيـــخ بوزيان وسكان الواحة بكل ما لديهما من الوسائل المادية والدعائية (3) •

وبعد هذه الحوادث بمدة ، عين سى الصادق مقدما للاخوان الرحمانيين بهذه المنطقة ، وأخذ يكثر من الاتباع والانصار ، وفى نفس الوقت عمل على ابراز مساوىء الاستعمار الفرنسى لديهم حتى ينفـرهم من حكم الفرنسيين • وبمرور الزمن انتشرت سمعته ، وقوى تأثيره على السكان بهذه المنطقة ، خاصة بعد أن اصبح ابنه سى ابراهيم يلعب دورا بارزا في الدعاية لصالح أفكاره ومبادئه ، ويظهر أن سى الصادق تــأثر كثيرا بأحداث الزعاطشة ومصير سكانها المؤلم •

وحتى شهر نوفمبر عام 1858 ، كانت حــركة سى الصادق تنتشر فى الخفـــاء ، وبواسطة الدعاة والوسطاء ، نظرا لعدة ظروف ، ولكن ابتداء من هذا التاريخ أخذت الامور تتطور ، وتتخذ شكل العنف والتمرد • فقد أخذ ابنه سى ابراهيم يكتب الرسائل باسم أبيه ، يدعو الناس الى الثورة ضد الفرنسيين المسيحيين ، وكان من ضمن هذه الرسائل ، رسالة خاصة ، فجرت الازمة ، وجهها سى ابراهيم مع المسمى (بو قريب) الى سكان قرية سيدى عقبة ، فى شهر نوفمبر • وعندما حاول هذا المبعوث أن يقرأها على الناس فى سوق القرية ، اعترضه بعض المعارضين وحاولوا أن يؤذوه • فالتجأ الى دار مقدم الاخوان الرحمانيين هناك ، واعتصم به ، وأدى هذا الحادث الى نشوب الحوادث الـدامية •

ومن الوسائل التى استعملها سى الصادق وابنه سى ابراهيم ، لجلـــب الناس الى حركتهمـــا ادعاؤهما بأن القوات الفرنسية لا تستطيع أن تحضر الى منطقة الثـورة ، لانها ما تزال منشغلة بالحرب ضد سكان القبائل بجبال جرجرة ، التى شنها عليهـــم

(3) يحيى بو عزيز : أضواء على انتفاضة سكان الزعاطشة والشيخ بوزيان بالزيبان عام 1849 ومجلة الثقافة ، عدد 32 (الجزائر ــ ابريل ــ ماى 1976) ص 39 ــ 50 •

الجنرال راندون منذ ربيع عام 1857 (4) • وهو ادعاء له ما يبرره لان القوات الفرنسية ، وإن نجحت فى اقتحام جبال جرجرة ، الا أنها ما تزال حتى ذلك الوقت تواجه صعوبات جمة بالمنطقة مصدرها اصرار السكان على المقاومة ، ووعورة المنطقة جغرافيا ، بحيث صعب على القوات الفرنسية أن تتنقل وتحارب بسهولة داخلها •

وعلى أى حال فان سى الصادق استطاع أن يوسع حركته فى منطقة الصحراء الشرقية ، ويقنع الناس على حمل السلاح لمقاومة الفرنسيين ، ولو أن أهدافه غير واضحة تماما ، والامكانيات المادية محدودة • وعندما أدرك الفرنسيون خطورة حركته هذه ، خافوا أن تصبح « زعاطشة ثانية » • فقرروا مواجهتها بسرعة ، وقساوة ، فى آن واحد • وتعاون ضدها كل من الجنرال قاستو : Gastu ، والجنرال ديفو : Desvaux ، فجندا قوات كبيرة اتجها بها الى بسكرة ابتداء من يوم 12 ديسمبر 1858 ، وأخذا يعملان على الاحاطة والمحاصرة للمقاومين • وخاض سى الصادق ورفاقه معركة كبيرة فى مشونش كانت فوق طاقتهم عدة وعددا ، فقرروا الانسحاب الى الجنوب (5) ، ولكن القوات الفرنسية والمتعاونين معها من القوم ، والقائد الموهوب ابن شنوف ، اعترضوا طريقهم فى حوض واد العرب ، واعتقلوا سى الصادق وثمانية وثمانين رجلا آخرين يوم 20 جانفى 1859 ، واقتادوهم الى معسكر الجنرال ديفو بالقصر قرب مكان المعركة • ثم انقلبوا على السكان العزل وأخذوا يقتلون بالجملة ، ويصادرون أملاكهم ويحرقون دورهم وخيامهم دون تمييز بين الثائر وغيره (6) ، وهى عادة الفرنسيين تجاه كل ثورات الجزائر •

تقييم حركة سى الصادق :

ان حركة سى الصادق هذه ، يمكن ان نستخلص منها أمرين أساسيين :

الاول : استعداد الناس للثورة ، والتمرد ، ضد الاحتلال الفرنسى ، فى كل وقت ، وظرف ، وعلى أية حال كانت ، دون النظر للعواقب ، أو دراسة نتائجها • وهذا

(4) Robin : pp. 171 et 238-240.
(5) Charles Feraud : Notes historiques sur la province de Constantine. Revue Africaine (Alger 1886) n° 176, pp. 103-107.
(6) Ch. A. Julien : Histoire de l'Algérie contemporaine (Paris 1964) pp. 124-125.

يؤكد رفض الجزائريين القاطع للاحتلال الفرنسي مهما تكن سياسته ، وأساليبه الادارية باعتباره حكما أجنبيا عن البلاد،عرقيا ، وعقائديا ٠

الثاني : خلو هذه الحركة من أى استعداد ، أو تخطيط للعمل ، بحيث لم يتخذ زعماؤها الاستعدادات الضرورية للحصول على النتائج المرجوة ، ولم يعبئوا القوى الوطنية المطلوبة ٠ وانما اكتفوا بعنصر القرابة ، والنسب ، والجوار ، والحماس الدينى وهذه وحدها لا تكفى لمقاومة عدو شرس ٠ ولا شك أن هناك صعوبات أخرى مادية اعترضتهم وحالت دون القيام بذلك ٠

ان حركة سى الصادق ، من هذه الناحية ، عبارة عن تمرد محلى صغير ، فجرته الاوضاع المحلية ، والمشاكل الشخصية ، لسى الصادق وأفراد قومه وعشيرته ، ولكنه وجد الاستجابة السريعة لدى السكان بالمنطقة ٠ ولم يقدر له النجاح للظروف والعوامل التى أشرنا اليها ٠ ومع ذلك سيكون لهذه الحركة تأثير فى الاحداث الثورية العنيفة التى سيتزعمها محمد بو خنتاش فى العام الموالى ٠ ولعل وثائق جديدة تكتشف فيما بعد ، وتبعث ، تزيد الكثير من الغموض حول هذه الحركة ، وتقدم لنا تفسيرا ، وتقييمات جديدة عنها ، وعن أسبابها ، ودوافعها ٠

ب ـ حركة بوخنتاش فى المسيلة والحضنة عام 1860 :

لقد كان لحركة سى الصادق فى منطقة بسكرة تأثير سيىء لدى سكان الواحات ، والهضاب العليا ، لان الفرنسيين واجهوها بقسوة بالغة ، ولم يتورعوا عن قتل واضطهاد حتى رجال الدين الذين ينظرون اليهم على انهم متعصبون ، ويعتبرونهم خطيرين على وجودهم بهذه البلاد ٠

ولم يمض عام على حركة سى الصادق ، حتى اندلعت حركة أخرى مسلحة فى غرب المنطقة التى كانت مسرحا لاحداثه ، وذلك فى المسيلة ، وجبال الحضنة شمال الهضاب العليا الشرقية ٠ وتزعم هذه الحركة محمد بن بوخنتاش الذى ينتمى الى أولاد سيدى رحاب ، أشراف أولاد دراج الذين يدعون بالبراكتية ٠

ولثورة بوخنتاش هذه ، جذور قديمة تعود الى نصف قرن تقريبا قبل ذلك ، حيث

أشيع بأن جد البراكتية سى محمد بن سيدى بركات ذكر لابنائه ، وتنبأ لهم ، بـــأن الفرنسيين سيغزون هذه البلاد فى وقت ما ، وأن تحريرها بعد ذلك سيكون على يـد أحد الاشراف الذى سيقدم اما من المشرق أو من المغرب . ولكن قدومه من الســـوس الاقصى بالمغرب الاقصى ، هو الارجح ، وسيكون خليفته ونائبه هنا من أولاد سيـدى رحـاب الذين لم يكونوا تابعين لايـــة طريقة دينية فى البـــلاد آنـــذاك حسب رأى فـــيرود (7) .

وعندما غزا الدوق دومال جبال أولاد سلطان عام 1844 خلال أحداث الحاج أحمد باى ، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن (8) . عين السيد أحمد بن يحيى من أولاد رحاب خليفة ونائبا للشيخ بركات ، فحاول أن يركز نفوذه ، ويقوى مركزه ، وبقى يواصل عمله فى وظيفته هذه حتى أصبح شيخا كبيرا (9) .

وحوالى 10 مارس 1860 ، ظهر سى محمد بن بوخنتاش من أولاد رحاب ، كزعيم ، وادعى للناس بأنه مبعوث من شريف بالسوس الاقصى ، على رواية فيرو ، فى مهمـــة لتحرير البلاد تجسيما لتلك الاقصوصة الشائعة منذ عدة سنوات طـويلة . فصدقه الناس ، وأخذوا يتجمعون حوله ، ويستمعون الى دعوته للجهاد ، فتأثروا بأفكاره التى كانت ملائمة لاتجاهاتهم الاستقلالية .

على أن مثل هذه الرواية لا يمكن الاطمئنان اليها ، لان بوخنتاش من سكان المنطقة ، فاين كان غائبا حتى ظهر من جديد ؟ وكيف استطاع ان يقنع الناس بحمل الســـلاح لمقاومة الفرنسيين ؟ ولماذا ربطت حركته بفكرة شريف السوس الاقصى ؟ ان مثل هذه الاساطير الشعبية ، على فرض صحة وجودها ، لا يمكن اتخاذها سببا وذريعة لنشوب حركة مسلحة تحريرية . والفرنسيون عندما يوردون مثل هذه الاقاصيص ، يهدفون

(7) Feraud : pp. 107-110.

(8) يحيى بوعزيز : من كفاح الجزائر فى القرن التاسع عشر أربعة أحداث فى ثلاث وثائق . المجلة التاريخية المغربية . عدد 2 (تونس — جويلية 1974) ص 94 — 102 .

(9) Feraud : pp. 108-109.
Nemes - Demarest

الى أغراض خاصة ، غير شريفة ، من ضمنها محاولة اثبات تعصب الجزائريين الديني ، والعــــرقي ٠

وإذن فالتبرير الوحيد لنشوب هذه الحركة ، هو رفض السكان القاطع والمستمر ، للسيطر الفرنسية الاجنبية ، وتأثرهم بحركة سي الصادق ، وما قبلها مــن الثورات المسلحـــــة ٠

لقد انتشرت بسرعة أخبار ، ودعاية محمد بن بوخنتاش ، الى جهات كثيرة من منطقة الحضنة ، وانضم اليه سي العربي باش عدل أولاد سحنون بمدينة بريكة ، وسي أحمد باي من أولاد منصور ، وهما اللذان سيلعبان دورا بارزا ورئيسيا في حركته لمالهما من التأثير القوي على سكان المنطقة ٠

وقد صدق الناس ، على رأي فيرو ، في بريكة وغيرها ، بصفة دعواه وتذكروا قصة عام 1844 التي أشاعها أحمد بن يحيي خليفة سي محمد بن سيدي بركات ، وتوافدوا على بوخنتاش من كل الجهات ، والكثير منهم أصحاب السمعة ، والنفوذ ، والتأثـير ، كالطلبة ، والقضاة ، والعلماء ، ورجال الدين ٠ مما جعل حركته تكون أخطر من حركة سي الصادق قبله في بسكرة ، وخنقة سيدي ناجي ، وأقوى وأكثر انتشارا ، وامتدادا ، وتـأثـــيرا ٠

فقد تجند لحركته ، أولاد منصور ، وأولاد زميرة ، بزعامة شيوخهم ، وزعمائهم ٠
وأنتشرت دعايته وامتدت الى كل المنطقة الجبلية الممتدة بـين سطيف والحضنة ٠ ورفض أولاد نجاع طاعة قائدهم الموالي للفرنسيين ، ووجه قاضيهم ابنيه الى معسكـر بوخنتاش ليحاربا الى جانبه ٠ ولعب كل من قائد أولاد سحنون سي العربي ، وســي أحمد باي ، دورا موجها في الثورة حتى أصبح بوخنتاش كالدمية في أيديهما ٠

لقد اهتم سي العربي بجمع المؤن والذخائر والاسلحة ، قبل ذلك ، كأنه كان يتوقع حدوث ثورة ، أو أنه كان يعد لها مع بوخنتاش مسبقا ٠ وعندما اندلعت ثورة ســي الصادق في سفوح الاوراس وبسكرة أواخر عام 1858 ، قال عنه سي العربي هذا ، بأنه « دجال » ، لان الشريف الحقيقي ، حسب زعمه ، وحسبما رواه فيرود ســـيأتي

لربما فى السنة القادمة ، وهو يشير الى عام 1860 على ما يظهر • وهذا يـــدل على ان حركة الاعداد لثورة بوخنتاش كانت تجرى حتى خلال حركة سى الصادق ، وعلى أن سى العربى كان من ضمن من كان يعد لها ، وأن توقيتها قد حدد بعام 1860 •

جمع بوخنتاش ، وسى العربى ، وأحمد بـــاى ، حوالى ثمانمائة رجل ، وعبؤوهم للقتال ، بما لديهم من امكانيات • وتمركزوا بقواتهم فى مكانين على ضفتى : واد ذراع البيضاء • وكان بوخنتاش على الضفة اليسرى • وتولى الشيخ بيبى من أولاد عمر ، ابلاغ الفرنسيين فى مدينة باتنة باستعدادات بوخنتاش ، ورفاقه هذه • كما استعـد المدعو سى الشريف ، القاضى القديم بمنطقة الحضنة ، لمقاومته ، وهو صاحب التأثير ، والسمعة الكبيرة ، وذو الصلات القوية مع السلطات الفرنسية بها •

وعندما اتصل الفرنسيون بهذه التحركات والاستعدادات ، أخـذوا يستعدون لمواجهته • فزحف الكولونيل بان Pien الى بريكة على رأس قوات كثيرة مـــن القناصة ، والصبايحية ، والرماة ، وخرج الجنرال نيم دومارست Nemes - Demarest من سطيف على رأس قوات أخرى عسكر بها فى مكان يدعى شجرة أولادا (الشجـــرة التحتانية) قريبا من مكان تجمع الثوار •

وعندما تكامل تجمع القوات الفرنسية ، التحـم الفريقان فى معـركة ضـارية ، وحاسمة ، صباح يوم 25 مارس 1860 • استعمل فيها حتى السلاح الابيض فى مكان دعاه أحد شعراء الملحون « خنق أم حمام » واصبحت المعركة تدعى بهذا الاسم لـدى السكان وعلى السنة الناس •

ورغم مقتل عدد لا بأس به من الفرنسيين وأعوانهم ، الا أن المعركة انتهت بتخريب معسكر بوخنتاش ، وتحطيم سكان أولاد عمر ، وأنصارهم • وأرغم أولاد سى عمر على تسليم بوخنتاش نفسه فى نفس اليوم ، وكذلك مساعده سى أحمد باى المنصورى ، الى الجنرال نيم دومارست • فى حين قتل سى العربى باش عدل أولاد سحنون (10) ، وطبق الفرنسيون كعادتهم أسلوب القتل ، والتشريد الجماعيين للسكان ، وتخـريب عمرانهم وأملاكهم ، وحقولهم ، مبالغة فى النكاية ، والاهانة ، والافقار •

(10) Feraud :Ibid. pp. 108-110 et le Sahara de Constantine. Notes et souvenirs (Alger 1887) pp. 420-443.

وقد سجل أحد شعراء الملحون المعاصرين للثورة ، وقائع معركة : «خنق أم حمام» وما صاحبها من القتل والتشريد لاولاد سى عمر ، والبراكتية ، وغيرهم ، وكيفية وصول قوات العدو ، والتحامها بالثوار • وذلك فى قصيدة طويلة نورد فيما يلى بعض نماذج منهـا :

يا راعى الملجوم رضى امهل لى ... وعودك من الابعد جاء عرفه يقطر
تعلمنى ما صار فى الخضنة ... فيما بين الناصرة وأولاد عمر
خبر جانى مع النجوع الحق لى ... وحرمة الابطال عامت على البر
« فتنة خنق أو حمام » قعدت محكية ... يا معتاه انهار فى جر أم عمر
ضاعوا لى سادات طلبة سنية ... ذرية رحاب شريف من النبى الطاهر
هم راحوا وفى فؤادى جاءت كية ... وفرسان المحمول ستين بعد ماية قادر
باعوا الحياة من دار الدنيا ... قصدوا الجنة للمقام الاخضر
لهم الطلبة لكل تعطيهم الجزية ... وأهل العلم كبير أغمق من البحر
سيادى علماء خليفة الانبياء ... ذرية أبو سيف على وحيدر
خرجوا للجهاد أولاد الرحابية ... وعقلوا رجليهم وراح رخس العمر
من نطحة الاشراف ناضت مسبية ... وكسر وهاد ودات من فوق الوعر
عاد يزغرت عنهم بنات المزيانة ... وريش القرطاس مواسى نادر
ركبوا الاشراف أولاد الرحابية ... وكالخناش فى الارض يغبر
محمد درغام أسد البراكتية ... واللبة سوداء تصاحبه وتكركر
جاونا زوج محال من العساكرية ... ومعهم الاعراش فزعت عن الآخر
فتنة « خنق أو حمام » قعدت محكية ... يا معتاه انهار فى جرام عمر
وقعت الصبحية جاء وراء الفجرية ... كيف الوديان السيل ضرب العساكر
جاء سرسور كيف نار مقدية ... زدموا ونطحوا صغار أولاد عمر

بـــدا يضرب كالثلـــج السفـــايـــة	وغـير جبـــروش طـــاح مـــزنة مغـــزر
تـلاقـــوا الرجـــال أحمـــر عـــرايـــة	وفى النطحة تعطيه فى لـــوح الصـــدر
كيف نـــاض العيـــاط ركبـــت مشليـــة	ورعيان الفراسات سرجوا على ضمـــر
أهـــل السيـــوف مهنـــدة مغـــاربية	واللفعت اثنـين يجـــوا عـــلى الايسار
على بيـــت أولاد عمـــر قـــديت الغنـــاية	وخـــزنة البـــارود مـــا زال حاضر (11)

تلك هى حركة محمد بوخنتاش ، وهى لا تختلف عن حركة سى الصادق فى كونها عبارة عن تمرد محلى جهوى ، ضعيف الاستعداد ، قليل التعبئة ، اعتمد على الحماس الـــدينى أكثر من غيره ، ولكن الناس لم يترددوا عن حمل السلاح لان الاستعمار الفرنسى بالغ فى اذلال الجزائريين ، وافقارهم ، واهانتهم ، وعزلهم عن كل المجالات ٠

جـ ـ ثورة سكان واحة العمرى عام 1876 :

أسباب اندلاع هذه الحركة :

تقع واحة العمرى على بعد 48 كلم من جنوب غرب مدينة بسكرة ، على مجرى مائى ينزل من جبل أكسوم ، وينصب فى واد جدى ٠ واندلعت فيها الثورة فى ربيع عام 1876 لعدة أسباب أهمها : السلوك السيىء للسياسة الفرنسية تجـــاه السكان فى المنطقـــة ٠

فبعد القضاء على حركة بوشوشة ، واعدامه يوم 31 مارس 1874 ، سعت سلطات الاحتلال من أجل اعادة تنظيم ادارة المناطق الصحراوية ، واستعانت بآغا ورقلـــة والاغواط ، ابن ادريس ، وحاولت أن تحقق نوعا من التوازن بين العائلات الصحراوية الكبيرة مع اعطاء نوع من الحرية الذاتية للمنطقة ، كما اقترح ذلك الحاكم العام شانزى ٠

غير ان هذه السياسة لم تنجح ، لان المباشرين للتطبيق من ضباط المكاتب العربية ، كانوا يمارسون سياسة الدس ، والايقاع ، بين العائلات الكبيرة ، خاصة بين عائلـــة ابن قانة ، وعائلة بوعكاز التى كان على باى فى هذه الفترة هو زعيمها وممثلها ٠

(11) Feraud : pp. 110-118.

(خوجة) للقائد بولخراس بن قانة لعدة سنوات · فى حين كان أخوه الاكبر مسعود قاضيا بمدينة بسكرة الى أن توفى مسموما على ما قيل ·

ومنذ عام 1875 أصبح محمد يحيى يظهر نوعا من الشك ، والجفاء ، نحو رئيسه بولخراس ، ونحو عائلة ابن قانة كلها ، التى يشاركه معظم السكان فى كرهها ، نظرا لتجبرها وعملها تحت سلطة الفرنسيين · غير أن كره محمد يحيى لها ، نبع أساسا من حادث خاص به وبعائلته · فقد مات أخوه الاكبر مسعود فىمدينة بسكرة مسموما فى منزل الوكيل بلقاسم الحمار وكان قاضيا بها ، وشاع بأن القائد محمد الصغير ابن قانة هو الذى أوعز بذلك ، فتألم اخوه محمد يحيى من هذا العمل ، وكظم غيظه مدة · ولكن ذلك الامر بقى موجدة فى نفسه · وصادف أن كتب فى هذه الفترة سكان بسكرة ومنطقتها ، رسالة الى الحاكم العام الفرنسى بالجزائر العاصمة خلال شهر جوان 1875 ، اشتكوا فيها من ظلم عائلة بن قانة ، وتجبرها ضدهم ، ومن ظلم الضابط كروزى crouzet الذى كان يطبق نفس السياسة ضدهم ، فاتهم بولخراس ابن قانة ، كاتبه محمد يحيى ، بأنه هو الذى كتب هذه الرسالة لهم ، وأوقفه فى شلغوم العيد (شاطودان دوروما‌ل سابقا) ، واقتيد الى بسكرة حيث حقق معه الكابيتان لوفروا le froid واكتشف أنه لم يكن هو الكاتب لها · ومع ذلك فسدت العلاقة بين بولخراس وكاتبه ، وطلب الاول من الثانى أن يستقيل من منصبه كشيخ لاولاد ادريس ، ولكنه رفض وأصر على مواصلة زعامته لهم (15) ، وهذا يكشف عن شدة التوتر بينهما ·

تسبب هذا الحادث فى اندلاع الثورة :

لقد كان هذا الحادث سببا فى حدوث الجفاء ، وتزايده بين محمد يحيى ، وأولاد ابن قانة · وعندما دعى محمد يحيى الى بسكرة بعد ان غادرها رفض ذلك ، مرة بدعوى خوفه من القتل كما حصل لاخيه القاضى ، ومرة بدعوى رفض أولاد بوزيد الموافقة على ذلك · ومما يرجح مقتل القاضى مسعودا مسموما ، هو أن السلطات الفرنسية عزلت الضابط كروزى ، وعوضته بالحاكم الاعلى جيليز Gellez ، الذى قرر أن يعتقل

(15) نفس المصدر ، ص 123 ـ 124 ·

ولا شك أن الخصومة التقليدية بين العائلتين كان لها تأثير على سياسة واتجاهات القبائل الصحراوية الاخرى ، انعكس على تصرفاتها ، وحاول اسماعيل أوربان أن يؤيد هذا عندما قال بأن أولاد بوزيد الذين ثاروا فى هذه الفترة ، كانوا قد ثاروا ضـــد الامير عبد القادر وحاربوه وحاربوا خلفاءه • فكيف يثورون اليـوم ضـــد السلطات الفرنسية لولا تناحر هذه العائلات الاوروستقراطية فيما بينها على السلطة (12) •

وعلى أى حال فان سكان الصحراء كانوا يكنون كرها للاحتلال الفرنسى ، ويرغبون فى التخلص منه ، لانهم عانوا كثيرا من سياسة التشريد ، والمطاردة ، المفروضة عليهم ، خاصة اثناء حركة بوشوشة ، وبن ناصر بن شهرة ، والشريف محمد بن عبد اللـه ، وبو مزراق ورفاقه المقرانيين • كما عانوا من الصراعات الشديدة بين عائلة بن قانة ، وعائلة على باى ، ومن قسوة الضباط الفرنسيين ضدهم فى المعاملـــة ، واستخلاص الضرائب ، وأعمال السخرة • وتدل الكتابات التى نشرها أحد أفراد عائلة بن قانة فى الصحافة الباريسية ، حول اتهام على باى فى التسبب فى بعض المشاكل التى أدت الى نشوب هذه الثورة ، على أن هذه الخصومات لها دور فى هذه الحركة •

ولم تنس الصحافة الباريسية نفسها أن تعرض بالضباط الفرنسيين ، وتتهمهم بالاثارة لمثل هذه الحوادث خاصة حركة واحة العمرى (13) •

وقد عدد مارقون أسباب ثورة سكان واحة العمرى ، وذكر أنها تنحصر فى المشاكل التى تثيرها عائلة بن قانة ، ودعاية الشيخ الدينى المتعصب أحمد بن عايش ضـــد الفرنسيين ، وضعف قائد الناحية بو لخراس بن قانة ، وعجزه عن مواجهة حـــوادث أولاد بوزيد عندما ظهرت فى البداية (14) •

شخصية زعيم هذه الحـركة :

تزعم هذه الحركة الشيخ محمد يحيى بن محمد ، وكان عمره آنذاك خمسة وثلاثين عاما • وهو زعيم ، وشيخ لاولاد ادريس الذين هم فرع من أولاد بوزيد ، وكان كاتبا

(12) Ch. R. Ageron : Les Algériens musulmans et la France 1871-1919 (Paris 1958) pp. 56-57.

(13) نفس المصدر ، ص 57 — 58 •

(14) Le Commandant De Margon : Insurrections dans la province de Constantine de 1870 à 1880 (Paris 1883), pp. 121-122.

محمد يحيى استجابة لرغبة بولحراس ، ويحتجزه بواحة زريبة الواد ، فاصدر أمـــرا بذلك امضى يوم 29 نوفمبر 1875 ، ولكن غياب القواد والشيوخ بالجزائر العاصمة آنذاك فى عمل غير معروف لدينا حاليا ، عطل تطبيق هذا القرار • وعندما حضر الى بسكـرة محمد بن بو عزيز بن قانة ابن القائد محمد الصغير ، وشيخ واحة سيدى عقبة ، تحدث مع جيليز فى أمر محمد يحيى وحصل الاتفاق بينهما على تجميد أمـــر اعتقاله الى أن يعود المسؤول عنه مباشرة ، بولحراس بن قانة من العاصمة (16) •

وعندما عاد بولحراس استدعى كاتبه محمد يحيى واستضافه فى بسكرة ، وتحادث معه طويلا ، ثم انصرف لحاله ، وظن جيليز بأن الامر قد سوى بين الرجلين نتيجة لهذا اللقاء والمحادثة بينهما • ولكن محمد يحيى بمجرد ان عاد الى واحته بالعمرى قرر أن يقوم بحركته ويجهر بها خاصة بعد أن اشتد تذمر بنى بوزيد ، وكثرت الانقسامات فيما بينهم حول كيفية مواجهة الاوضاع • أما ماذا جرى بين الرجلين خلال لقائهما ببسكرة ؟ ولماذا انقسم بنو بوزيد على أنفسهم فى هذه الفترة فـذلك ما لا نعرفه حاليا ولـم يتحدث عنه مارقون • وقد تجيبنا فى المستقبل الوثائق التى ستكتشف •

على أن بنى بوزيد سرعان ما جمعوا شمل صفوفهم ، واتفقوا على ضرورة القيـــام بالثورة والتمرد ضد السلطات الفرنسية واعوانها البنقانيين • وقدموا عليهم زعيمهم محمد يحيى ، واستمالوا اليهم الشيخ الدينى بالواحة أحمـد بن عايش الذى نعتـه مارقون « بالدرويش » كعادة كل الكتاب الفرنسيين ، فى نعت رجال المقاومة الوطنية الجزائرية ، بالدراويش ، والمتعصبين ، والعنصريين وقد أصبح أحمد بن عايش داعية كبيرا لحركة محمد يحيى، وأولاد بوزيد فى واحة العمرى ومنطقتها خلال هذه الحركة (17).

أسلوب الفرنسيين فى مواجهة هذه الحركة :

وبسبب تازم المـوقف على هذا الشـــكل ، طلب الجنـــــرال كارتـيرى تريكور : Carteret-Trecourt من الحاكم الاعلى جيليز ، أن يهتم بما يجرى فى جنـوب

(16) نفس المصدر ، ص 124 ــ 126 •
(17) نفس المصدر ، ص 128 •

بسكرة • فأرسل الاخير الى بنى بوزيد يخبرهم بأن قائد أولاد زكرى : أحمد بـاى ، يعرف كل دسائس محمد يحيى وأحمد بن عايش حتى يخوفهم ويرهبهم كما طلب من بولحراس أن يوافيه بكل ما يجرى لدى بنى بوزيد ، ومحمد يحيى ، فأجابه برسالة ، فيها شيء من الغرابة ، لانه أكد فيها بأن بنى بوزيد مخلصون للسلطة منذ قدوم عائلة بنى قانة الى الصحراء • وأن اجتماعاتهم التى نضموها قبل ذلك الوقت انما كانت من اجل طلب الغيث من الله حسب عادة المسلمين بعد أن اشتد القحط والجفاف فى المنطقة وليس لغرض تنظيم التمرد ، أو العصيان •

ورغم ان جيليز ، شاطر بولحراس فى أفكاره وأخباره ، خاصة بعد أن استجاب بنى بوزيد لطلب الجنرال كارتيرى ، وحضر فرسانهم بجمالهم الى مدينة بسكرة فى نفس الموعد المحدد لهم ، ليصاحبوه الى واد غير ، الا أن جيليز لم يخف عن الجنرال ، كارتيرى، والكابيتان لوفروا ما حكاه له أحمد باى قائد أولاد زكرى ، عن تـذمر أولاد بوزيد ، والتزامهم القيام بالثورة (18) ، وهذا يدل على مدى تدهور الاوضاع •

بداية حركة التمرد وخطط زعيم الثورة محمد يحيى :

والحقيقة أن بنى بوزيد كانوا عازمين على الثورة حتى عندما رافقوا الجنرال الى وادغير • فقد خرجوا معه من بسكرة صباح يوم 8 مارس ، فى اتجاه تقرت وعندما وصلوا الى واحة مراير يوم 11 انفصلوا عنه ، وحاولوا أن يغيروا عليه وعلى قواتـه فى وادغير يوم 12 مارس فاضطر أن يعود بسرعة الى الوراء •

وفى يوم 22 مارس اتصل جيليز فى بئر كليبية ، برسالة من لوفروا أخبـره فيها بثورة بنى بوزيد ، فعاد الى بسكرة ووصلها يوم 25 مارس • وكان بولحراس قد كاتب لوفروا منذ يوم 19 مارس أخبره فيها بثورة هؤلاء • ولكن لوفروا حمله مسؤولية ذلك واتهمه بالعجز عن معرفة ما يجرى فى منطقة عمله ، وابلغ ذلك الى الجنرال كما ذكرنا (19) • فمن جهة استفاد من الاخبار التى وصلته ، ومن جهة وبخ من ابلغها اليه •

---

(18) نفس المصدر ، ص 129 ـ 131 •
(19) نفس المصدر ، ص 131 ـ 132 •

وعندما كشف محمد يحيى عن مشاريعه مع رفيقه وداعيته الكبير أحمد بن عايش ، استمال اليه عددا من الاشخاص ذوى نفوذ فى المنطقة وهم : شلاى بن يداح شيــــخ الجبابرة ، ومبروك بريكة شيخ أولاد داود ، ومحمد بلحاج بن سالم ، وعلى بن حوريس شيخ زاوية متليلى • وظن أنه بفضل هؤلاء سيستميل اليه كل سكان واحات الزيبان ، ويحطم بهم نفوذ وسيطرة أولاد بن قانة ، والفرنسيين معا •

فشـــل محاولة لوفــروا :

وقد ظن الضابط لوفروا أنه يستطيع أن يقضى على الحركة بأسلوب الدس والايقاع بين محمد يحيى ورفاقه وأنصاره • فكاتبه برسالة طلب منــه أن يقــدم الى بسكــرة للاتصال به ومحادثته ، فرد عليه بأنه مشغول ولا يستطيع تلبية طلبه ، كما أن بنى بوزيد يرفضون ذلك عليه لخوفهم من أن يعتقل • وعندئذ طلب لوفروا من بولحراس أن يذهب الى واحة العمرى لمقابلة كاتبه القديم فرفض بدعوى الخوف من ان يغتاله بنــو بوزيد الذين يكنون حقدا لكل أفراد عائلة بن قانة ، وله خاصة •

وأمام كل هذه العراقيل والصعوبات قرر لوفروا أن يقوم هو بنفسه بهذه المهمة ويجرب حظه ، فاتجه يوم 30 مارس الى واحة طولقة عن طريق ليشانة ، بصحبة ثلاثة فرسان فقط حتى لا يثير خوف وشكوك الناس حول مهمته ، على ان يوافيه هناك محمد يحيى ليتفاوض معه • وعندما وصل الى بوشقرون دعاه شيخها لشرب القهوة ، فلبى الدعوة غير أن أتباع الشيخ رفضوا أن يخدموه واختفوا مما يدل على انتشار التذمر بين كل السكان بالمنطقة واستعدادهم للثورة عند حصول أى حادث أو سبب •

وعندما وصل الى طولقة استقبل ببرودة ، واتجه الى زاوية سى على بن عثمان الذى أخبره بأن الامور ليست خطيرة ، ومن هناك ارسل لوفروا رسالة الى محمد يحيى ، وفعل مثله سى على بن عثمان ، يرجوانه القدوم اليهما • ولكن الرسول عاد ليخبرهما بأن محمد يحيى وبنى بوزيد فى حالة ثورة (20) •

وفى نفس الوقت الذى كان فيه لوفروا داخل واحة طولقة • أخذ على بن عــايش

(20) نفس المصدر ، ص 132 ـ 136 •

ورجاله يغزون ويهاجمون المنازل والخيام الموجودة بضواحيها ، وتمركز ثوار بنى بوزيد فى السهل الممتد بين طولقة وخرفار ، واضطر التجار أن يغلقوا متاجرهم خوفا من هذه الاخطار • وشعر لوفروا نفسه بالخطر ، فاعتصم بزاوية سى على بن عثمان ، ووجـــه رسولا سريا الى بسكرة يطلب نجدة سريعة ، كما ارسل رسولا آخر الى القائد الحـاج ابن قانة الذى كان موجودا آنذاك فى أورلال : على بعد 34 كلم من بسكرة يطلب منـه أن ينجده كذلك فحضر اليه فى الحال على رأس حوالى 15 فارسا ، وحضر بعده بيـــوم واحد ، محمد الصغير بن قانة نفسه صباح 31 مارس على رأس ثلاثين فارسا • فأخذوه معهم الى بسكرة وأنقذوه من المأزق الذى وقع فيه ، واتجه الجنرال كارتيرى فى الحال الى بسكرة لمواجهة الوضع الذى أصبح خطيرا حقا •

المعركة الحاسمة ومقتل زعيم الثورة :

اهتم محمد يحيى ورفيقه أحمد بن عايش بمصير حركتهما • فأخذا يحثان الناس على حمل السلاح والصمود أمام العدو ، وضع أحمد بن عايش علما أخضر ، وأدعـــى للناس أن محمد يحيى قد كلفه باعلان الجهاد ، وحثهم على تدعيم الثورة لتخليص البلاد من الاعداء الفرنسيين • وكانت جماهير بنى بوزيد أول من استجاب لهذه الحـــركة ، وتلاهم بعد ذلك سكان القبائل المجاورة (21) •

وفى صباح يوم 11 ابـريل على الساعة السابعة التحم الثوار الذين كان عددهم يزيد على حوالى 2100 رجلا ، مع قوات كارتيرى حول واحة العمرى ، ونشبت معـــركة كبيرة قتل خلالها زعيم الثورة محمد يحيى وحوالى خمسون آخرون ، وجـــرح أحمد ابن عايش ، كما جرح عدد من القوات الفرنسية واعوانها بينهم قـائد بسكرة محمد الصغير بن قـــانة •

ورغم مقتل زعيم الثورة ، وجرح داعيته بن عايش • فان أغلبية الثوار صممـــوا على مواصلة القتال فاعتصموا داخل الواحة وكان عددهم حوالى خمسة آلاف مقاتل ، وعقد زعماؤهم مجلسا حربيا ضم حوالى عشرين شخصا اتفقوا خلاله على وضع خطـــة

(21) نفس المصدر ، ص 136 ــ 140 •

للدفاع والمقاومة ، وأنشأوا حرسا من حوالى أربعين شخصا لتنفيذ ما اتفقوا عليه ، وأخذ أحمد بن عايش يكتب الرسائل الى السكان المجاورين يحثهم على الانضمام لحركتهم وتأييدها وتقديم العون المادى والمعنوى لها • كما هنأ فى رسائله بعض الذين اشتركوا فى المعارك الاولى •

وازاء هذا الصمود ، وهذه الاستعدادات التى ابداها الثوار داخل الواحة ، رغم ما حصل لهم خلال المعركة حولها ، فان كارتيرى تخوف من الهجوم على الواحة ، فتمركز بجانبها على مكان استراتيجى يتيح له مراقبة ما يجرى داخلها ، والمسالك الموصلة اليها • وطلب نجدات من قسنطينة وبوسعادة • وحاول الثوار يوم 14 أبريل ان يهاجموه ولكن لم يحصلوا على طائل نظرا لتحصنه ، وامتلاكه لاسلحة متفوقة تصيب أهدافها من بعيد •

وفى يوم 22 ابريل وصلت نجدات قسنطينة بقيادة الجنرال عبد الله ، والكولونيل ناروى : Narrué ، وفى يوم 24 وصلت نجدة بوسعادة بقيادة الجنرال روكبرون Roquebrune ، وعسكرت كل واحدة منهما فى مكان خاص حول الواحة وأحاطتا بها مع قوات كارتيرى ، وكونت مثلثا عليها من الشمال ، والشرق ، والغرب ، بينما تمركز القوم فى جنوبها • (22)

ومن سوء حظ الثوار انهم اختلفوا فيما بينهم ، وادى ذلك الى نشوب قتال وحرب أهلية داخل الواحة ، بسبب تعارض مواقفهم ، فقتل الكثير منهم • ولكن أحمد بن عايش أصر على القتال وأعلن لاصحابه أنه على استعداد لان يموت ألف مرة ، ولكنه لن يسلم علم الثورة الى الاعداء الفرنسيين • غير أن القوات الفرنسية استغلت هذه الظروف والخلافات ، وهاجمت الواحة يوم 27 ابريل وفرضت الحصار عليها طوال ذلك اليوم والذى تلاه ، واكثرت من القنبلة لدورها وجدرانها ، فزاد ذلك من اشتداد الخلاف بين الثوار داخلها ، واضطروا يوم 29 ابريل أن يستسلموا نظرا لتفوق العدو ضدهم فى العدة والعدد (23) •

(22) نفس المصدر ، ص 140 ـ 143 •
(23) نفس المصدر ، ص 143 ـ 145 •

تخريب الواحة كلها على غرار واحة الزعاطشة :

وبعد استسلاح الثوار قام كارتيرى ورفاقه بتخريب الواحة كلها على غرار ما فعله هيربيون بواحة الزعاطشة عام 1849 (24) ، وصادر أملاك السكان ونخيلهم ، وباعتها السلطات الفرنسية الى أعوانها ، وحتى الى بعض الاوروبيين (25) الذين سيبيعونها طبعا الى أعوانهم فيما بعد ·

وقبضت السلطات الفرنسية على 91 شخصا من أولاد بوزيد قدمتهم الى المحاكمة أمام مجلس عسكرى ، بينهم أحمد بن عايش الذى حكم عليه بالاعدام ثم عوض بالنفى · وصادرت السلطات كل أملاكهم ، وفرضت غرامة 192،200 فرنكا على المحكوم عليهم ، وصادرت 492 بندقية ، وأرغمت باقى بنى بوزيد على الهجرة من بلادهم الى مناطـــق أخرى من التل الوهرانى ، فتعرضت عائلاتهم الى مجاعات فضيعة ، ونكبات وأهوال خلال هذا النفى والهجرة الاجبارية ·

كما فرضت السلطات غرامات أخرى على سكان منطقة الزيبان بلغت 44.200 فرنكا وأرغمت الكثير منهم على القيام بأعمال السخرة فى مد الطريق بين باتنـة وبسكرة · ولم يصدر العفو على أولاد بوزيد الا عام 1890 ، فسمح لبعض العائلات أن تعـــود للاستقرار بمنطقة الزاب الغربى (26) لتمارس حياة الرعى ، والخماسة ، لدى الغير ، بعد أن فقدت كل شىء ·

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة

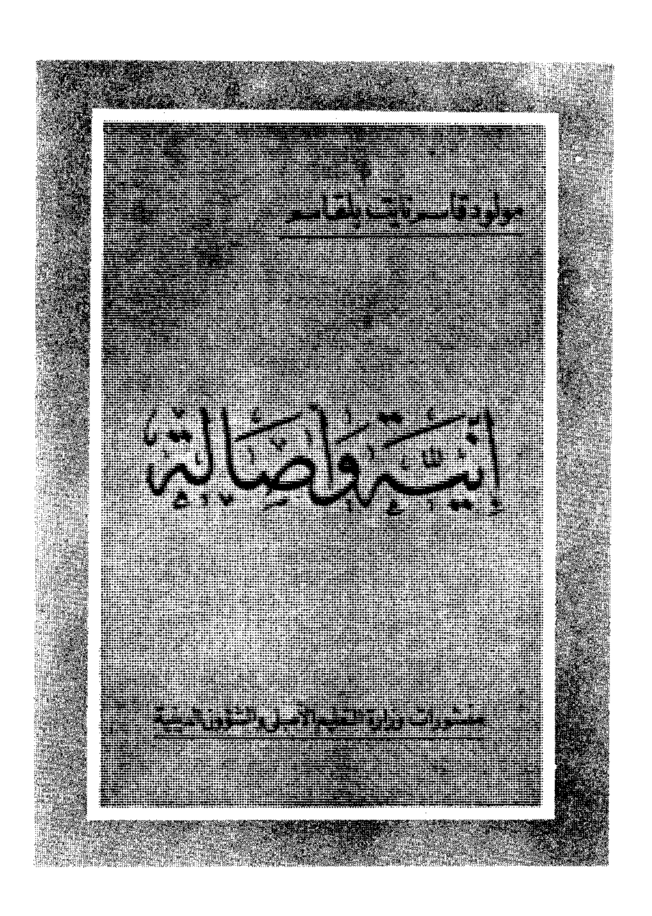
صـدر:

في خمســة أجزاء

منشـــــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة

صـــدر :



منشـــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

صـدر كتـــاب

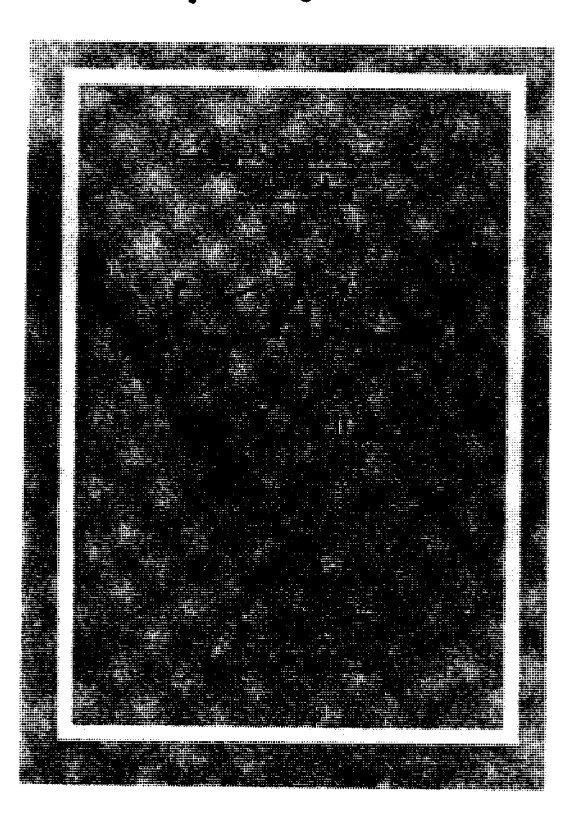


في 5 مجلدات (بالعربية)

منشـــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

صـدر كتـــاب



منشـــورات

وزارة التعليم الاصـلى والشؤون الدينيـة

صـدر أخيرا كتاب :

الملتقى الثامن للفكر الاسلامى

بالعربية فى ثـلاثة أجزاء

ويشمـل سائـر المحاضرات ، والتعقيبـات ، والمناقشـات

كما صدر كتاب :

الملتقى السادس للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى خمسة أجزاء

ويشمـل أيضا سائر المحاضرات ، والتعقيبات ، والمناقشـات



ورقلة
عروس مدائن الجنوب الجزائرى

د. عبد القادر زبادية
معهد العلوم الاجتماعية ـ دائرة التاريخ
جامعة الجزائر

لعبت الصحراء الافريقية الكبرى فى التاريخ الحضارى لشعوب افريقيا الغربية جنوب الصحراء ما لم يلعبه المحيط الاطلسى من الادوار الحضارية الهامة ؛ فقد كانت مسارب الصحراء الى غربى أفريقيا بمثابة مسالك تعبر من خلالها حضارة البحر الابيض المتوسط والحضارة الاسلامية ، وهذا حتى نهاية القرن التاسع عشر حينما بدأ الاحتلال الاوروبى فى تلك المنطقة . (1)

لقد اتصلت قبائل السودان الغربى منذ القديم مع سكان الشمال الافريقى ، ولم تكن الصحراء لتشكل فى يوم من الايام عائقا يحول دون ذلك الاتصال الحضارى المثمر الذى استفادت منه شعوب هاتين المنطقتين الواسعتين من أفريقيا . وكانت الاسس الاولى المباشرة لهذا الاتصال هى التجارة وتبادل المنتوجات والبضائع ، وعن طريق ذلك انتقلت المؤثرات الحضارية أو التحضرية بشكل واسع . (2)

(1) قارن Cissoco : Histoire de l'Afrique Occidentale, Paris, 1968.

(2) راجع : جمال زكريا قاسم ـ الاصول التاريخية للملاقات العربية الافريقية ـ القاهرة ، 1975 .

وباستثناء تلك الحملة العسكرية الطائشة التى أوفدها المنصور النهبى سلطان المغرب فى القرن السادس عشر الى السودان الغربى بقصد التوسع والاستغلال ، فقد ظل التبادل التجارى والثقافى يشكلان العنصر الاساسى والوحيد للتبادل الحضارى المثمر بين شمال الصحراء وجنوبها • (3) وكنتيجة لهذا التبادل الطويل الامد رأت المدن الصحراوية الواقعة على طريق القوافل التجارية ازدهارا كبيرا ، وأصبحت بمثابة عواصم ثقافية وسياسية هامة ، تتمتع بعلاقات خاصة مع ممالك السودان الغربى وتلعب دور الوسيط بينها وبين مدن الشمال • (4)

وبالنظر لاهمية هذا التبادل وخاصة بالنسبة لممالك السودان الغربى فقد حرص أمراء الجنوب باستمرار على توفير الجو الامنى والاحترام المناسب لرجالات القوافل الشمالية ، وهذا مما دفع الحسن الوزانى المعروف بـ (ليون الافريقى) لدى الغربيين، الى الاشادة بطبيعة السودانيين وتقديرهم للغرباء ، وذلك بالرغم من أنه فى موضع آخر من مذكراته يذهب الى وصف سكان تلك المناطق بالغباوة والطيش وقلة الذوق كما بدوا له • (5)

تكاد تجمع آراء الباحثين على أن الطرق أو المسالك (على حد تعبير البكرى ، القرن 11 م) الكبرى التى كانت تتبعها القوافل الذاهبة والعائدة الى ومن السودان الغربى هى :

1) من سجلماسة ؛ ينطلق طريق الى والاتا ومنها الى تمبكتو وجنى وغاو •

2) تلمسان ؛ يمر هذا الطريق بغرداية وتوات وينتهى الى تمبكتو •

3) تكرت وورقلة ؛ ينطلق طريق آخر الى غاو مباشرة ، وهذا المسلك يتصل شمالا

---

(3) لقد كان مجلس العلماء من حول الملك ضد هذه الحملة ، ولكن المنصور أصر على رأيه معللا ذلك بأسباب داعية وأخرى مساعدة ، وقد فشلت الحملة فى جميع اهدافها ماعدا الجانب الوحشى منها ان صح هذا التعبير ، راجع اليفرانى ، نزهة الحادى ، فاس ، د•ت ، ص 76 •

(4) راجع بصورة خاصة : E. W. Bovill : The golden trade, Oxford, 1970

(5) راجع بصورة خاصة • Léon l'Africain, Paris 1896, V. 1, p. 53.

ببضائع الموانيء الجزائرية الهامة مثل جزائر بنى مزغنة (الجزائر العاصمة) وبجاية وسكيكدة ومستغانم وغيرها ·

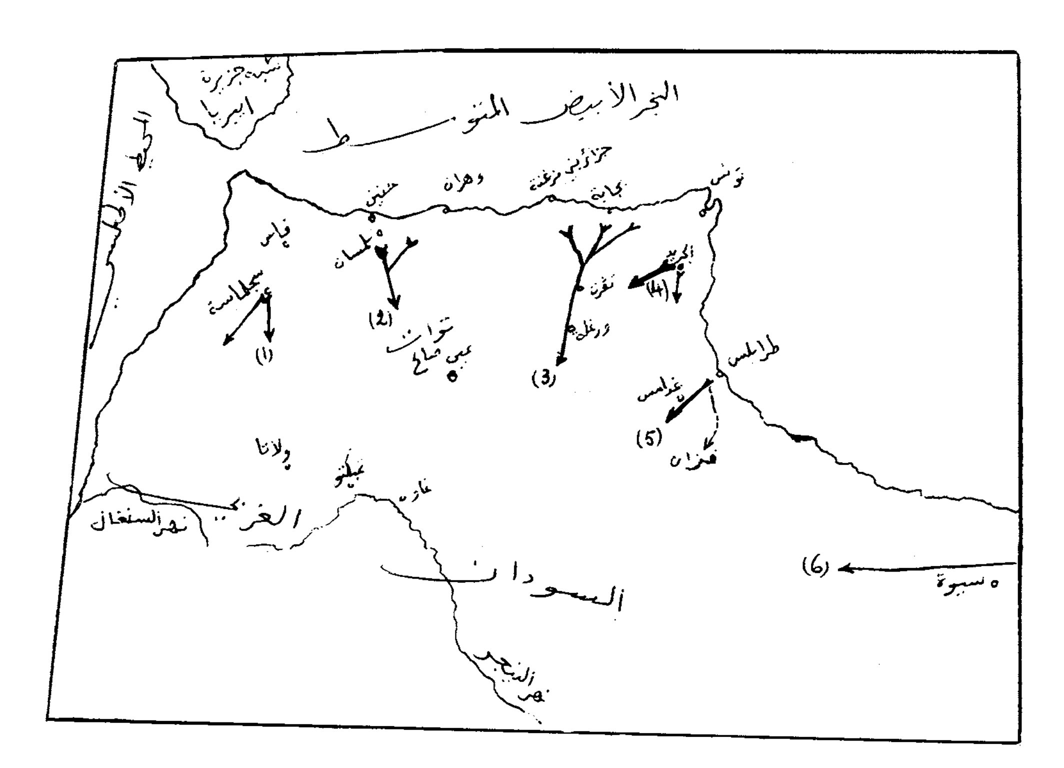
4) من واحة الجريد في جنوب تونس ؛ ينطلق طريق آخر غالبا ما كانت تمر قوافله بورقلة ووادى سوف أو بغدامس فى بعض الاحيان ·

5) من طرابلس الغرب ؛ كان ينطلق طريق آخر يمر بغدامس ، ويمر فرع منه بفزان ثم ينتهى كل من الفرعين اما الى بورنو أو الى غاو ·

6) وينطلق من مصر طريق يمر بواحة سيوه وتادمكت (مكة الجديدة) ثم ينتهى الى غاو وتمبكتو · (6)

(6) راجع بصورة خاصة :

(6) W. Fage : Introduction to the history of W. Africa, Cambridge, 1955.



وكما هو موضح على الخريطة ، فان مدينة ورغلة ونواحيها كانت بمثابة نقطة تجمع وانطلاق لاحدى الطرق التجارية الهامة عبر الصحراء ، وخاصة تلك التى تسلكها بضائع موانىء الجزائر الشرقية والوسطى وتونس · ولا توجد لدينا تقديرات دقيقة عن حجم القوافل التى كانت تسلك هذا الطريق ، غير أن العلامة ابن خلدون قد يقربنا من تخمين لذلك ، حينما يشير الى أن القوافل التى كانت تمر على أيامه (أواخر القرن الرابع عشر) بالهقار كان عدد جمالها يبلغ أثنى عشر ألف جمل فى أحيان كثيرة (7) · وواضح أن الهقار يقع ضمن مشمولات هذا الطريق · ويشير ابن خلدون من ناحية أخرى الى أن هذه القوافل التجارية كانت تنظم الى السودان من مختلف التلول والامصار ، وأن التجارة مع السودان كانت عامة فى المغرب على أيامه ، بحيث يشترك فيها سكان البوادى وسكان المدن على السواء (8) ، وهذا مما يؤكد الحقيقة المشار اليها آنفا حول ورقلة وأنها كانت بمثابة تجمع وانطلاق لتجارة امصار ومناطق وموانىء كثيرة ، تشمل جهات عديدة فى وسط الجزائر وشرقها وتونس أيضا ·

ومن التطورات التى رآها هذا الطريق ؛ طريق ورقلة التجارى الهام بين الشمال والجنوب ، هو ما احتوته رسالة سلطان بورنو التى أرسلها فى سنة 1440 م · الى علماء توات ، يشتكى لهم فيها من أن التجار لم يعودوا يقصدون بلاده بأعداد كثيرة كما كانوا يفعلون فى السابق · وان الحقيقة من وراء هذه الشكوى لا تتمثل أبدا فى أن تلك الفترة كانت فترة تدهور فى التبادل التجارى الحضارى على هذا الطريق ، وانما صادف فى هذه الفترة أن جالية يهودية سيطرت على مرافق التجارة فى توات ، وهذا ما دفع الطوارق الذين تقع بلادهم بين توات وبورنو الى العمل على عدم السماح لتلك التجارة التى كان من ورائها اليهود من المرور بأراضيهم · (9)

لقد ساهمت القوافل على جلب البضائع المتنوعة الى ومن السودان الغربى ، ولم تختلف القوافل التى تسلك طريق ورقلة عن غيرها فى هذا الشأن ، سوى ما يختص

---

(7) عبد الرحمان بن خلدون ، التاريخ ، بيروت 1959 ، جزء 6 ، ص 405 ·

(8) المصدر نفسه ، جزء 7 ، ص 119 ·

(9) R. Mauny : Le Judaisme, 1949, p. 360.

القاضي محمود كعت من الاشارة اليه ؛ وذلك فيما يتعلق بالتمور الواردة عن طريق ورقلة والتى أخذت شهرة كبيرة فى أسواق تمبكتو بصورة خاصة ، حيث كانت تباع فى أحيان كثيرة بطريقة العد لجودتها (أربعة أو عشرة) لا بطريقة الكيل أو الوزن (10)، ويتفق الباحثون على أن البضائع التى كان يجرى تداولها بصورة عامة ، ربما كان من أهمهـــا :

1 ـ من الشمال أوانى النحاس ، المصنوعات الحديدية ، المصنوعات الزجاجية ، المقتطعات المرجانية ، العطور ، التمور ، التين المجفف ، المنسوجات القطنية والحريرية ، القمح ، الملح ، الكتب ، الجلود المدبوغة ، الاصبغة المختلفة ، الحلى والخيول ٠

2 ـ من الجنوب : الذهب ، ريش النعام ، العبيد ، التوابل ، والجلود غير المصنوعة والعـاج ٠ (11)

لقد كانت هذه البضائع من الاهمية الحضارية والانسانية بحيث كان ينتج عـــن تواردها أو تبادلها :

1 ـ تنشيط التجارة الداخلية ٠

2 ـ تغذية الجبايات الحكومية ٠

3 ـ المساهمة فى توفير مجالات للتشغيل ٠

4 ـ ترقية الذوق فى الاستهلاك والاستعمال ، ويدل على ذلك أن توقف توارد القوافل المحملة بالبضائع كان ينتج عنه ارتباك فى حياة السكان فى مدن السودان الغربى (12) ٠ ولعل الاهم من هذا كله هو توارد الكتب وتنقل العلماء الذين كانوا يساهمون المساهمة الفعالة فى ترقية مجالات الاتصال الانسانى عن طريق القوافل التجارية ،وهذا ما أدى الى دخول السودان الغربى منذ وقت مبكر وخاصة بالنسبـة

---

(10) محمود كعت ـ تاريخ الفتاش ، تحقيق هوداس ، باريس 1964 ، ص 319 ٠
عبد القادر زبادية ، مملكة سنغاى فى عهد الاسيقيين ، الجزائر 1972 ، الفصل الخاص بالتجارة الخارجية ٠

(11) Cf. E. W. [illegible], op. cit., 236 FF.

(12) راجع : تذكرة النسيان فى [illegible] ، [illegible] ، باريس [illegible] ، صفحات 73 ـ 74 ـ 100 ٠

للتاريخ الاسلامى الى الدخول فى حيز الحضارة قبل غيره من أجزاء افريقية أخرى ، فعرفه العالم وتبادل معه ، ويكفى مدينة ورقلة فخرا أنها كانت احدى المدن الجزائرية الهامة التى ساهمت بدورها فى هذا الجانب الحضارى والانسانى العظيم ٠

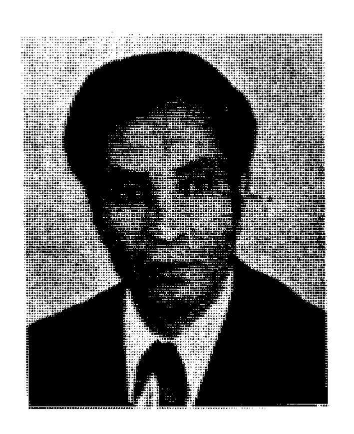
وبالنظر لذلك التلاحم الحاصل من الاتصال الحضارى على الصورة التى شرحنا جانبا منها حتى الآن ، فقد كان لاعتداء الفرنسيين على ورقلة سنة 1854 أثره السىء على نفوس السكان فى تمبكتو ، وقرر زعيمها الشيخ سيدى أحمد البكاى الكنتى استنفار جميع أنصاره فى المنطقة للهجوم على الفرنسيين عندما اعتدوا على ورقلة فى تلك السنة الا أن الدكتور بارث الالمانى الذى صادف أن كان فى حماية البكاى آنذاك ، وكان أول أوروبى يدخل تمبكتو علنا ويخرج منها سالما بفضل حماية البكاى له ، عمل الكثير الثنى الشيخ البكاى عما عزم عليه ، ونجح فى مسعاه ٠ (13)

وبمجرد احتلال الفرنسيين للجنوب الجزائرى عملوا بمختلف الوسائل على قطع صلاته بالسودان ، ثم احتلوا السودان فى آخر القرن فتم لهم كل ما أرادوا ، وفى سنة 1911 صدر مرسوم منع استعمال العربية فى السودان الغربى نهائيا ، ويعتبر كل ذلك جوهر السياسية الفرنسية للقضاء على الصلات الحضارية بين الشمال والجنوب حينما أصبح الفرنسيون يحتلونهما معا ٠

(13) H. Barth, Travels...., London 1867-68, v, p. 123.

تطور ناحية ورقلة ما بين 1962 — 1975

جلـول مكـى
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة الدراسات التاريخية
جامعة ــ الجزائر



نقـع ناحيـة ورقلـة بالمنخفض الكبـير للصحـراء الجزائرية ، الذى اكتسب أهميته من كونه يضم أهـم الواحات والمراكز العمرانية التى يتجمع بها أكثر سكان الصحراء الجزائرية • فضـلا عـن الثروات البترولية الضخمة التى يزخر بها باطنه ، وهذا ما يخالف طبيعة سطحه المتميز بندرة المجارى المائية ، وقلة العطاء النباتى الذى تسبب فيه المناخ الجاف الذى تعيشه المنطقة •

فالتضاريس الرئيسية للصحراء يمكن تصنيفها الى رق وهو يغطى أكثر من نصف المساحة ، والحمادة ثم العروق وهى تغطى خمس المساحة الباقية وبهذا المنخفض تقـع ورقلة التى تكتنفها كثبان واذرعة رمال العرق الشرقى الكبير •

وقد كانت لورقلة فى العصور الوسطى علاقات تجـارية مع السودان ، ومركزا لتهذيب العبيد ، كما كانت مرحلة من مراحل السفر بين جهات الصحراء المختلفة ، كما كانت أيضا تقوم بالمبادلات التجارية بين السودان وأقاليم شمـال الصحراء وبذلك يمكن اعتبار ورقلة من أهم مراكز الصحراء الكبرى •

وقد تدعمت مكانة ورقلة اليوم بفضل تطور الاقتصاد الجزائرى المعتمد على تصدير التمور ، واستخراج الثروات البترولية والغازية القريبة منها • أولا الاقتصاد التقليدى ومساهمته فى الاقتصاد الوطنى ويتمثل فى النقاط التالية :

1 ـ البدو الرحل الذين يمتلكون قطعانا توفر لهم أهم المواد الاولية الداخلة فى الاستهلاك المحلى مثل الحليب والزبدة والجبن والجلود والاصواف واللحوم ، ويتمركز هؤلاء البدو خارج نطاق الواحات حيث ينتشرون فى ارجاء الصحراء الواسعة ويحافظون على الهياكل الاجتماعية التقليدية المعتمدة على ما توفره الصحراء للرحل من العشب الضئيل والسريع الزوال لقطعانهم من غنم وماعز وابل ، وهم يجوبون فيا فى الصحراء للبحث عن آبار أو منطقة جديدة للعشب لانعامهم وهم فى تنقلهم هذا يعيشون تحت الخيـــام •

وعلاقات قوافل الرحل بالواحات محدودة ، فهم يأتون اليها لبيع انعامهم وشراء كميات من التمر والتزود بالشاى والقهوة والسكر وأخذ حصتهم من محصول الواحة التى يملكون قسما منها عادة •

وهذا لا يعنى ان التشكيلات الاجتماعية التقليدية تؤلف عالما خاصا بالناحية معزولا بالصحراء عن شمال الجزائر ، فالرعاة الرحل قديما كانوا يضمنون العلاقات التجارية عبر الصحراء بين افريقيا المدارية وبين المغرب العربى ، كما كانت قوافل جمال البدو الى عهد قريب تقوم بالتبادل مع الشمال بالتمور والحيوانات مقايضة بالحبوب من قمح وشعير وبالمنتجات الجاهرة من الصناعات الاوروبية الى يرونها ضرورية لحياتهم •

اما اليوم فالرعاة الرحل يتوجهون الى الشمال بالهضاب العليا بحثا عن العمـــل فى الفلاحة اثناء فصل الحصاد للحصول على كميات من الحبـــوب سدون بها حاجاتهم الاستهلاكية وبالمقابل فهم يزودون التجار المتنقلين بالاسواق المحلية بقطعان الاغنام وهؤلاء بدورهم يصبدرونها للحواضر الكبرى بالشمال •

وأساس حياة هؤلاء البدو الرحل هو نظام البداوة التى هى فى الواقع ليست شكلا من أشكال الحياة فقط تتميز بتنقل قليل أو كثير تباشرها جماعة من الناس للبحث عن

عشب جديد لتربية مواشيهم أو للبحث عن أرض جديدة للفلاحة ، بل البداوة أيضا نظام اجتماعى أسس على العلاقات الابوية أو على علاقات التعامل : فالتجمع العائلى يقع فى عشائر يجمعها جد مشترك ، وعلاقات التعامل هذه تظهر على الارض فهى عندهم ملك للجميع • واذا كانت علاقات الجنوب بالشمال محدودة فى الماضى يقوم بها الرحل ، فهذه العلاقات تكثفت منذ العهد الاستعمارى وخاصة بعد الاستقلال وذلك بفضل تطور وسائل المواصلات من مسالك وطرق معبدة ، وسكك حديدية ، من جهة ومن جهة ثانية بفضل تطور وسائل النقل من سيارات وحافلات وشاحنات وقطارات وطائرات • ومما يلاحظ ان هذه الوسائل وتلك الوسائط لم تساعد على حياة البداوة وكانت لها تأثيرات وردود فعل مختلفة باختلاف أوضاع كل قبيلة فاضطر كثير من البدو الى الاستقرار بجانب نخيله بالواحات حيث توجد السلطات الادارية ويتوفر الطبيب والمدرسة ، وبعضهم تحول الى ملاك بالواحات ، وآخرون اصبحوا ـ بعد ان فقدوا قطعانهم ـ يشتغلون بجمع غلة التمر والفرز ووضعها فى صناديق للتصدير • وبذلك تضاءل عدد القبائل التى ما زالت محافظة على حياة البداوة والتنقل ، وعموما فكل قبيلة تأتى الى الشمال فى كل عام الى نفس المكان الذى خيمت فيه من قبل مما يجعلها تقوم بدورتها السنوية العادية المتمثلة فى رحلتى الشتاء والصيف •

2 ـ فلاح الواحات : فالمناخ يتميز بقلة التساقط وتـدرته فهو فى توقرت (57 مليمتر) وبورقلة (40 مم) • وباقصى جنوب المنخفض الكبير بحصن فلاتر (18 مم) • وليس ضعف التساقط فقط هو الذى أضر بالمنطقة بل الذى أضرها هو شدة التبخر الناتج عن شدة الحرارة وارتفاعها التى تبلغ درجتها فى الصيف تحت الظل فى توقرت (40،80 درجة) مئوية ، وفى الليل تنخفض هذه الدرجة انخفاضا كبيرا حتى تصل الى (16،7 درجة) ، وفى اقصى جنوب الحوض تصل الحرارة الى (42،90 د) ، ومع هذا فالصقيع فى الشتاء نادر فى ارجاء هذا المنخفض الكبير • وهكذا يلاحظ ان المناخ فى هذه المنطقة يمتاز بفوارق حرارية كبيرة ، فالنهار حار جدا بينما الليل قارس البرودة •

لكن حوض العرق الشرقى بسبب وضع تكوينه الجيولوجى الداخلى يحتوى على طبقات غزيرة من المياه ضمن الطبقة الجيرية الالبية ، ويقدر احتياطى المـــاء بالمنخفض الصحراوى الكبير بـ (50 مليار متر مكعب) وهكذا عوض السكان الجفـــاف المناخى باستخراج الماء بتقنية عتيقة وذلك بواسطة آبار ارتوازية واستعمال الدلو والخطاف • وقد قام بحفر هذه الآبار بالمنطقة فرقة من سكان الناحية تعرف بالرواغة أصلها من اقباط مصر قدمت الى الناحية فى عصر سالف ، وبذلك أصبح عدد الآبار بناحية ورقلة يقدر بحوالى (3.000 بئر) ارتوازية •

الفلاحة : بأراضى الواحات قليلة ، فالسكان عوضوا نتائج الجفاف المناخى بحجز طبقات المياه الباطنية التى تسربت داخل لحقيات الوديان وتحصلوا عليها بالآبار لرى الزراعة • كزراعة التمور وأشجار الفواكه والخضر والزروع للمعيشة ، فالفلاحـــة تمارس على مساحة محدودة يقوم بها المقيمون بالواحات من أهل القصور ويساعدهم فى ذلك خماسون ، فيغرس الفلاح النخيل والخضر ويزرع الحبوب ويسقى هذه الفلاحة اما بينابيع ذات منسوب ضئيل ، أو بآبار منسوب معضمها ضعيف جدا لاستنزاف طبقة الماء بكثرة الآبار •

وهكذا صارت الفلاحة بالواحات الصحراوية فلاحة متعددة وكثيفة ، وتظهر هذه الزراعة على ثلاث مستويات على سطح الارض الحبوب والخضر وأعلى منها أشجار الفواكه وأعلى الطبقتين المذكورتين النخيل •

وهناك بعض محاصيل الشتاء مثل القمح والشعير وهى تزرع فى الخريف وتحصد قبل اشتداد الحرارة ، ثم الحبوب الصيفية وتزرع فى الربيع مثل الذرة البيضـــاء (السرغو) والذرة الصفراء ، والذرة البيضاء • والخضر أيضا هناك خضر الشتـــاء وتبذر فى الخريف وهى : (الفول ـ اللفث ـ الجزر ـ الجلبان ـ اللوبيا ـ العدس) ومنها ما يزرع فى الربيع ليجنى فى الصيف مثل : (القرعة ـ البطيخ ـ الـــدلاع الباذنجان ـ الطماطم ـ الفلفل) ثم البرسيم •

اما اشجار الفواكه التى تتخلل الواحة فهى : التين ـ الرمان ـ المشمش ـ الليمون

البرتقال ، ثم بعض النباتات ذات الطابع الصناعى مثل : القطن ـ التبغ ـ الفول السودانى ٠

وهكذا يتضح لنا أن الارض بالواحات تغل مرتين فى العام ولكن يجب أن تستريح عاما بعد انتاج عامين متوالين ٠

اما النخيل فهو النبات الرئيسى بالصحراء لكن النخلة لا تأتى أكلها الا بعد عشر سنوات ، وتتطلب عناية كبيرة وكمية وافرة من الماء كل هذه الفلاحة قد توجد على قطعة أرض صغيرة من الارض مما يصبغ عليها ميزة الفلاحة الكثيفة التى تتطلب اعمالا دقيقة ومتعددة كلها باليد : لتلقيح النخل ، والتربة يتم قبلها بالمجرفة ، والماء يوزع باستعمال السواقى على مساحة صغيرة ، فالهكتار الواحد من النخل توجد به من (150 ـ 200 نخلة) ويحتاج الى كمية من الماء تتراوح ما بين (20.000 الى 30.000 متر مكعب) وهى الكمية الضرورية لرى النخيل ٠

اما انتاج الخضر والحبوب فيستهلك محليا وجزء من التمر الطرى والجاف يباع فى الاسواق الداخلية بالصحراء بينما يباع جزء آخر منه بشمال الجزائر فالتمر هو المصدر الرئيسى لفلاح الواحات اما تربية المواشى فهى مصدر ثانوى له ٠

وقد استفاد تجار التمور من تطوير العلاقات التجارية بين التل والصحراء ومن ضمنها ناحية ورقلة التى عرفت توسعا فى املاك التجار المحليين ٠

ثم المدخول الثانى بعد التمر فهو مدخول الوظائف الادارية ومنح المتقاعدين من المدنيين والعسكريين ، ومن العمل بالورشات التى تقوم بتوسيع خط السكة الحديدية الى سكة عادية بين بسكرة وتوقرت ، ثم مدها الى ورقلة لنقل البترول بواسطة عربات الصهاريج ، ثم من الاجور التى توفرها اشغال مد انابيب البترول من الجنوب الى الشمال : (نحو بجاية ـ سكيكدة ـ أرزيو) ٠

المشاكل الفلاحية : اذا كانت الواحة توفر الراحة للمسافر أو السائح العابر للصحراء ، بظلالها الوافرة وبمياهها الباردة وفواكهها الطيبة وخضرها اللذيذة فى تلك الصحراء المحرقة ، فهى فى الحقيقة تخفى حياة البؤس والشقاء لسكانها ، فالفلاح

يعاني كثيرا من المشاكل منها مشاكل الوسط الطبيعي الناتجة عن صغر المساحة وتجزئة الارض ، زيادة على فقر التربة بسبب استنزافها نظرا لاستغلالها مرتين في العام هذا من جهة ومن جهة أخرى لعدم وجود العناصر العضوية المخصبة بها لفقدان طبقة الذوبان وذلك لعدم وجود الاوراق أو الاعشاب بها وهذا الامر يجعل ممارسة الفلاحة الكثيفة عملا شاقا ، بالاضافة الى العدوين اللدودين للفلاح هناكهما : الرمال والملح ، فالعواصف الرملية تغطى أرض الفلاحة رغم مكافحة الفلاح باقامة أسوار من الطين والحجارة ، فان الرمال تغزو المساحة الفلاحية ، ثم مرض البيوض الذى يصيب النخيل ويقضى عليه ·

هذه بعض المشاكل المتعلقة بالارض والنخل ، اما المشاكل التى تتعلق بالفلاح نفسه فهى تبرز خاصة فى الامراض الصدرية الموجودة بكثرة فى الصحراء مثل السل ، وكذلك الامراض المزمنة مثل الرمد الجيبى والحمى المعوية وحمى المستنقعات ·

لكن رغم مجهودات الفلاح المضنية فانه لا يحصل الا على انتاج ضعيف ، وهذا ما يفسر عجز فلاح الواحات امام مواجهة النمو الديمغرافى ، ولم يستطع ان يفعل شيئا ، ولم يبق له الا الهجرة مخرجا للتخفيف من البؤس ، وهكذا هاجر الفلاحون الى الشمال للعمل فى مزارع الكروم باقليم وهران ، وفى أعمال مناجم الكويف والونزة وجبل العنق ، وآخرون هاجروا الى خارج الوطن ، ولهذا يعتبر الجنوب أرض هجرة نظرا لضعف الانتاج الفلاحى به ·

المجهود الوطنى لتحسين احوال سكان الواحات بالولاية : وذلك بتطبيق الثورة الزراعية من جهة ومن جهة ثانية قامت الدولة بوضع برنامج واسع لبناء سبعة قرى اشتراكية تشتمل على الفين وثلاثة وستين مسكنا (2063 مسكنا) انجز منها قرية سيدى سليمان وبها مائة وثلاثة وثمانون مسكنا (183 مسكنا) وقريتان أخريتان يجرى بهما العمل حاليا وهما : قرية سيدى عباز وتشتمل على مائة وسبعة وعشرين مسكنا (127 مسكنا) ، وقرية زوينه سيدى لعباد وبها مائتان وأربعة وعشرون مسكنا (224 مسكنا) · وهناك مشاريع للمستقبل بعائرة ورقلة وتوقرت لبناء ثمانية قرى تشتمل على ألف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون مسكنا (1333 مسكنا) يخطط لانجازها ·

تطور وسائل النقل والمواصلات بالصحراء :

الواحات كانت وما زالت محطات بالطرق العابر للصحراء ، وكانت واحة ورقلة احدى هذه المحطات بالصحراء ٠

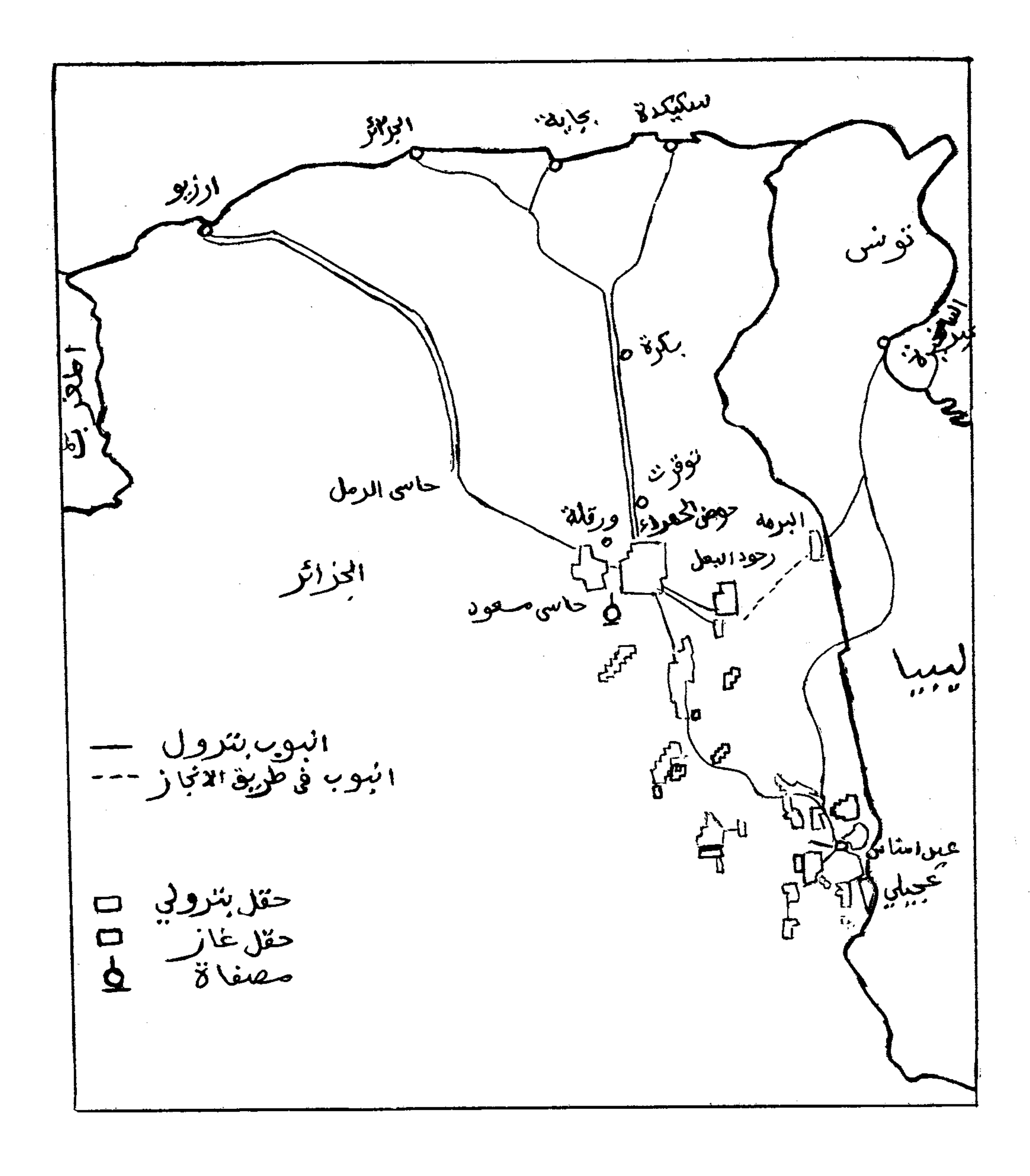
كثافة العلاقات مع التل : الى عهد قريب كانت بالصحراء مواصلات بدائية متباينة ، فصعوبات الوسط الطبيعي الصحراوى ، والبعد ، وقساوة المناخ ، وندة المياه ، كلها لا تفسر الا جزءا من هذا التأخر فى هذه الارض الشاسعة، وايام الاحتلال كانت اجراءات اقتصادية لتطوير الصحراء ، وانشاء الطرق الكبرى مقصورا على البحث عن البترول ، فهناك ثلاثة محاور كبرى من الشمال الى الجنوب هى : محور الشرق نحو بسكرة ، ومحور الوسط نحو الاغواط ، ومحور الغرب نحو بشار ، ويهمنا منها محور الشرق ، هذا المحور الذى يتمثل فى طريق السكة الحديدية الضيق ، والذى مد سنة 1914 م ، بين بسكرة وتوقرت ، والذى جعل مدينة توقرت محطة للتجارة المنظمة العلمية لدقلة نور التى وجهت الى الخارج ، ثم توسعت هذه السكة فى عهد الاستقلال الى سكة عادية بين المدينتين المذكورتين لنقل البترول بعربات الصهاريج من حاسى مسعود ، والاعمال جارية اليوم لمدها الى ورقلة ، وقد ساعد هذا المحور الرئيسى للمواصلات مع تطوير طرق المواصلات المختلفة على تكثيف العلاقات التجارية بين الواحات ومدن التل وعدلت من التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية ، واستثمار مناجم البترول والغاز أخيرا ما هو الا عاملا آخر لتطوير هذه العلاقات التى تبرز لنا التحول الطويل للصحراء الجزائرية بعد أن اصبح استعمال الشاحنات والقطارات والحافلات والسيارات ثم الطائرات عاملا للقضاء على النقل بالقوافل ٠

ثانيا : الاقتصاد الحديث والمتمثل فى استغلال مناجم البترول والغاز ٠ وهذه المناجم توجد بحوضين كبيرين هما : حوض عين أمناس ، وقد اكتشف أولا ، وقد بدأ أول تدفق من البترول والغاز بين شهرى : جانفى وجوان 1956 م، من المناجم القريبة من الحدود الجزائرية الليبية وهى عجيلة ـ تيقنتورين ، ثم فى شهر جوليت من نفس السنة بحاسى مسعود ٠ فمناجم الحوض الاول قليلة العمق فهى على مستوايات ثلاث من (400 الى 1400 م) عمق وعلى هذا فتكاليف الحفر عادية ، لكن قلة الضغط يضطر

الى حقن الغاز للزيادة في الضغط على البترول لاخراجه ، والصعوبة الرئيسية بهذه المناجم هى البعد عن شمال البلاد (1150 كلم) عن العاصمة • أما الآبار الرئيسيـة فهى : عجيلة ـ تين فوى ـ اهنى ، واحتياطى هذا الحوض يقدر بـ (200 مليون طن) •
والحوض الثانى للبترول هو حوض حاسى مسعود واحتياطه أكثر من (700 مليون طن)، والبعد قليل عن العاصمة (600 كلم) ، لكن تكاليف الحفر باهضة بسبب العمـق الكثير (3000 متر) ، وبسبب قلة الضغط أيضا ، كل هذا يتطلب آلات خاصـة للحفر وتجهيزات خاصة للزيادة فى الضغط ، اما الآبار الرئيسية فهى : حاسى مسعود قازى الطويل ـ رحود البغل •

ويتم تصريف البترول بأنابيب طولها (3,500 كلم) منها (510 كلم) بتونس ، وصرفت احواض الشرق بانبوب الى ميناء السخيرة بخليج قابس طوله (770 كلم) وقطره 61 سنتمتر ، وانجز فى شهر سبتمبر 1960 م ، ثم من بعد ربطت مناجـم عجيلة بانبوب حاسى مسعود ، وهناك وسيلة أخرى للتصريف وهى التصريف بواسطة عربات الصهاريج من توقرت الى الشمال •

وقد بدأت فى استغلال ثروات هذه الاحواض الشركتان الفرنسيتان الشركـة الوطنية للابحاث البترولية بالجزائر (S. N. Repal) والشركة الفرنسية للبترول بالجزائر (C. F. P. A.)، وظهر تجمع سكانى هناك شرق ورقلة هو تجمع حاسى مسعود وقد ظهـر متفرقا ولكن بانتظام وامتدت الدار الخضراء على هضبة حاسى مسعود ، ويوجد بهذا التجمع موظفو الشريكتين المذكورتين والممثلون لعدة شركات أخرى ، وممثلو الخدمات العامة ، فهذا التجمع تنعدم فيه الحياة العائلية فهو تجمع للرجال فقط • وكان به 40 ٪ من الاوروبيين و 60 ٪ من الصحراويين أربعة اخماس من الواحات أغلبهم من ورقلة ، ويبلغ سكان قاعدة حاسى مسعود (5.600 نسمة) سنة 1965 م • والقاعدة عبارة عن سلسلة من البيوت المكيفة وبها أرض للرياضة واحواض للسباحة وحديقة وقاعدة للسنما ، وأخرى لالعاب التسلية ونادى ، وعمارات ادارية بغير طوابـق • وحوانيت ومخازن وفنادق • وكانت القاعدة تزود من العاصمة مباشرة ودفعت الناحية الى الجزائر العاصمة • وارتبطت بها •



سكيكدة
بجاية
الجزائر
ارزيو
تونس
بكرة
توقرت
حاسى الرمل
ورقلة
حوض الحمراء
البرمه
رحود البعل
الجزائر
حاسى مسعود
ليبيا
انبوب بترول
انبوب في طريق الانجاز
عين اسنامن
عجيلي
حقل بترولي
حقل غاز
مصفاة

وفى عهد الاستقلال تكونت الشركة الوطنية للبحث وانتاج وتحويل وتسويق المحروقات السائلة (سوناطراك) فى 31 ديسمبر 1963 م . وساهمت فى البحث والتنقيب والاستثمار . وفيما بين عامى 1966 و 1971 م ، تم نقل شبكة قنوات الهيدروكاربون الى مليكية الدولة بصورة كاملة ، ومد خط قناة بترول بنى منصور العاصمة وكانت قبل تزود بالسفن من بجاية . وفى سنة 1973 مد خط انبوب حاسى مسعود أرزيو ، ثم قناة حوض الحمراء سكيكدة طاقتها (18 مليون طن فى العام) فى المرحلة الاولى و (24 مليون طن فى العام) فى المرحلة الثانية .

وتملك سوناطراك سنة 1971 م (50 بئرا) من البترول والغاز ولها من العمال (10.000 عامل) .

ملاحظة : لم أتعرض لحاسى الرمل وانتاج الغاز وذلك لكونه يقع خارج نطاق ولاية ورقلة بعد التقسيم الادارى الجديد لسنة 1975 م .

اقتصاد مدينة ورقلة : اذا كانت سدراة العاصمة الاباضية بعد سقوط تاهرت بين القرنين العاشر والثانى عشر الميلادى (10 ـ 12 م) غنية بماضيها فانها فقدت نشاطاتها التجارية وأضمحلت ، فان جارتها ورقلة تنهض اليوم لتعيد مجدها وهى بحق عاصمة البترول بالجزائر المستقلة ، وقد استقر رحل الناحية وآخرهم ، أولاد سعيد عطبة ، فلم تعد لهم علاقات مع أفريقيا الشمالية ، واستقروا على خط دائرة العرض 32 درجة فى منخفض سبخة وادى ميه ، وواحات ورقلة هى أقصى واحات تقع بجنوب المنخفض الصحراوى الكبير .

فمدينة ورقلة اليوم كما كانت فى الماضى عقدة هامة لطرق المواصلات نحو اتجاهات مختلفة نحو : توقرت بالشمال ونحو الهقار بالجنوب ، ونحو غدامس وحاسى مسعود بالشرق ، ونحو غرداية بالشمال الغربى واتجاه المنيعة بالجنوب الغربى .

واعيد احياء الناحية بين سنتى 1954 و 1966 م ، فهى تضم حاليا (535.000 نخلة) منتجة ، و (150.000 نخلة) فى طريق الانتاج ; تبيع ورقلة سنويا فى المتوسط من (5.000 الى 7000 طن) من التمور منها (600 طن) دقلة نور . فورقلة قبل كل شىء

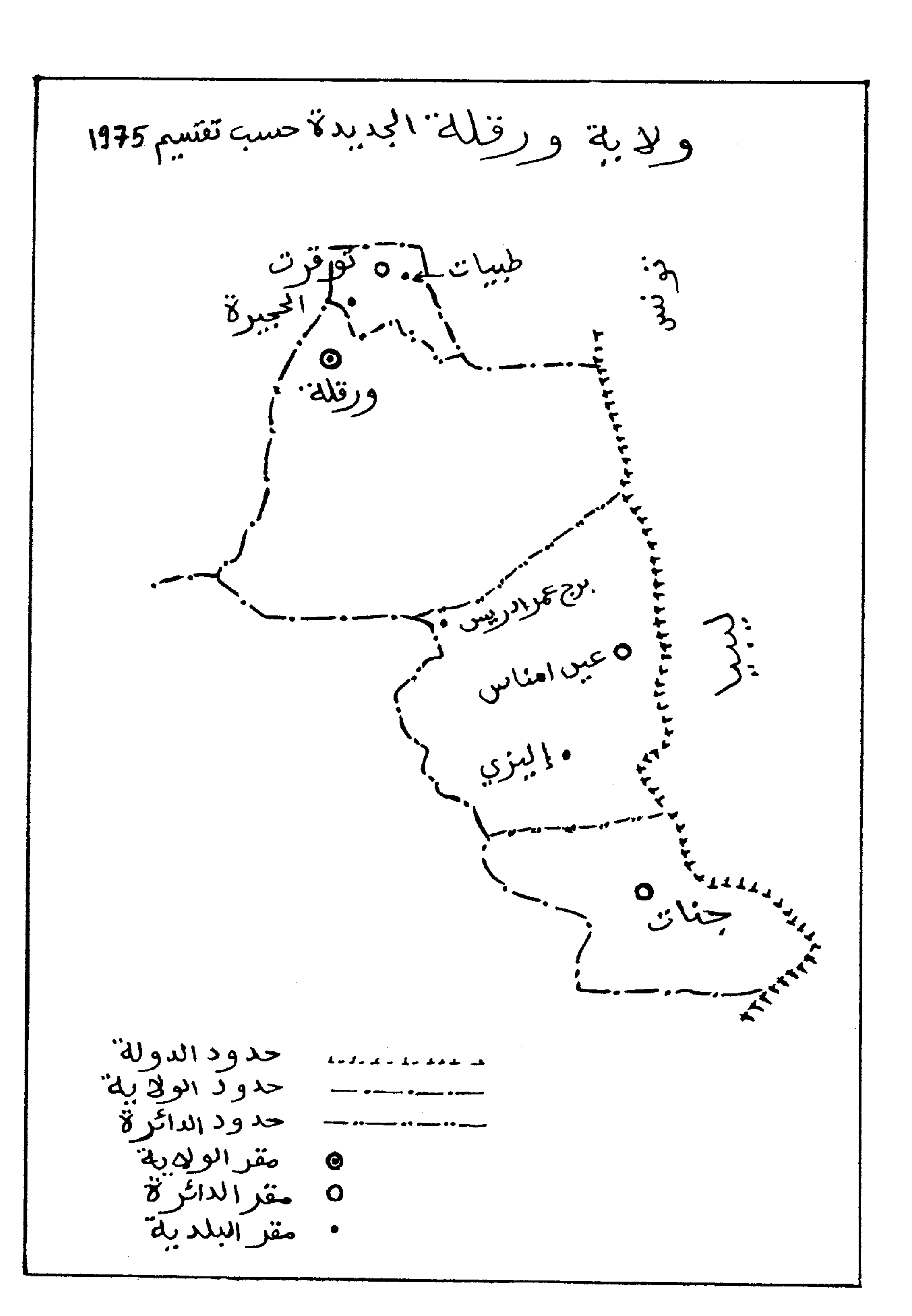
لها دور أساسي يتمثل في سوقها التي تزود التجمعات الصغيرة المجاورة لها ، كما تزود رحل الناحية وخاصة الشعانبة ؛ ثم صارت ورقلة مقرا اداريا للناحية ، ثم ولاية للواحات سنة 1965 م ، وارتبطت خصوصا بالبحث عن البترول ثم استثماره بناحية حاسي مسعود . وهذا الاستغلال أوجد مراكز حياة جديدة ومناظرة صناعية غريبة عن الصحراء وسريعة الزوال . فانشئت الطرق البرية والمطارات ، وبنيت القاعدتين البتروليين لحاسي مسعود وعين أمناس ، واللتان ليستا مدينتين ، ولكن مخيمات مثبتة ومكيفة وصارت الدار الخضراء بحاسي مسعود بعد تأميمات 24 فيفري 1971 صارت تدعى قاعدة 24 فيفري .

وحصل تطور كبير للتجار الصغار : لتجار الدراجات ، والدراجات النارية ، وآلات الاستقبال الاذاعي (الراديو) والتلفزيون والقماش والملابس والمواد الغذائية .

ورقلة هي أيضا أقرب تجمع لسكان حاسي مسعود (85 كلم) الذين ينتقلون اليه للاستراحة أو لشيء من التسلية .

والقصر القديم ما زال قائما فوق ربوة وسط الواحة ، ولكنه تغير كثيرا ، وسكان الاحياء الثلاثة الاصلية العرقية ما زالوا يلتقون في الساحة الوسطى التي تستخدم سوقا وتتصل بالحدائق خارج القصر بواسطة أبواب ستة ثقبت في السور ، وحيث تبدأ من هذه الابواب الستة الطرق في اتجاهات مختلفة ، وبالقصر القديم مسجدان يشرفان على المدينة احدهما مسجد اباضي منذ أيام الاباضيين الاوائل . اما المدينة الجديدة التي بنيت على النمط الاوروبي تقع بالجنوب الغربي من المدينة القديمة وقد تطورت بسرعة .

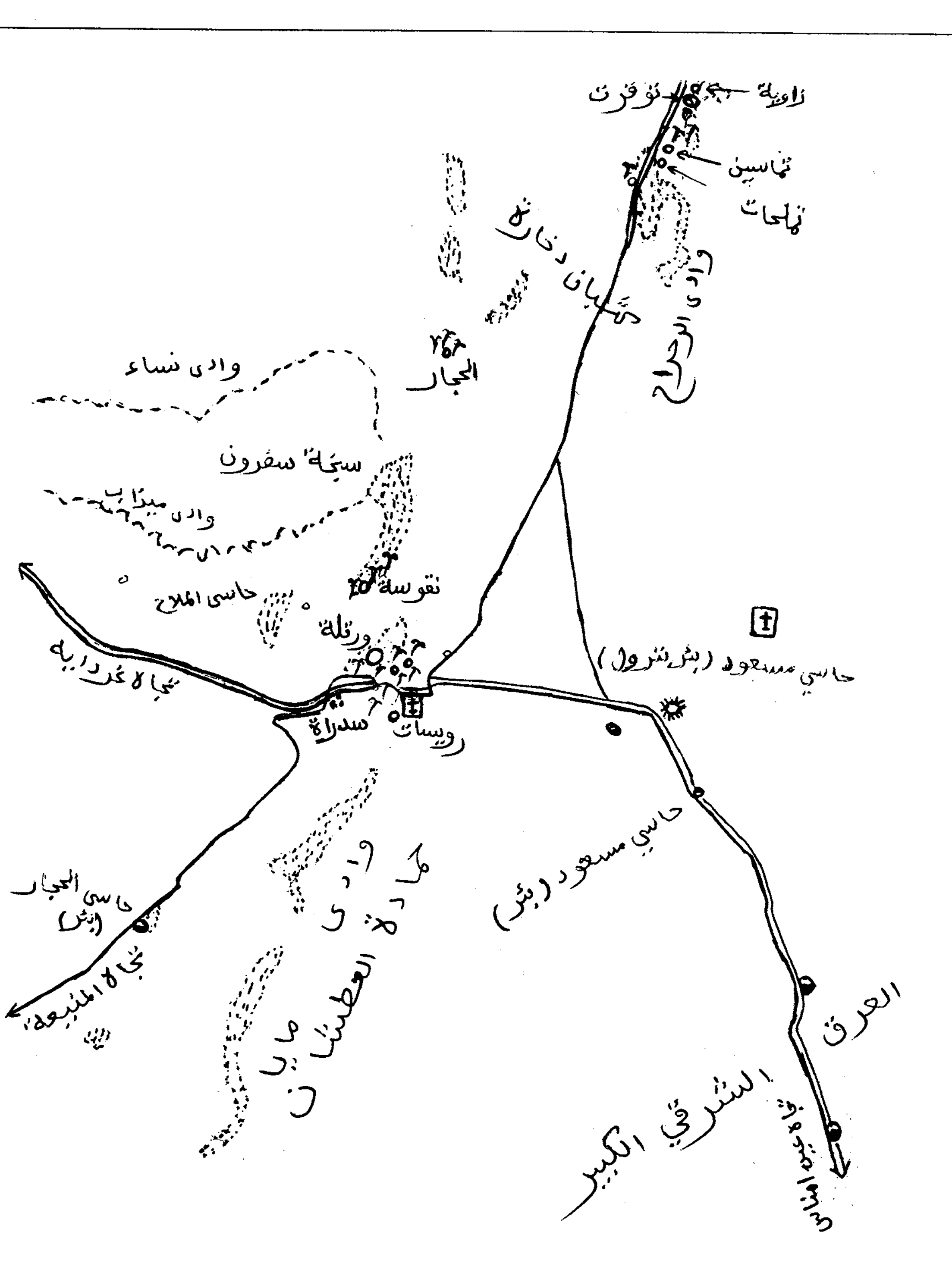
وورقلة هي التجمع الثاني بعد توقرت، فانطلاقتها حديثة بسبب البترول وبوظيفتها كمقر للولاية سنة 1975 م ، سكانها أكثر من (6.455 نسمة) سنة 1934 م ، و (22555 نسمة) سنة 1965 م . بالاضافة الى خمسة قرى تقع وسط النخيل بكل منها حوالي (1.000 نسمة) باستثناء نقوسة فسكانها (1.700 نسمة) . وانطلاقة ورقلة دفع الميزابيين لاحتلال مكان ملحوظ في تجارة التمور .



ولاية ورقلة الجديدة حسب تقسيم 1975
طيبات
تقرت
الحجيرة
ورقلة
تونس
برج عمر ادريس
عين امناس
ليبيا
إليزي
جانت
حدود الدولة
حدود الولاية
حدود الدائرة
مقر الولاية
مقر الدائرة
مقر البلدية

التقسيمات الادارية الجديدة : ولاية ورقلة هى الولاية الثلاثون بموجب التقسيم الادارى الاخير للجزائر الذى وقع سنة 1975 م ، والذى يشتمـــل عـــلى 31 ولاية بالجمهورية الجزائرية ، وتشتمل ولاية ورقلة على أربعة دوائر (4) وثمانية (8) بلديات، فالدوائر هى : دائرة توقرت وبها ثلاث بلديات هى : بلدية توقرت وبلدية الطيبات والحجيرة . والدائرة الثانية هى دائرة ورقلة وبها بلدية واحدة . والدائرة الثالثة هى دائرة عين أمناس وبها ثلاث بلديات هى : بلدية عين أمناس وبلدية برج عمر ادريس وبلدية اليزى ، وأخيرا دائرة جنات وبها بلدية واحدة فقط .

الرحل حول ورقلة : يبلغ عددهم (10.000 نسمة) ما زالوا هناك بينما كثير منهم هو فى طريق الاستقرار . وورقلة هى مركز الشعانبة الذين استقروا فى الشرق منها وقد انتجعوا بقطعانهم فى القرن الثانى عشر الميلادى (ق 12 م) الى العرق الشرقى الكبير ، ثم قبيلة بنى طهور التى انتقلت الى واحة الرويسات وهى واحة صغيرة جنوب ورقلة ، ثم تبعتها فى القرن الثالث عشر الميلادى (ق 13 م) قبيلتا المخادمة وسعيد عطبة ، وقطعانهم تنتقل بين وادى ميه وحمادة العطشان شرق وادى ميه مباشرة ، والترحال اليوم يتم فى عائلات تتألف من خيمتين الى عشرة خيم (2 ــ 10 خيم) فالرجال يبعدون مع قطعانهم فى فترة تمتد من شهر جانفى الى شهر أكتوبر ، ثــم يتركون قسما من انعامهم الى رعاة وهم يأتون ليخيموا على حافة الواحة أوان قطـف التمر ، لانهم يملكون بعض النخيل . والشعانبة هم اليوم فى طريق الاستقرار بسبب التجارة والخدمة العسكرية . وأولاد سعيد عطبة بقوا الى الاستقلال يقضون شتاءهم مع قطعانهم تحت الخيام بين ورقلة ونقوسة حيث يملكون النخيل بالواحة الاخيرة وعددهم (4.000 نسمة) ، وفى شهرى : فيفرى ومارس ، يصعدون بمهل الى أودية ميزاب ثم الى السهول المرتفعة سهول السرسو حيث يصلونها فى شهر جوان عبر منخفض تجرونة احد ممرات بين جبال عمور ، ليساعدوا فى عملية الحصاد وقلع العدس ورعى القصب ؛ ثم فى وسط شهر سبتمبر يعودون بجمالهم المحملة بالحبوب الى تبادلوها مقايضة بالتمور وبمنتجات ماشيتهم وبالبرانس ، ويصلون ورقلة على أكثر تاخير عشرين يوما (20 يوما) للمشاركة فى قطف التمر . وهكذا يقطعون سبعمائة كيلومتر



تماسين
تملحات
الحجار
وادي نساء
سبخة سفرون
وادي ميزاب
نقوسة
حاسي الملاح
ورقلة
سدراتة
رويسات
حاسي مسعود (بئر بترول)
حاسي مسعود (بئر)
حاسي الحجار (بئر)
نحو المنيعة
العرق
الشرقي الكبير

(700 كلم) ذهابا وايابا للاصطياف مدة شهرين أو شهرين ونصف بمنطقة المـــراعى والتى ليست من السهل والمحقق دائما ايجاد مكان بها، فهذه الرحلة اشبه شيء بالمخاطرة والمجازفة التى قد لا تحمد عقباها .

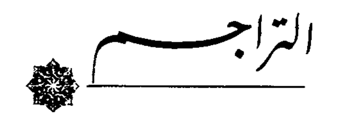
وهذا التنقل الذى تقوم به هذه القبائل هو بغير شك من البقايا التاريخية للعلاقات التى ما زالت حية مستمرة بين العاصمتين الاباضيتين للخوارج : تاهرت وســدراة ، وتتم هذه القبائل دورتها السنوية بين العاصمتين مارة بالبلد الذى ما زال محتفظا بالمذهب الاباضى ذلك البلد هو ميزاب .

مدينة توقرت : تبعد عن ورقلة بـ (160 كلم) سكانها يبلغ عددهم سبعة وعشرون (27.000 نسمة) سنة 1965 لتوقرت وظائف مختلفة فهى : سوق يومية ، ومصدر كبير للتزويد بالتمور ، ولها مطار ومحطة قطار ، وطريق كبير للمرور . وهى أيضا مركز ادارى ، وبها القصر القديم الذى ما زال قائما . اما المدينة الجديدة فقامت بالجنــوب من القصر القديم . وكذلك أحياء للسكن حديثة امتدت الى الشمال نحو المحطة والى الغرب نحو الطريق الجديد ونحو محطة ضخ البترول .

أما بدو ناحية توقرت فهم : أولاد سعيد عطبة وأولاد عمور وأولاد نايل يفلحون بعض المنخفضات ثم يلتحقون بأملاك النخيل ليشتغلوا بالمناصف هناك وكانت لهـم قطعان هامة يذهبون بها الى السهول المرتفعة القسنطينية لقضاء الصيف . وانقطـع هذا التنقل فى الفترة الممتدة من سنتى 1955 ـ 1962 م ، اثناء الحرب التحريرية ، ثم استئنفت هذه الحركة بعد تكوين قطعان جديدة ، وتبدأ هذه الحركة ببطء مع بدايـة أول الصيف بعد جز الغنم فى أول شهر جوان ثم العودة لقطف التمور فى أول شهر أكتوبر . وحركة الانتجاع هذه ليست ضرورية دائما ، بل هى ميراث للماضى حيث البداوة ضاعفت من أهمية التجارة البدوية أثناء العصور الوسطى .

قائمـة اسمـاء المصـادر والمـراجع :

(1) Jean Despois et René Raynal : Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest, Paris 1967.
(2) Emerit Marcel : Les liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au XVIII[e] et au début du XIX siècle - Tome XI, 1954, Alger.
(3) Capot-Rey : Les prolbèmes de la zone aride - Actes du Colloque de Paris, Unesco. Etat actuel du nomadisme au Sahara par Capot-Rey, 1962.
(4) Bruno Verlet : Le Sahara - Collection que sais-je ? N° 766, Paris 1962.
(5) Géographie de l'Algérie - Institut Pédagogique National, Alger 1967.
(6) Textes et documents pour la classe N° 137 du 14 Novembre 1974. Publication de l'Institut National de Recherche et de Documentation Pédagogique, Paris.
(7) Code géographique national, code des communes, août 1975 - Secrétariat d'Etat au Plan.
(8) Division administrative de l'Algérie par Wilaya, avril 1975, Secrétariat d'Etat au Plan.
(9) كتاب الثورة الصناعية ـ وزارة الصناعة والطاقة ـ 1973 .



ابو يعقوب يوسف الورجلاني وكتابه

الدليـــل والبرهـــان

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ ـ الجزائر

فى وسط بحبوحة من الرخاء ونعيم الحياة الثقافيـة الروحية التى عم أريجهما ربوع أرض الجزائر أيـام حكومـة الدولة الرستمية بتيهرت (160 ـ 296 هـ ، 776 ـ 909 م) وفى جـو البحث العلمى الهـادىء والاستغراق فى التفكير الفلسفى اللاهوتى العميق مع النشاط فى الدرس الحثيث لعلوم الدين الاثيرة التى جعلت من أئمة هذه الدولة ينغضون رؤوسهم سخرية من صروف الدهر وطوارقه حتى كأن هذا أمر لا تتحرك به الخواطر ولا مجال للفكر فيه ، فى هذا الجو الهادىء المفعم دعة واطمئنانا .

وقع الهجوم على البلاد من طرف الشيعة العبيديين أو قـل الشيعة الفاطميين بزعامة عبد الله الشيعى (296هـ/909م) فسقطت الجزائر الرستمية بيد الشيعـة من دون قتال ولا حرب الامر الذى أدى الى انتقال أكثر السكان الى أرض الجنـوب

الى الصحراء وكان فيهم العلماء وأقطاب السياسة والفكر ـ وكانوا اباضية المذهب يكرهون الشيعة الى حد انهم كانوا لا يعتبرونهم من الناس ، بل هم عندهم من قبيل النسناس ـ كما ذكر ذلك أبو يعقوب يوسف الورجلانى فى دليله ، ففروا لذلك من هؤلاء وارتحلوا الى الصحراء بالجنوب الشرقى من القطر الجزائرى فسكنوا تلك الارجاء الجميلة الهادئة الثرية بنخيلها اليانعة وتمورها الزاهية الواقعة بجنوب مدينة (تقرت) وشرقى (غرداية) وتلك هى واحة بنى (وارجلان) أو (وارجلن) كما كتبها البكـرى (460هـ) فى مسالكه ، وقال : هى سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى (اغرم ان يكامن) أى حصن العهود، وجاء بعده الادريسى فوضع جغرافيته سنة 548هـ، فكتب اسم هذه الناحية هكذا : (وارقلان) أى بالقاف لا بالجيم ، وقال : هى مدينة فيها قبائـل مياسير وتجار أغنياء يتجولون فى بلاد السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر يضربونه فى بلادهم باسم بلدهم وهم وهبية اباضية • وذكرها الدرجينى فى طبقاته وهو من أهل بلاد الجريد القريبة من وارجلان ومن علماء الاباضية فى القرن السابع الهجرى وممن أخذ عن علمائها مثل أبى سهل يحيى بن ابراهيم الوارجلانى ، فكتبها هكذا : (وارجلان) •

وذكرها ياقوت (626هـ) فى معجمه الجغرافى الجامع وكتبها هكذا : (ورجلان) وضبطها قائلا : بفتح الواو وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون • قال : هى كورة بين افريقية وبلاد الجريد ضاربة فى البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر ومجانة ، واسم مدينة هذه الكورة (فجوهة) ؛ والكورة فى اصطلاح أهل الجغرافيا هى عبارة عن الصقع المشتمل على قرى ومحال كثيرة •

وجاء ذكرها فى تاريخ ابن خلدون مكررا مكتوبا بالكاف هكذا : (واركلا) آخرها لام ألف لا نون ومشكولة بقلم ابن خلدون نفسه بالحركات مكسورة الراء ؛ والعجب من المرحوم ابن تاويت الطنجى كيف غاب عنه شكل ابن خلدون لحرف الراء وتـرك الكلمة مشكولة فيما نشره من كتاب التعريف بابن خلدون بسكون الراء ، وهو نفسه نبه على كسرها • وقد يكون هذا خطأ مطبعيا ؟ •

وزار هذه المدينة الرحالة العياشى سنة 1059 هـ/1649 م فذكر ان بها مسجـدا للاباضية صلى فيه صلاة المغرب ، وكتب اسم المدينة كذلك بالكاف مثل ابن خلدون وآخرها لام الف (واركلا) غير انه زاد فى ضبط مخرج حرف الكاف هنا بجعل ثلاث نقط من أسفل الحرف اشارة منه الى اختلاف النطق والمخرج بين كـاف (واركلا)

والكاف المعهودة . ونحن نراه فى ذلك مقلدا لرسم ابن خلدون لحرف القاف المعقودة فى كتابة اسم (بلكين) بالخصوص حيث قال : فأضعها كافا وانقطها بنقطة الجيم واحدة فى أسفل أو بنقطة القاق واحدة من فوق أو اثنتين فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجىء فى لغة البربر . وهذا ما يعبر عنه بالقاف المعقودة ، والقاف المعقودة هى الصيغة التى نسمعها فى النطق بحرف الجيم عند المصريين أو حرف القاف من لهجة أهل البادية فى الجزائر Elguef وهى مستعملة كذلك عند عرب المشرق ، وقد كنا كتبنا فى هذا الموضوع بحثا نشر بمجلة (الشهاب) ج 7 م 7 ربيع الاول 1350 هـ/جوليت 1931 م ، فليرجع اليه من شاء . كما ورد اسم هذه المدينة فى قصيدة ميمية لابى حمو الزيانى الثانى سلطان دولة بنى عبد الواد بتلمسان (971 هـ/1389 م) مكتوبا بالجيم هكذا : (ورجلان) فقال :

وجئت لـ (ورجلان) وجزت مصابها ولا مخبر غير الصلاد الاعاجم

وكذلك كان يكتبها مترجمنا أبو يعقوب يوسف الورجلانى ، فقد جاء فى كتابه الدليل يحكى قصة وقعت له قوله : (وأنا فى ورجلان سدراته...) ج 3 ص 100 . ولعل القاعدة فى كتابة امثال هذه الالفاظ ترجع الى قولهم : كل ما يجلجل يكلكل ويقلقل ويقلقل - بالقاف المعقودة -

ففى هذه الكورة أو الصقع (واركلا) أو (وارجلان) أسس هؤلاء اللاجئون من تيهرت مدنا وقرى وقصورا ومنها مدينة (الكريمة) ولا وجود لها اليوم ، ومدينة (سدراته) عاصمتهم الجديدة ذات الحضارة العظيمة التى قضى عليها يحيى بن اسحاق الميورقى (626هـ/1229م) والتى لا يزال البحث والتنقيب من علماء الآثار يجريان للكشف عن آثارها فى أعمال الحفريات ، ومن ذلك الآثار هذه التحف الفنية والقطع الجميلة التى نشاهدها ونراها اليوم مصفوفة على رفوف متحف الآثار فى حديقة الحرية بالعاصمة والتى يرجع تاريخها الى الستينات من القرن الرابع الهجرى ، (790 م) وعندما نزح عنها أهلها بسبب حملة الميورقى هذا وسكنوا أرض الشبكة من بلاد بنى (مصاب) مزاب حال محلهم كثير من الزنوج ونشأت بتلك الواحات مملكة زنجية .

ثم أن باشا الجزائر صالح رايس « هاجم واحات الجنوب (959 هـ/1552 م) فأدخل واحة بنى وارجلان ضمن المملكة الجزائرية فكان بهذا يعد هو مؤسس (وارقلا) الحالية ، واستمرت الناحية خاضعة للاتراك الى أيام الاحتلال الفرنسى فاستقلت الى أن احتلها قائد من قواد أرض الجنوب الوهرانى باسم الدولة الفرنسية ، ثم ثار أهلها واخرجوا ممثلى السلطة ، وأخيرا احتلتها الجنود الفرنسية (1289 هـ/1872 م) » الى ان من الله علينا بالاستقلال 1382 هـ/1962 م ، فرحم الله الشهداء .

ففى هذه البلدة الطيبة وعلى أديم هذه البقعة الزكية (واركلا) ولد أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم بن مياد الوارجلانى حوالى سنة 500 للهجرة ـ أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ؟.. وفيها نشأ وتربى وبها تادب وتعلم ما كان يجول فى فلك ذلك العصر من معارف وفنون وآداب ... فروى عن مشائخ بلده مثل الشيخ أبى عمار التناوتى وأبى سليمان أيوب بن اسماعيل وأبى زكرياء وغيرهم علم من تقده ممن سلف من علماء اباضية وغيرهم كأبى هارون موسى الجلاملى وابن ماطوس وميمون الشروسى وابن الاشج التاهرتى وابى الطيب محمد بن أبى بردة الشافعى وأبى عبد الله محمد ابن بكر النفوسى وولده أحمد الخ ...

وكأن أبا يعقوب هذا لم يكتف بما حصل عليه من العلم فى بلده اذ نراه يعقد رحلة الى بلاد الاندلس وهى يومئذ كعبة الدنيا لازدهار أنواع الثقافة واصناف المعرفة بها ورقى أهلها ، وكان فيما دخله من بلادها مدينة قرطبة تلك المدينة العظيمة التى أنبتت أمثال يوسف بن عبد البر القرطبى حافظ المغرب ومحمد بن أحمد القرطبى المفسر ، الى غير هؤلاء ممن نشأ بها من علماء وعالمات فقد ذكروا انه كان بربضها الشرقى فقط مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، ومنهن عائشة بنت أحمد القرطبية التى لم يكن فى زمنها من حرائر الاندلس من يعادلها فهما وعلما وأدبا وشعرا ؛ اذا قلنا هذا كان بقرطبة فى ربضها الشرقى فقط ، وفى ناحية منها فقط ، فكيف بجميع جهاتها ؟ وقد بلغت مساجدها الفاوستمائة مسجد ...

الى هذه المدينة الزاهرة أرتحل أبو يعقوب وعن علمائها تخرج واكتمل معلوماته فى الطبيعيات والرياضيات علاوة على ما كان قد حصل عليه من علوم الدين واللغة

يقسميها من معقول ومنقول وامتاز من بين اقرانه بالذكاء والفطنة والفهم حتى صار يقارن بالجاحظ ·

ثم عاد الى وطنه لافادة قومه بما حمله اليهم مما لم يكن عندهم من ثقافة أو علم عملا بقوله تبارك وتعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » · (التوبة آية 122) وهكذا مكث أبو يعقوب بين أهله وقومه وفى بلده ووطنه يعــلم ويدرس وهــو دائما فى تطلع واشتياق الى الاستزادة من العلم (وقل رب زدنى علما) فعزم على الرحلة فى طلب العلـم ثانيا ، والى أين هذه المرة ؟·· الى المشرق ! ذلك ليجمع الى ما حصله من العلم بالمغرب مــا يكتشفه ويستفيده بالمشرق وكان الامر كذلك فلم يكتف بما عنده فارتحل الى هناك ، ولاشك انه قصد بغداد ، وهى يومئذ كقرطبة فى المغرب أو تفوقها ثقافة وحضــارة وعمرانا ، ولا سيما فى ذلك العصر الزاهر قبل أن يغزوها جيش التتار فانها كانـت عروس الاقطار الاسلامية وكفاها فخرا ان كانت تمثل عصر الاسلام الذهبى ·

ثم عاد منها أبو يعقوب الى بلده مترعا علما وحكمة وأدبا فكان كما وصفه أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخى فى كتابه السير المطبوع بمصر 1301 هـ ، نقلا عن طبقات الدرجينى : فقال انه « بحر العلم الزاخر ، المسخر للنفع فترى الفلك فيه مواخر ، كان فى علوم القرآن غاية ، وفى علوم اللسان من النحو واللغة والتصريف آية ، وفى علوم الحديث ونقل الاخبار والسنن والآثار والفروع والاحكام والمواريث بل وعلــوم الاقدمين فى جميع ذلك علامة) ·

وانقطع أبو يعقوب فى بيته سبع سنين دأبا لايلو على شىء سوى الدرس والتأليف فكان لا يجده زائره – كما ذكره الشماخى : « الا ناسخا أو للاقلام باريا ، أو للدراسة فاعلا ، أو للحبر طابخا ، أو للدواوين مقــابلا ، أو للكتب مسفرا ، الا ان قــام لاداء الفرض ··· » وهو الى ذلك شغوف بالاسفار فعقد رحلات عجيبة الى السودان وأواسط افريقيا فبلغ مجاهلها حتى انه اقترب من خط الاستواء كما يذكر ذلك هو عن نفسه فى كتابه الدليل ··· ج 3 ص 216 فانه قال : « وقد وصلت أنا بنفسى الى قريب من خط الاستواء وليس بينى وبينه الا مسيرة شهر وكاد أن يستوى الليل والنهار فيــه

أبدا ، وانما وصلنا الى قريب منه ، وأطول يوم السنة انما يفضل أقصر يوم منه بساعة واحدة فالنهار الطويل ثلاث عشرة ساعة ، والنهار القصير احدى عشر ساعة ولياليها كذلك ... وقال عن سكان تلك الناحية بانهم : « يخافون البيضان من النـــاس ويحسبونهم ملائكة نزلت من السماء يهـــزم الابيض الواحد من الناس عشرة آلاف منهم ؟!» وليس عندهم الا عبادة الاصنام ...

ولابى يعقوب هذا رحلة الى الحجاز ولعلها كانت فى رحلته الى الشرق ، نظم فيها قصيدة تحتوى على 350 بيتا جمع فيها كثيرا من فنون العلم ومسائله ، وهى الـــتى يقول فيها :

خرجنا نؤم الشرق من حيز وارجـــلان بفتيان صـــدق مـــن وجـوه العشائـــر

وله تفسير للقرآن الكريم يقع فى سبعين جزءا ضاعت كلها ما عدا جزء واحد منها ظفر به أبو الفضل أبو القاسم بن ابراهيم البرادى من علماء الاباضيةفىالقرن التاسع الهجرى وهو الجزء الاول من هذا التفسير العجيب وجده فى بلاد ريغ من أرض الجزائر الجنوبية فوصفه فى كتابه الجواهر المنتقاة فى اتمام ما أخل به كتاب الطبقات ط مصر 1302 هـ قال : « رأيت منه فى بلاد ريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت قط سفرا أضخم منه ولا أكبر منه ، حررت انه يجاوز سبعمائة ورقة أو أقل أو أكثر فيه تفسير سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران ، وحررت انه فسر القرآن فى ثمانية أسفار مثله ، فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر فى لغة أو اعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو جميع العلوم منه ... » يقال انه يوجد هذا الجزء باحدى خزائن روما عاصمة ايطاليا ؟..

وصاحب التفسير هذا هو واضع كتاب الدليل المشار اليه فى عنوان هذا البحث والكلام عليه هو الجزء المتمم الفائدة من موضوع مقالنا هذا ، ويسمى (كتاب الدليـــل والبرهان ، أو كتاب الدليل لاهل العقول لباغى السبيل بنور الدليل لتحقيق مذهب الحق بالبرهان والصدق) هكذا هو مرقوم على ظهر الكتاب فى كل جزء من أجزائه الثلاثة المطبوعة طبعة حجرية بمصر سنة 1306 هـ فى مجلد واحد .

والكتاب فى حد ذاته كتاب جليل النفع كثير الفائدة جامع لفنون من العلم فهـــو يبحث بحثا فلسفيا فى الالهيات والطبيعيات والرياضيات والفقهيات وأصول الاديان

وفى العقائد والمنطق واللغة وذكر الخلاف بين الفقهاء والاصوليين واختلاف عقـــائد الطوائف والفرق الاسلامية وغير الاسلامية ، والفرقة الناجية منها وغير الناجية وساق فى ذلك آراء العلماء وأهل المذاهب الفلسفية مع الاشارة الى أهم الاحداث التاريخية التى أدت الى انشاء المذاهب الكلامية وتكوين الاحزاب السياسية التى كان لها الاثر الفعال فى تطوير التفكير فى أصول الدين وأصول الفقه واستنباط الاحكام الشرعية والعرفية من ذلك كمسألة الخلافة والامامة وما يتعلق بالحاكم والمحكوم ومتى يكـــون الربط بينهما وكيف ينفصم ، كما انه تعرض لمعركة أو واقعـــة صفـين الشهـيرة (37 هـ/657 م) وموقف كل من على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما منها ، وشأنهما فى أمر التحكم وتعرض لقضية استشهاد عثمان بن عفان رضى الله عنه وتناول الكلام عن الملوك والرؤساء وما يتعلق بالمحاربين والموالين وحكـــام الجور وأعمالهم فى الاموال وعمارة الارضين وتطرق الى مسألة الاجتهاد والتقليد ، وبحث فى البدعة وأحكامها وأقسام العلوم وأصنافها وأحوال الآخرة ومسألة الجبر والاختيار والايمان والكفر ومسألة خلق القرآن والوحى ، كما انه تطرق الى ذكر بعض الوقائع والاحداث الجزئية الخاصة التى كانت باعثا مباشرا فى نهضة الفقهاء الى البحث والاجتهاد لتوضيح بعض الاحكام الغامضة وتقريرها ، كما انه تعرض فيه لرسائل اخـــوان الصفاء الفلسفية فشرح ولخص الاهم منها بكلام موجز مفيد . كما أنه أورد فى كتابه هذا بعض رسائل لكبار اقطاب المذهب الاباضى تتعلق بمباحث فى العقائد وأصـــول الدين وفيها أسئلة وأجوبة حول ذلك ، منها رسالة عبد الوهاب بن محمد الانصارى ـ من ناحية غانة ـ الى أبى عمار عبد الكافى التناوتى يسأله فيها عن مسائل فى العقائد فأجاب عنها المؤلف لوفات أبى عمار ؛ ورسالة أخرى للمؤلف نفسه أجاب بها الشيخ محمد بن الشيخ النفوسى الابدلانى عن مسائل تتعلق بتفسير القرآن وبالكتب المنزلة وقصة موسى والخضر وعن شىء من قصص الانبياء الخ ...

وجل هذه المسائل التى أوردها المؤلف ولا سيما منها ما يتصل بأصول الديـن والعقيدة ساقها بطريق الجدل والمناظرة ونظر اليها بمنظار مذهبـــه الاباضى وناقشها

مناقشة مركزة على ضوء هذا المذهب ، ولا غرابة فى ذلك فان الرجل كان مـن مشاهير الجدليين وجلة أهل النظر ٠

تلكم هى مجمل مباحث كتاب الدليل ومهات مسائله التى بحث فيها هذا العلامة الموسوعى الكبير وفيه غير ذلك من مسائل أخرى استطرد فيها المؤلف مواضيع أخرى لاشتات من غوامض العلم ومتفرقاته وعسانا نخصص له مقالا أو بحثا مفصلا نتعرض لمسائله ان شاء الله بالشرح والتحليل ٠

والكتاب فى جملته وتفصيله مفيد جدا فانه اشبه شيء بموسوعة فلسفية عقائدية دينية مصغرة جاء معبرا أحسن تعبير عن أفكار صاحبه مظهرا لمستواه الثقافى الشامل، ونستطيع أن نقـــول عنه انه من الكتب الجليلة فى الجدل ولا يستغنى عنه باحـــث ولا دارس يريد الاطلاع والكشف عن الحقيقة لواقع البحث العلمى فى الجزائر فى ذلك العصر الغابر ، وكان لاهميته ان اشتغل الغربيون بدراسته وترجمته ، فترجم بعضه الى الفرنسية بقلم ى٠ س٠ علوش I. S. Allouche ونشر بمجلة « هيسبيريس » Hespéris 1936 م ٠

ويذكر لابى يعقوب هذا من المؤلفات والكتب كتاب خاص فى الفلسفة بعنوان : (مرج البحرين) على انه مؤلف مستقل بذاته ؛ وفى الحقيقة ما هو الا عنوان لقســم من أقسام كتاب الدليل المذكور ومكانه منه هو الجزء الثانى منه يبتدىء من صفحة 85 الى آخر الجزء ، وهو مفتتح بالبسملة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم يجىء ذكر العنوان هكذا : (تعلقة فى المنطق ، كتاب مرج البحرين فى المنطق بحر الالفاظ والكلم وبحر المعانى والحكم) نعم ! قد يكون حقا هو كتاب مستقـل والمؤلف نفســه أدمجه فى كتابه الدليل ، وقد يكون غيره من تلامذته أو اتباعه هو الذى الحقه بالدليل ، وجعله خاتمة للجزء الثانى منه ، وأنا ارجح هذا نظرا الى ما نجده فى الجزء الثالـث من الدليل صفحة 157 من خط فاصل وبعده صراحة بـداية لكتاب مفتتـح بالبسلمة والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم جاء قوله : (قال الشيخ يوسف بن ابراهيم الورجلانى رحمه الله الخ ٠٠٠) ففى هذا دليل على ان الكتاب زيد فيه وأضيفت اليه

أشياء أخرى وان كانت هى من عمل المؤلف ، غير انها دائما هى ليست من صميم كتاب الدليل ، والا فما معنى ذكر الترحم على الشيخ هنا ؟ .. فهذا لا يكون الا من صنع غيره.

وكذلك نجد فى صفحة 229 من الجزء الثالث هذه العبارة : (تـم الموجود من الام بحمد الله وحسن عونه والصلاة والسلام على محمد وءاله وسلم تسليما) مع خـــط فاصل ثم تليه البسلمة والصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام وكلمة افتتاحية : (رب يسر يا كريم) ثم الشروع فى موضوع جديد ، فكل ذلك يدفعنا الى الشك فى كتاب (مرج البحرين) هل هو من صميم كتاب الدليل أو هو تأليف مستقل عنه ، وان كنا لا نشك فى كونه من تآليف أبى يعقوب ...

هناك مؤلف آخر فى أصـــول الفقـه منسوب اليه ذكـره اصحاب التراجم وهو (كتاب العدل والاتصاف) ، نعم هذا كتاب مستقل اشتهر ذكره بين العلماء واشتغلوا به فمنهم من شرحه ، ومنهم من اختصره ، ومنهم من اقتصر على مقدمته فشرحها وعلق عليها ومنهم غير ذلك . عرفنا من بينهم أبا العباس أحمد الشماخى فهو ممن عنـــى باختصاره فى مقدمة مفيدة وشرحها بشرح وجيز جدا كما ذكر ذلك المرحوم الشيـــخ أبو اسحاق طفيش فقال انه رغم اختصاره فانه على جانب كبير من النفاسة والتحقيق .

كما ان لابى يعقوب غيرما تقدم من الكتب مؤلفا آخر خدم به الحديث الشريف ذلك هو ترتيبه لمسند الربيع بن حبيب فقد كان هذا المسند مشوسا فنسقه ورتبه وهـــو مطبوع بالقاهرة فى أربعة أجزاء 1349 هـ ويذكر له كتاب آخر فى التاريخ يحمـــل عنوان : فتوح المغرب أو المغرب فى تاريخ المغرب ، وله ديوان شعر اطلع عليه الدرجينى بيد الفقيه أبى العباس أحمد مرارا .

ولا يفوتنى هنا أن أنبه على ان هناك شخصية أخرى اباضية علمية بارزة اشتركت مع مترجمنا هذا فى النسبة فعرفت بالورجلانى أيضا ، وذاك هو الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أبى بكر الورجلانى المتوفى سنة 471 هـ/1078 م وهو صاحب كتاب ســير الائمة واخبارهم وهو مطبوع بالجزائر مترجما الى الفرنسية بقلم المستشرق ايميـــل ماسكـوراى Emile Masqueray وهـــو كـما علمـت غـير الورجـــلانى أبى يعقـــوب صاحب كتاب الدليل المتوفى الى رحمة الله سنة 570 هـ/1175 م .

مـــراجـــع البحـــث

ابن تاويت محمد الطنجي	التعريف بابن خلدون ط القاهرة 1951 م
ابن خلدون ـ عبد الرحمن	المقدمة ط بولاق 1274 هـ
ابن خلدون ـ عبد الرحمن	تاريخ ـ العبر ط بولاق 1284 هـ
ابن خلدون ـ يحيى	بغية الرواد ط الجزائر 1911 م
البرادى ـ أبو الفضل	الجواهر المنتقاة ط القاهرة 1302 هـ
البكرى ـ عبد الله	المسالك والممالك ط الجزائر 1857 م
أبو زكرياء ـ يحيى الورجلانى	سيرة الائمة ط باريس 1878 م
أبو يعقوب يوسف الورجلانى	الدليل والبرهان ط القاهرة 1306 هـ
أحمد توفيق المدنى	كتاب الجزائر ط الجزائر 1350 هـ
الادريسى ـ محمد بن محمد	نزهة المشتاق ط لندن 1866 م
الدرجينى ـ أبو العباس أحمد	طبقات المشائخ بالمغرب ، ط - قسنطينة بدون تاريخ -
الزركلى ـ خير الدين	الاعلام ط ثانية ج 9
الشماخى ـ أحمد بن سعيد	كتاب السير ط القاهرة 1301 هـ
الشماخى ـ أحمد بن سعيد	أصول الديانات ط القاهرة 1304 هـ
عبد الرحمن الجيلالى	تاريخ الجزائر العام ج 1 ط 3 الجزائر 1971م
عبد الوهاب بن منصور	البصائر عدد 313 (1953 م)
على يحيى معمر	الاباضية فى موكب التاريخ ط القاهرة 1964
علوش ى. س.	هيسبيريس Hespéris 1936 م
العياشى ـ عبد الله بن محمد	الرحلة ط فاس 1316 هـ
ياقوت الحموى	معجم البلدان ج 5 ط بيروت 1957 م

Emile Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria - Alger 1878.

أبو عمار الكافي
والنسق الكلامي

د . عمار الطالبي
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

لا نعدو الحق اذا قلنا ان الخوارج لم تدرس آراؤهم العقائدية والسياسية دراسة تقارب الدراسات الكثيرة التى قام بها الباحثون عن فرقة المعتزلة وآرائها الكلامية الفلسفية أو عن فرقة الاشاعرة التى أخذت من الاعتزال بطرف ومن السلفية بطرف آخر وتوسطت بين المنهج الذى أخذ به المحدثون وبين المنهج الفلسفى الذى أغرق فيه المعتزلة ، كما أن الباحثين اهتموا بدراسة الشيعة وبتحليل عقائدها فى الالوهية والنبوة والامامة وما علق بها من عناصر غنوصية التى علقت أيضا بالباطنية الصوفية .

ولكن ينبغى أن نشير الى أن بعض المستشرقين اهتم بدراسة الخوارج وبتتبع حركتهم وتصطبغ هذه الدراسات فى أغلبها بصبغة تاريخية أو اخبارية على النحو الذى قام به فلهوزن Wellhausen فى بحثه التاريخى النقدى لحركتى الخوارج والشيعة وما قام موتيلنسكى Motylinski من أبحاث وتحقيق نصوص تتعلق بالاباضية ، بل كاد أن

يتخصص فى دراسة عقائد الاباضية وفى تاريخهم السياسى والاجتماعى سواء فى ذلك ما يتصل باباضية المغرب الاسلامى فى الجزائر وتونس وليبيا أو فى زنجبار أو فيما يتعلق باباضية المشرق وخاصة عُمان ، وكذلك ما قامت به الآنسة جواشون من دراسة مستفيضة لحياة المرأة الاباضية الاجتماعية بجنوب الجزائر أى ميزاب •

وقد خصص شيخ المستشرقين جولدزيهر قطعة من كتابه « العقيدة والشريعة فى الاسلام » للحديث عن الخوارج عامة وعن الاباضية خاصة ، وشارك Nallino الايطالى فى هذا المجال فكتب مقالا هاما عن العلاقة بين الاباضية فى شمال افريقيا وبين المعتزلة ، وتفطن الى ما يوجد بينهما من أوجه الاتفاق معتمدا على نصوص من كتب الاباضية نفسها •

وقد أحصينا المقالات التى كتبت عن الخوارج وعن الاباضية فى دراسة لنا عنهم ستنشر عن قريب والتى ذهبنا فيها الى رأى يخالف ما كان شائعا لدى المؤرخين والباحثين من أن الخوارج بدو ليس لهم منهج عقلى وبرهنا على أن الخوارج لم يكونوا من أهل الظاهر وانما كانوا ذوى منهج عقلى وتأويل للنصوص بما يتفق مع أصولهم فالمعتزلة ان هم الا تطوير لاصول الخوارج الاولى لذلك قال ابن تيمية ان المعتزلة مخانيث الخوارج وأن الاشاعرة مخانيث المعتزلة •

أبو عمار عبد الكافى

أ ـ **حياته** : هو أبو عمار عبد الكافى بن أبى يعقوب التناوتى • وتناوت ـ فيما يحدثنا المرحوم الشيخ أبو اليقظان ـ نسبة الى تناوت وهى قرية من قرى وارجلان فى سدراته الواقعة جنوب الجزائر ووارجلان تسمى اليوم « ورقلة » وكانت سدراته هذه عاصمة للاباضية بعد تيهرت ، أما المستشرق لويكى Lewicki فانه يذكر أن تناوت قبيلة بربرية كانت تقيم فى بلدة نفزاوة معتمدا فى ذلك على كتاب السير للشماخى (1) ، ويقيم جزء من هذه القبيلة فى وارجلان ويمكن الجمع بين الرأيين بالقول بأن تناوت اسم لقبيلة ثم سميت بها القرية التى أقامت بها هذه القبيلة فى وارجلان •

(1) Lewicki (T.), Mélanges Berbères Ibadites, REI, 10 (1936), p. 278.

ويذهب المستشرق المذكور الى أن أبا عمار هو أكثـــر مؤلفى الاباضية علـما ، والواقع أننا لا نعلم عن نشأته شيئا كثيرا ، وغاية ما نعلم عنه أنه نشأ فى وارجلان فى القرن السادس الهجرى ، وكانت فى ذلك الحين مزدهرة فى ميدان المعارف الدينية • أخذ فى تلك المدينة عن أستاذه الكبير المتكلم الاباضى أبى يعقوب الوارجلانى المتوفى سنة 570هـ/1174 م ، وكان أبو يعقوب الوارجلانى ذا اطلاع واسع على شتى أنواع المعارف وعلى الثقافة الاسلامية فى ذلك العصر حيث انتقل الى الاندلس وأقام بمدينة قرطبة فى عهد الموحديـن أصحاب النزعة العقلية والاجتهـــاد ، وهنالك درس علوم اللسان والقرآن والحديث والتنجيم فكان أهل عصره يشبهونه بالجاحظ •

وألف من الكتب كتاب «العدل والانصاف» في اصول الفقـه فى ثلاثة اجـزاء ، وتوجد عند الاباضية الى اليوم فى الجزائر نسخ متعددة (1)، وألف كذلك كتاب «الدليل لاهل العقول » فى ثلاثة اجزاء طبعت فى مجلد واحد طبعا حجريا بالقاهرة سنة 1306 هـ، ـ 1888 م ، تحدث فيه عن الآراء الكلامية والفلسفية وعن الرياضيات والفلك ، ورتب ايضا كتاب «مسند الربيع بن حبيب البصرى» الذى طبع الطبعة الثانية بمصر سنــة 1349 هـ ، بالمطبعة السلفية وضم اليه بعض روايات الربيع عن ضمام عن جابر بن زيد وروايات ابى سفيان عن الربيع ، وروايات جابر بن زيد (2) وينسب اليه كتاب «مرج البحرين فى الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب» ونقل الينا الشيخ ابو اليقظـــان انه ترجم الى اللغات الاروبية ولكننا لم نقف على ذلك ولم نعرف اللغة التى ترجم اليها، وله قصيدة تسمى الحجازية تقع فى 360 بيتا ، ويبدو انه انشاها حين قصـد الحجاز للحج فجادت قريحته بها فى تلك الربوع المقدسة ، وله كتاب فى الفقه لم اقف عليه ، وينسب اليه تفسير للقرآن يقال انه يقع فى 700 ورقة به تفسير فاتحة الكتاب وسورة البقرة وآل عمران ، وغلب على ظن البرادى ان ابا يعقوب ألف تفسيره للقرآن فى ثمانية اسفار مثل السفر الذى رآه ووقف عليه (3) ، وله كتاب فى التاريخ يدعى «فتـــوح

---

(1) اطلعت على نسخة لدى الاستاذ صدقى ايوب اليسجنى وقد شرحه القطب واختصره الشماخى •

(2) عبد الله بن حميد السالمى ، حاشية مسند الربيع ، مطبعة الازهار البارونية ، القاهرة 1326 هـ ، جزء 1 ص : 3 •

(3) البرادى ، الجواهر ، مطبعة محمد يوسف البارونى ، القاهرة 1302 هـ ، ص : 220

المغرب» ترجم فيه للاباضية ويذكر الشيخ ابو اليقظان انه توجد نسخة منه فى ألمانيا كما ذكر الشيخ اطفيش ابو اسحاق فى كتابه «الدعاية الى سبيل المؤمنين» (4) ، وله رسالة فى رجال مسند الربيع ، وترجمة لرجال الاباضية ، كما له أجوبة وفتاوى كثيرة لو ترجمت لكونت سفرا كبيرا فى الفقه ٠

وقد استطاع ان يكتشف خط الاستواء قبل ان يكتشفه غيره من الاروبيين ، فى رحلة له اليه ذكرها فى كتابه «الدليل والبرهان» وبالجملة فان ابا يعقوب الوارجلانى يعتبر من الفلاسفة الاباضيين الذين اكتسبوا معارف واسعة سواء فيما يتصل بالمذهب الاباضى او بغيره من المذاهب والآراء والعلوم الرياضية والطبيعية المعروفة فى عصره ، ويعتبر من أكبر رجالات الرياضيات فى المغرب العربى ٠

بعد ان اخذ ابو عمار عن شيخه ابى يعقوب ارتحل الى تونس ودرس هناك على اساتذة كثيرين ، وكانت تونس فى عهد الموحدين فى غاية من النشاط العلمى والثقافى فاستفاد من تلك البيئة العلمية الزاخرة واخذ علوم اللسان العربى وآدابه والعلوم الاسلامية المختلفة ، وعرف فى دراسته تلك بالجد والنشاط ، وكانت اسرته ذات ثراء ولذلك فانها كانت ترسل اليه الف دينار كل سنة فيعطى نصفها الى شيخه الذى يدرس عليه ويصرف النصف الآخر فى شؤونه الخاصة ، ويحكى انه كانت تأتيه كل عام رسالة مع المرتب المالى ولكنه كان لا يقرأ ما يرد عليه من رسائل ويحفظها عنده ، وعند ما أتم دراسته أخذ فى قراءتها فوجد فى الاولى نبأ وفاة احد والديه وفى الثانية نبأ وفاة الثانى فما كان منه الا ان ودع اساتذته واصدقاءه وقفل راجعا الى وطنه ، ويذكر صدقاؤه انه كان ذا أخلاق عالية ، سريع الفهم ، سخى النفس ، شديد الورع ، وكانوا يدرسون معه كتاب «الدعائم» وينسب اليه البدر الشماخى والدرجينى فى طبقاتهما عدة كرامات (5) ويذكر الدرجينى ان سبب سفره الى تونس التى أقام بها اعواما

---

(4) المطبعة السلفية القاهرة 1342 وتوجد منه نسخة فى تركة المستشرق موتيلانسكى ٠

(5) البدر الشماخى ، السير ص : 442 ٠ الدرجينى مخطوط الشيخ ابن يوسف بالجزائر العاصمة ص : 444 رسالة الشيخ أبى اليقظان الى صاحب هذا المقال سنة 1968 ص : 11 ٠

للدراسة يعود الى امرين : الاول ابتعاده عن شواغل الاهل ، والثانى انه اراد اصلاح لسانه وتقوية ملكته فى اللسان العربى بالابتعاد عن اللسان البربرى الذى يتحدث به أهل بلده وارجلان ٠

والواقع ان كتابه «الموجز» يشهد له بقوة الاسلوب وجزالته وصفاء عربيته ومتانة ألفاظها ودقة دلالاتها على معانيها ٠ ويذكر المترجمون له انه سئل عن القدر وعن اليقين فقال : (اليقين صحة الاعتقاد وهو من افعال القلب ومن افضل افعال العبادة) وأجاب عن القدر فقال : (القدر ما قدره الله قبل ان يكون)٠(6) وكان ابوعمار محبا للسلم بين المسلمين كارها للفتن وسفك الدماء ، وعبر عن رغبته هذه فيما يذكره الدرجينى الذى قال : «اذا وقعت الفتنة بين فئتين من المؤمنين فالاحب الي ان يصطلحوا فان لم يفعلوا فالاحب الي ان لا تغلب فئة فئة فان من احب ان تغلب احداهما الاخرى فقد دخل فى الفتنة ، ولزمه ما لزم اهل تلك الفتنة وكان سيفه يقطر دما» ٠ (7)

اما ما يتعلق بتاريخ وفاته فانه غير معروف ولكن يقع فى الراجح قبل سنة 570 هـ ـ 1174 م وهى السنة التى توفى فيها شيخه ابو يعقوب الوارجلانى ، ذلك انه وردت الى ابى عمار رسائل من عبد الوهاب بن محمد بن غالب بن نمير الانصارى من غانة ليجيب عن اسئلة وردت فيها فتوفى ابو عمار قبل ان يتمكن من الجواب عنها ، فتولى الاجابة عن ذلك شيخه ابو يعقوب الوارجلانى قبل وفاته سنة 570 هـ ٠ 1174

لقد كان للاباضية نشاط واسع من الناحية الدينية والثقافية والاقتصادية فى افريقيا ، فكانوا يقومون بتجارة التبر والدعاية للدين بالفعل والقول،ويقول ابواليقظان ان ابا عمار توفى فى وارجلان وقبره معروف باسمه فى هذه المدينة الى اليوم اذ ان له مقاما يزار ، وذكر انه وقف عليه ورآه ، وهو عبارة عن «غار منحوت فى ربوة الجبل

(6) الدرجينى طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق ابراهيم طلاى ، مطبعة البعث ، قسنطينة (الجزائر) (1974) ص : 488 ٠
(7) المصدر نفسه ، ص : 491 ٠

قدر ما يقف فيه المصلى ويأوى مجلس نحو عشرة رجال» (8) · وجرت عادة الاخـوان الاباضيين ان يقوموا بزيارته ربيع كل سنة (9) ويعده الشيخ محمد بن يوسف اطفيش من أهل الخمسين الاولى من المائة السادسة (10) مع استاذه أبى يعقوب الوارجلانى ·

ب ـ **مؤلفاته** : يعتبر أبو عمار من الذين أحيوا المذهب الاباضى تأليفا وتعليما ، وهو من أعظم مؤلفى الاباضية مقدرة على الجدل والنظر وأكثرهم عمقا فى التفكير ، وتنظيما للمذهب فى نسق عقلى دقيق متماسك ، وهو لا يقل عن متكلمى المعتزلـــة والاشاعرة والشيعة مقدرة على التأليف واحاطة بالمذاهب ودفاعا عن العقيدة ونصرة لهــا ·

ينسب الى أبى عمار أنه ألف كتاب الاستطاعة ، وقد أشار فى آخر كتابه « الموجز » الى أن الاستطاعة تستحق أن يفرد لها كتاب (11) ، ونسب اليه البدر الشماخى أيضا كتاب « شرح الجهالات » (12) وتوجد منه نسخة فى دار الكتب المصرية مخطوطة (13) وخطها ردىء جدا ، وبها شطب ولا تكاد تقرأ وهذا الكتاب عبارة عن أسئلة وأجوبة فى العقائد وغيرها على طريقة المذهب الاباضى به 59 ورقة تحت رقم 22293 ب · أما كتابه « الاستطاعة » فلا أعرف أنه موجود أو غير موجود ، وأغلب الظن أنه مفقـود ، وينسب الى أبى عمار أيضا ثبت باسماء شيوخ الاباضية وتراجمهم ، ويعتبره عـلى يحيى معمر من مؤرخى الاباضية · (14)

ومن أهم مؤلفاته كتاب « الموجز » فى علم الكلام نسبه اليه البــدر الشماخى (ت 928هـ/1521م) فى السير (15) ، حيث وصف أبا عمار بأنه آية فى علم الكلام

(8) الشيخ أبو اليقظان ، الاباضية فى شمال افريقيا مخطوط لدى مؤلفه بالقرارة جنوب الجزائر وأورد هذا النص منه فى رسالته الي بتاريخ 1968 ، ص : 17 ·
(9) المصدر نفسه.كما حدثنا بذلك الشيخ ابن يوسف بمدينة الجزائر سنة 1968 ·
(10) محمد اطفيش ، تواريخ أهل وادى ميزاب ، الجزائر 1326 هـ ·
(11) الموجز ، ص : 193 ، البدر الشماخى ، السير ، ص : 441 ·
(12) البدر الشماخى ، السير ، ص : 441 وذكر أنه يقع فى سفر واحد ·
(13) Lewicki (T.), Mélanges Berbères Ibadites, REI, 10 (1936), p. 271.
(14) على يحيى معمر ، الاباضية فى موكب التاريخ (الاباضية فى تونس) بيروت 1385 هـ ــ 1966 م ، ص : 194 ·
(15) السير ، ص : 441 ·

وبأنه ألف فيه : « الموجز فى الرد على من خالف الحق فى جزئين » (16) كما نسبه اليه الدرجينى فى طبقاته فقال : « وهو الذى أزرى بموجزه على الماضين وأتعب الحاضرين والآتين فانه رتب مقدماته أرتب تقديم وقوم فصوله أحسن تقويم وقسم الفرق أبين تقسيم بألفاظ عذبة وقصد مستقيم » (17) ، ونقل منه عبد العزيز المصعبى اليسجنى فى كتابه « معالم الدين » المخطوط الموجود بدار الكتب المصرية تحت رقم 1960 ب ، وقال : « ومن هنا تعلم معنى قول الشيخ أبى عمار فى الموجز » (18) ، كما نسبه اليه أبو اليقظان ابراهيم فى كتابه « الاباضية فى شمال افريقيا » فقال : « صاحب كتاب الموجز فى علم الكلام فى جزئين ناقش فيه فرق المذاهب الاسلامية وحاجج فيه كثيرا من الدهريين وناقشهم فى سائر مقالاتهم الرائعة المنحرفة بحججه الدامغة وبأسلوبه الرشيق الحكيم المبنى على محاصرة الخصم بالقائه فى شبكات من أسئلة لالزامه الحجة حتى لا يجد له محيصا ولا مفرا » (19) ، ولم يشك أحد من الاباضية فى أن الكتاب لابى عمار عبد الكافى بل ان البرادى ذكره فى تقييده لكتب الاباضية ونص على ذلك بقوله : « وكتاب الموجز للشيخ ابى عمار بن أبى يعقوب التناوتى الوارجلانى » (20) ، وأضاف الى ذلك نسبة كتبه الاخرى اليه فقال : « وشرح الجهالة له أيضا وكتاب الفرائض ويذكرون كتابا فى الفروع من تأليفه لم أقف عليه » (21) ، وأما المخطوط الآخر للبرادى نفسه فانه نص فيه على كتاب الموجز وشرح الجهالات فقط فقال : « ولابى عمار رضى الله عنه كتاب الموجز وكتاب شرح الجهالات سفر آخر له » (22) ، وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب على ثلاث نسخ : نسخة دار الكتب المصرية ونسخة الاستاذ صدقى محمد بن أيوب اليسجنى ونسخة الاستاذ صالح خباشة وكلاهما من اباضية الجزائر .

(16) المرجع نفسه ، ص : 441 .
(17) الدرجينى ، الطبقات جزء 2 ، ص : 485 .
(18) ورقة 276 .
(19) رسالة أبى اليقظان ، ص : 17 .
(20) تقييد كتب أصحابنا للبرادى مخطوط دار الكتب، ورقة : 208 .
(21) المصدر نفسه ، الورقة نفسها .
(22) مخطوط رقم 8456 ، ورقة : 113 .

ان كتاب الموجز يمثل مرحلة نضج علم الكلام ويمدنا بصورة نسق متكامل لمذهب الاباضية الكلامى ، وليس أبو عمار أقل من أبى بكر الباقلانى عند الاشاعرة ولا أقل من ابن حزم فى نقده ورده على الفرق والفلاسفة ، وتظهر فى هذا الكتاب صورة واضحة القسمات للمذهب الاباضى وللفكر الفلسفى لدى أبى عمار عبد الكافى الذى اتخذ منهجا عقليا قويا فى نقده واستدلاله مما يدل على اصالة هذا المفكر وعمق تحليله وغوصه على حقائق مختلف الاتجاهات الفلسفية والكلامية فى تاريخ الامة الاسلامية . ولا نريد أن نطيل فى بيان قيمة هذا الكتاب واهميته فى تاريخ الفكر الاسلامى فى الجزائر لاننا حللناه بما فيه الكفاية فى رسالتنا عنه لنيل الماجستير التى هى معدة للنشر .

الفن الرستمي بتاهرت وسدراته

د. رشيد بورويبة
معهد العلوم الاجتماعية ـ دائرة التاريخ
جامعة الجزائر

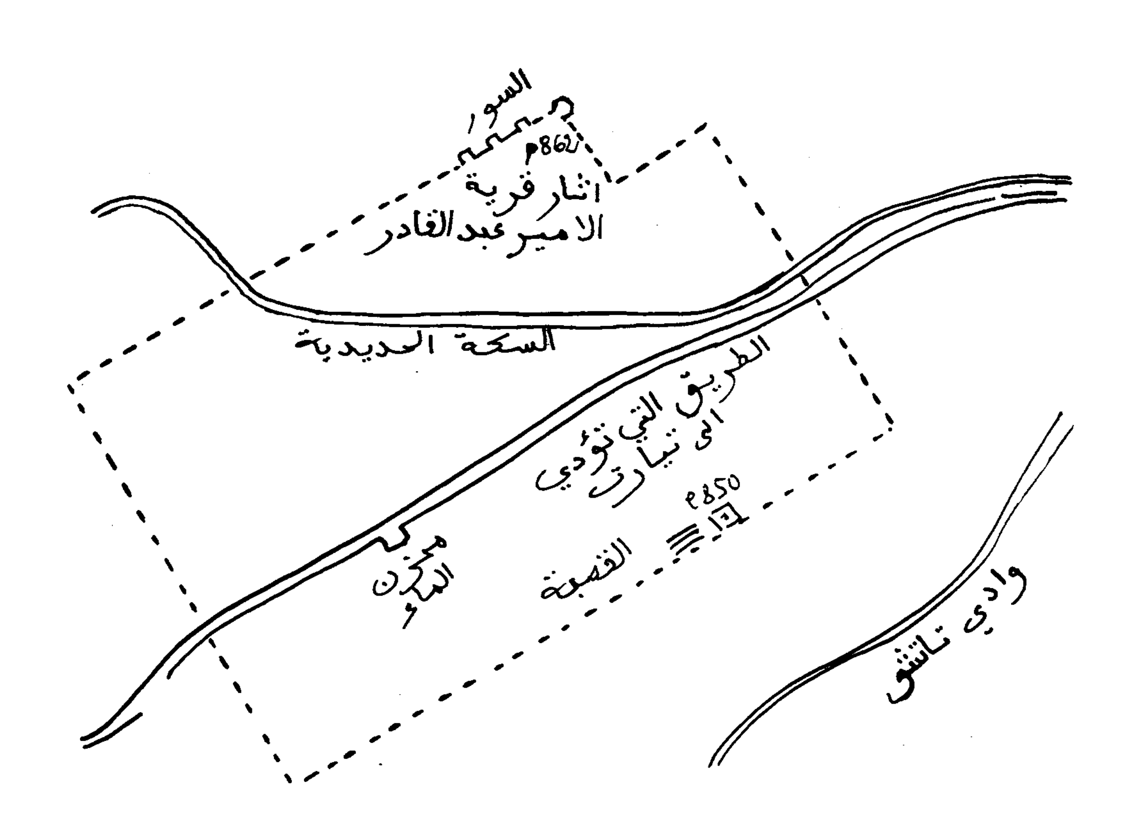
تركت لنا الدولة الرستمية التي أسست حوالي سنة 160 هـ/776 م من طرف عبد الرحمن بن رستم أثارا عديدة بمدينتي تاهرت وسدراته ·

1) الفن الرستمي بتاهرت ·

اجرى جورج مارسي (Georges Marçais) **ودوسوس لامار** (Dessus-Lamare) **حفريات بتاهرت في سبتمبر 1941 ونشر النتائج التي حصلا عليها في المجلة الافريقية في سنة 1946 (1) ·**

وما صعب مهمة الاثريين هو ان الامير عبد القادر بنى مدينة تقادمت على اطلال مدينة تاهرت الرستمية · مع ذلك اسفرت حفرياتهما على نتائج لا بأس بها من حيث انهما اقترحا علينا تصميما افتراضيا لمدينة تاهرت في عهد الرستميين واكتشفا عدة مباني ومطامير وقطع من الفخار ·

(1) G. Marçais et A. Dessus-Lamare, Tihert Tagdemt, Revue-Africaine, 1946, pp. 24-57.



شكل 1. تصميم افتراضي لمدينة تاهرت
(عن جورج ماوسي ودوسوس-لامار

كانت مدينة تاهرت ، على قول جورج مارسي ودوسوس ـ لامار ، على شكل مستطيل غير منتظم طوله 1100 م وعرضه يتراوح بين 700 و 800 م · (شكل 1)

ومن المبانى التى عثر عليها الآثريان نذكر آثار السور والقصبة ومخازن الماء ·

ـ ســور المدينــة :

كان ســــور المدينة مبنيا بالحجر ومحصن ببروج ذات قاعدة على شكل مضلع فى الزوايا وبدعائم مربعة يبلغ طول ضلعها 5 م فى الاضلاع · وكانت المسافة التى تفصل ما بين دعامتين متتواليتين 20 م ·

ـ القصبة (شكل 2) :

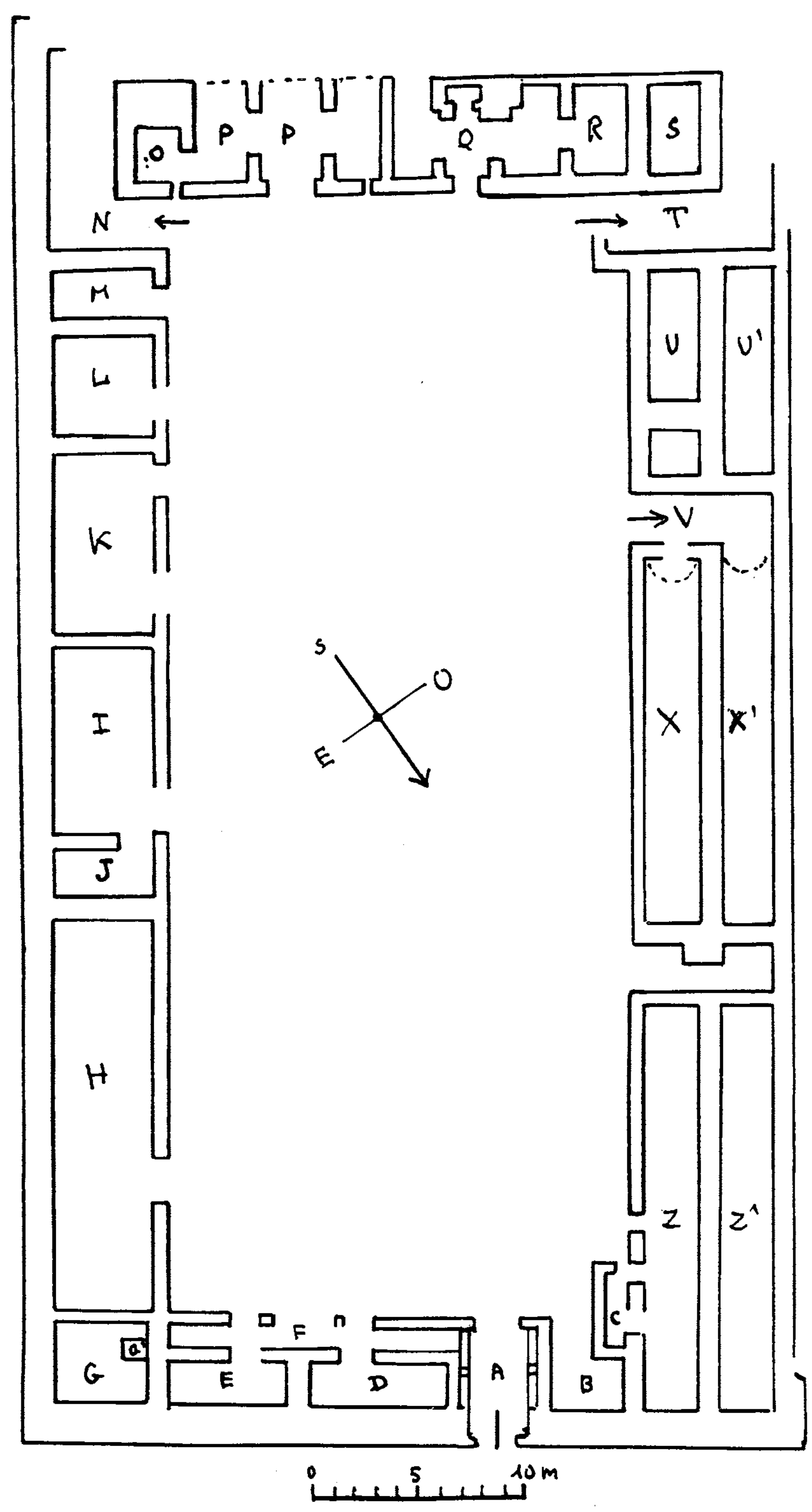
كانت القصبة على شكل مستطيل طوله 96 م وعرضه 33،65 م وتحتوى على بنائين متلاصقين احدهما على شكل مستطيل طوله 30 م وعرضه 33،65 م والقصبة بـذاتها التى كان يبلغ طولها 66 م وعرضها 33،65 م ·

لم يهتم جورج مارسى ودوسوس لامار اهتماما كبيرا بالبناء الاول ولكنهما أفادانا بتصميم دقيق للقصبة ·

كان للقصبة جدران مبنية بالحجر ومــــلاط من الجير يتراوح سمكها بين 1،44 م· و 1،50 م وباب واحد مفتوح فى الجدار الشمالى الشرقى يؤدى الى سقيفة طولها 5،10 م وعرضها 2،46 م محفوفة بمقعدين تفصلهما قاعدة من الاجر كانت تعلوها دعامــــة أو سارية تعتمد عليها القوسان اللتان كانتا تزينان السقيفة ·

وكانت هذه السقيفة تؤدى الى صحن طوله 53 م وعرضها 20 م مفرش بالحجــــر ومحاط بقاعات متلاصقة مختلفة الشكل من جهاته الاربع ·

وكانت القاعات الموجودة فى القسم الشمالى الشرقى والقسم الجنــوبى الغــربى تستعمل للسكن والقاعات الشرقيــة الجنــوبية تستعمل للحراسة أو كاصطبـلات والقاعات الشمالية الغربية تستعمل كمخازن · وفى طرفى القسم الجنوبى الغـــربى عثر جورج مارسى ودوسوس لامار على آثار سلمين كانا يؤديان الى الطابق الاول ·



شكل ٤. ـ تصميم قصبة تاهرت (عن ج. مارسي و ا. دوسولامار)

ـ مخازن المـاء (شكل 3) :

كان الرستميون يهتمون اهتماما كبيرا باعمال الرى وقيل ان من الاسباب التى دفعت عبد الرحمن بن رستم الى تشييد عاصمته بتاهرت هو انه وجد بها عدة عيون ·

ونجد على جانبى الطريق التى تعبر المدينة حاليا عددا كبيرا من المبانى المائية مثل العيون ومخازن الماء ·

وأهم هذه المبانى بناء يحتوى على ثلاثة أحواض رئيسية مستطيلة الشكل جدرانها مبنية بالحجر والملاط وملبسة بطلاء سميك · ونرى فى احد هذه الاحواض أربعة حزوز متقابلة زوجا زوجا تسمح بنزول حاجزى الحوض ورفعها · وكان ينزلون الحاجزين فى أيام الصيف ليحافظوا على مستوى الماء فى المخزن أو لتنظيف الحوض ·

هذه هى المبانى التى اكتشفت بتاهرت · هناك مبانى أخرى لم توجد بعد الا وهى المسجد والبيبان الاربعة ·

ان المسجد كان ما زال موجودا فى أيام البكرى (2) وكان يحتوى على أربع بلاطات ·

اما بيبان المدينة فكان عددها أربعة : باب الاندلس المفتوح فى الجدار الشمـــالى وباب المنازل الموجود بالجدار الجنوبى وباب الصبا المفتوح من جهة الشرق وباب المطاحن الموجود من جهة الغرب ·

وبجانب المبانى التى وصفناها فيما سبق عثر جورج مارسى على عدد لا بأس به من المطامير وكسر من الفخار ·

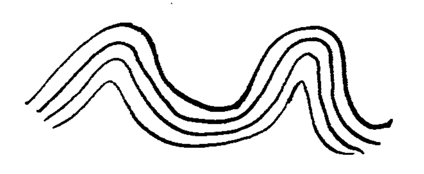
وبدون شك كان لمدينة تاهرت افران لشىء الفخار والدليل على ذلك هو وجـــود قطع من الفخار متلاصقة بعضها فى بعض وعوجاء ·

وكانت الكسر التى عثر عليها مصنوعة من طين أبيض وخوخى مغطى بطلاء أبيض مزين بزخرفة مسحوبة أو مجرورة يرسمونها بآلة على شكل مشط يضعونها على الطين قبل ان ييبس · فترسم هذه الآلة خطوطا متوازية مستقيمة أو منحنية · (شكل 4)

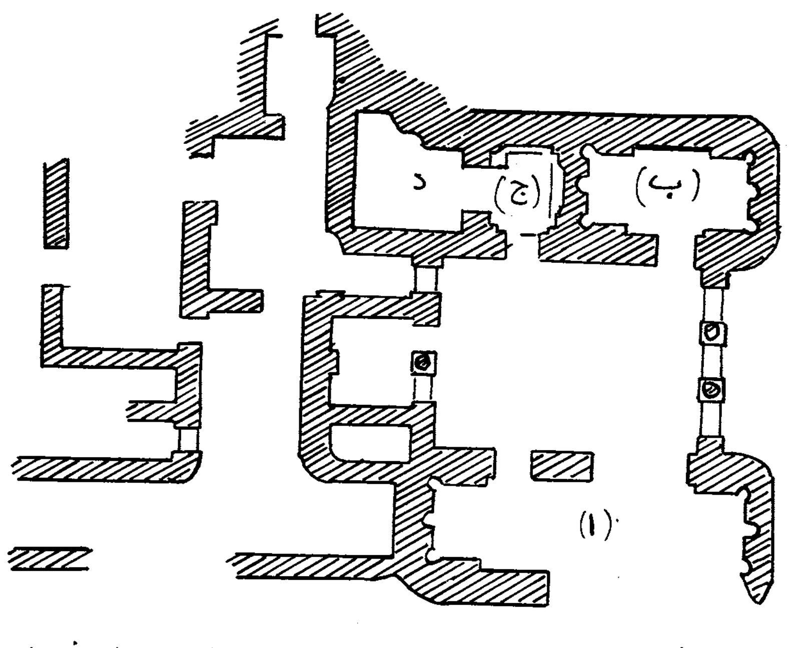
---

(2) البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص 66 ·

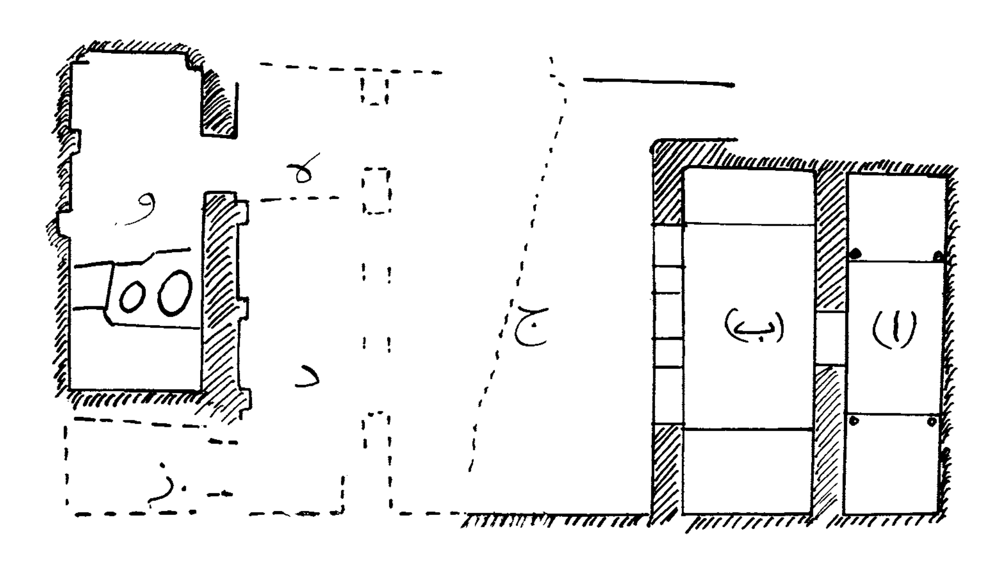
شكل ٣.- مخازن الماء (عن جورج ماسي ودوسوس- لامار



شكل ٤.- الزخرفة المسحوبة



شكل 5. ــ تصميم القصر ذي 34 حجرة (عن فوشي)



شكل 6. ــ تصميم الدار رقم 5 او دار المطامير
(عن مارقريد فان برشم)

ومن القطع التى اكتشفها جورج مارسى ودوسوس ـ لامار نذكر كسرة من فـــم جرة سمكها 7 سم وقطرها 50 سم وكسر من قلل وصحون وغطاء برادة مزين بقفلـــة مزخرفة بقوالب وقطع من مصابيح طويلة البلبل مغطاة بميناء أخضر وقطعة من مجمر ·

هذه هى النتائج التى اسفرت عليها حفريات جورج مارسى ودوسوس ـ لامـــار بتاهرت · والجدير بالذكر هو ان هذين الآثاريين لم يعثروا على أى قطعة زخرفية وهذا يرجع فى ضننا ، الى الحياة البسيطة التى كان يعيشونها الائمة الرستميين بصـــورة عامة وعبد الرحمن بن رستم بصورة خاصة · تلك الحياة التى وصفها لنا ابن الصغير فى النص التالى (3) :

وصل قوم البصرة الى مدينة تاهرت ودخلوها من الباب المعروف بباب الصبا يسئلون كل من لقوه من الناس عن دار الامام عبد الرحمن حتى وقفوا عليها واصابوا عند بابها غـلاما يعجن طينا ورجلا على سطح يصلح شقاقا فيه والغـــلام يناوله ما يصلح به · فسلموا على الغلام فرد السلام ثم قالوا : هذه دار الامام ؟ فقال نعم · فقالوا : استأذن لنا منه وأعلمه انا رسل اخوانه اليه من البصرة فرفع الغلام رأسه الى سيده وقد علم انه سمع كلامه فقال قل للقوم يصبرون قليلا ثم أقبل على ما كان عليه من اصـــلاح عمله حتى انقضى والقوم ينظرون اليه وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا ، حتى نزل عن سطحه الى داره فغسل ما كان بيديه من اثر الطين ثم توضأ وضوء الصـــلاة فأذن للقوم فدخلوا عليه فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد وليس فى بيته شيء سوى وسادته التى ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط فى ناحية من دارة فسلموا عليه واعلموه انهم رسل اخوانه اليه فأمر غلامه باحضار طعامه فأتاه بمائدة عليها قرص سخنت وسمن وشيء من ملح فامر بتلك القرص فهشمت وأمر بالسمن فلثت به ، ثم قال على اسم الله ادنوا وكلوا ثم أكل معهم باكلهم فلما انقض طعامهم قال ما مرادكم وما جاء بكم فقالوا له نحب ان تأذن لنا حتى نخلو فيما بيننا ثم نكلمك بعد ذلك فقال افعلوا فجلسوا نجيا فقال بعضهم لبعض يكفينا من السوال عنه ما رأينا منه مـن اصلاحه لداره بنفسه ومطعمه وملبسه وحيلة بيته فما نرى الا ان ندفع اليـه المـال

(3) ابن الصغير ، ذكر بعض الاخبار فى الائمة الرستميين ، ص II ـ I2 ·

ولا نشاور أحدا فيه وكان الذى معهم من المال ثلاثة احمال . فاجمع رأيهم على حمل المال اليه ورجعوا اليه ثم اقبلوا عليه فقالوا اعزك الله معنا ثلاثة احمال من بعث بها اليك اخوانك لتنفق بها على زمانك وتصلح بها شأنك فقال هذه الصلاة قد حضر وقتها ونحن نخرج الى المسجد الجامع فنصلى بالناس ونعلمهم بما جئتم به فقالوا الامر اليك فخرج وخرجوا حتى أتوا المسجد الجامع فصلى بالناس فلما انصرف من صلاته نادى مناد الا يختلف من كل قبيلة وجوههم ففعل الناس ذلك فلما انفض الناس وبقى من يفوض اليه الامر من وجوههم قال للرسل اعلموا اخوانكم بما جئتم له فاعلموهم بمثل ما اعلموه ثم عطف على الناس فقال ما ترون فقالوا ان هذا الرزق ساقه الله الينا من طوع اخواننا بلا سؤال منا فنرى ان ترسل الى هذا المال وتحضره بين يديك فتجعل منه ثلثا فى الكراع وثلثا فى السلاح وثلثا فى فقراء الناس وضعفائهم فقال للرسل قد سمعتم ما يقول اخوانكم فما تقولون قالوا نقول سمعا وطاعة فاحضروا المال فقال عبد الرحمن أريد أن تقيموا حتى بصرف المال فى وجهه ثم تنصرفون الى اخوانكم فتعلمونهم ذلك » .

2) الفـن الرستمى بسدراته :

فى سنة 547 هـ/908 م سمع الامام الرستمى يعقوب بن افلح بوصول الجيش الفاطمى الى تاهرت فجمع ما بقى له من اتباع مخلصين وخرج من عاصمته وسار نحو الجنوب وعند وصوله الى ناحية ورقلة وبالضبط على مسافة 14 كم جنوبى المدينة استقر بها وأسس مدينة صدراته التى عرفت ازدهارا كبيرا فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، والعاشر والحادى عشر الميلاديين .

وفى منتصف القرن الثامن الهجرى ، الثالث عشر الميلادى غادر سكان صدراتة مدينتهم وتوجهوا نحو ناحية مصاب .

وبعد مغادرتهم لمدينة صدراتة اندثرت المبانى التى كانوا شيدوها وخفيت تحت الرمال .

فقام الآثاريون لارجو (Largeaud) وطـــارى (Tarry) وبلانشى (Blanchet) وفوشى (Faucher) ومارقريت فان برشم (Marguerite Van Berchem) بحفريات (4) واستطاعوا ان يصفوا لنا مدينة صدراتة والمبانى التى اكتشفوها ٠

وكانت صدراتة فى عهد الرستميين على شكل مستطيل طوله 2000م وعرضه 1000م وتشتمل على عدة قرى صغيرة مبنية على تلل ٠ وقيل ان مدينة صدراتة تحتوى على 125 قرية تسقيها 1051 عينا ٠ وكانت طرق عديدة تجمع ما بين هذه القرى وتخرج مـــن المدينة وتعبر البساتين ٠

ورأت مارقريت فان برشم بقايا الاسوار والبروج وشبكة من السواقى التى كانت تسقى البساتين من صدراتة الى رويست وورقلة وواحات أخرى ، ومن بين المبـــانى التى اكتشفت نذكر : المسجد وقصرا القى عليه الآثاريون اسم « قصر ذو أربع وثلاثين حجرة » ودار المطامـير ٠

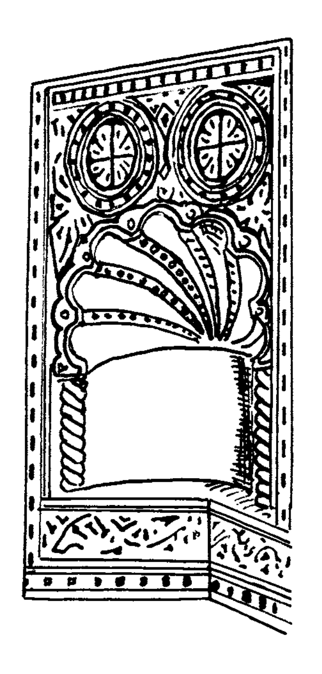
كان المسجد عبارة عن بيت فيه اثنتا عشرة دعامة اسطوانية الشكل مرتبة عـــلى ثلاثة صفوف تشكل خمسة أساكيب واربع بلاطات ٠ وكانت عشرون قبة مربعـــة القاعدة تعلو بيت الصلاة ٠

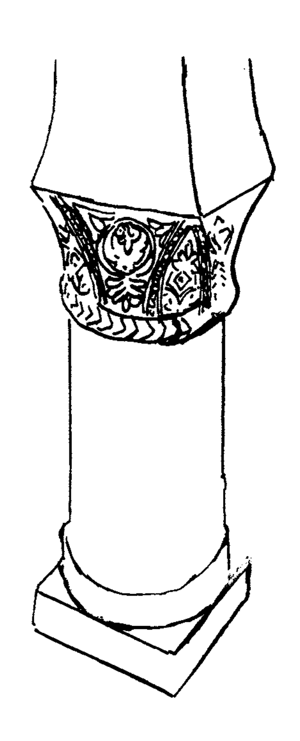
القصر ذو أربع وثلاثين حجرة (شكل 5) ٠

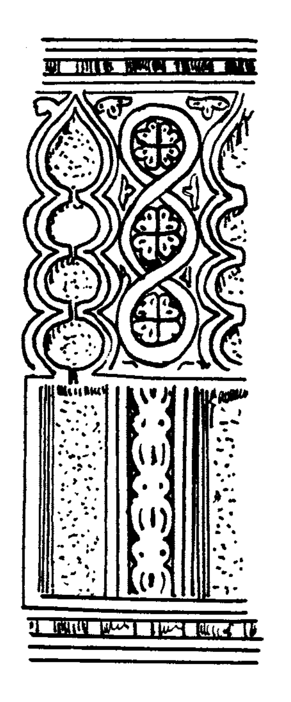
لم تتم حفرية هذا القصر وندخل فى القسم الذى اكتشف ووصل تصميمه الينـــا من باب مفتوح من جهة الشرق مزين بثلاث أقواس حدوية الشكل تعتمد على أربع سوارى اسطوانية الشكل تعلوها تيجان على شكل جذع هرم زواياه مقطوعة على شكل مثلثات منحنية الاضلاع مزينة بعناصر نباتية وهندسية ٠

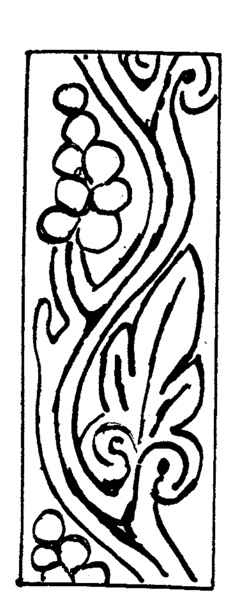
ويؤدى هذا الباب الجميل الى فناء طوله 7 م وعرضه 5 م نجد حوله أربع حجـــر رئيسية ٠ وأكبر حجرة فى هذا البناء هى الحجرة (1) التى تقع جنوبى الفناء ٠ فهى على شكل مستطيل طوله 8 م وعرضه 2،10 م مزين بمشكوات على شكل ثلاثة أربـــاع دائرة فى الزوايا وعلى شكل نصف دائرة فى وسط الجدارين الصغيرين وكانت هـــذه

(4) سنتحدث عن هذه الابحاث الاثرية فى ملتقى ورقلة ان شاء الله ٠









شكل ٧٠ - زخرفة جدارية

المشكوات مكللة بنصف قبيبة على شكل مدفة مزينة بالجص المنقوش ٠ ونجد شمالى شرقى الصحن الحجرة (ب) وهى على شكل مستطيل طوله 4،5 م وعرضه 2،10 م مزين بسبع مشكوات : أربع مشكوات فعرها على شكل ثلاثة أرباع دائرة فى زوايا الحجرة ومشكاتان نصف دائرية القعر فى وسط الضلعين الشرقى والغربى ومشكاة مسطحة القعر مزينة بالجص المنقوش فى وسط الجدار الشمالى ٠ وعلى يسار الحجرة (ب) نجد الحجرة (ج) فهى مربعة الشكل ويبلغ طول ضلعها 2 م ونجد فيها أربع أقواس : قوسان عمياءان فى الجدارين الشمالى والشرقى وقوسان عادبتان من جهة الجنوب والغرب ٠

ان هذه الحجرة احتفظت بزخرفة جدارها الشرقى التى تحتوى على حنية بارزة مزينة بالجص المنقوش ومشكاة مسطحة القعر يبلغ ارتفاعها 3 م وعرضها 1،60 م مزخرفة هى الاخرى بالواح من الجص المنقوش ٠

وبجانب الحجر (ج) نجد الحجرة (د) جدرانها بدون زخرفة اما الدار رقم 5 أو دار المطامير (شكل 6) فتقع قرب السور الغربى للمدينة ولها جدران مبنية بالحجر الملبس بالجبس المحلى ٠ فتشتمل هذه الدار على فناء واسع على يمينه وعلى يساره حجر عديدة ٠

على الجهة اليمنى نجد حجرة طولها 7 م وعرضها 2،50 م فى طرفيها ايوانان ، ايوان شمالى وايوان جنوبى وندخل فى هذه الحجرة وهى الحجرة (ب) من باب عرضه 4 م مزين بثلاثة أقواس حدوية الشكل تعتمد على سوارى أنبقة الى الغاية ٠ ونلاحظ ان مستوى أرضية الايوانين مرتفع شيئا ما بالنسبة الى مستوى أرضية وسط الحجرة ٠

وفى وسط الجدار الشرقى للحجرة (ب) نجد بابا عرضه 1 م يؤدى الى حجرة ثانية ، الحجرة (1) التى تبلغ طولها 7 م وعرضها 2،10 م ٠ وللحجرة (1) ايوانان مثل الحجرة (ب) ولكنها تختلف عنها بالقوسين اللتين تقسمانها الى ثلاثة أقسام ٠ وتعتمد هتان القوسان على أربع سوارى : ساريتان موضوعتان على طرف الايوان الشمالى وساريتان موضوعتان على طرف الايوان الجنوبى ٠

ومن بين الحجر الموجودة على يسار الفناء ، حجرة تستحق اهتمامنا الا وهى الحجرة (ز) لان مارقريت فان برشم وجدت بها مطمورتين كانوا يضعون فيهما التمور ٠

هذه هى المبانى الرئيسية التى عثر عليها الآثاريون الذين أجروا حفريات بصدراتة وكما لاحظناه هذه المبانى تختلف عن المبانى التى اكتشفت بتاهرت بالزخرفة الانيقة التى تـزينها •

وتحتوى هذه الزخرفة على عناصر معمارية من سوارى وتيجان وأقواس مختلفـة النوع ومشكوات وعلى عناصر نباتية من غصون ملتوية وأوراق الكرم وعناقيد العنب وعلى عناصر هندسية من مربعات ولآلىء ودوائر ـ ودوائر مفصصة وورود وزهـــور مستديرة ، أو على شكل الاقحوان ، ومضرسات (شكل 7) •

وهكذا الفن الرستمى الذى كان بسيطا بتاهرت تطور بصدراتة وأصبح يحـل مكانا ممتازا فى تاريخ الفن الاسلامى المغربىـط •

لمحات من دور الدولة الرستميــة في ميادين الحضارة والفكر لبعض الباحثين القدامى والمتأخرين

المهدى البو عبدلى
نائب رئيس المجلس
الاسلامى الاعلى ـ الجزائر



تكونت دولــة بنى رستــم فى تاهرت حــوالى سنة 160 هـ 776 م • وكانت هى الدولة الثانية التى تكونت بالجزائر بعد الفتح الاسلامى •

اذ كانت الدولة الاولى التى سبقتها ، هى دولــة بنى خزر المغراويين الزناتيين ، الذين كانت لهم امارة قبل الفتح ، ما بين سهول مليانة وتلمسان ، ولما أسلم زعيمهم على يد الخليفة عثمان من عليه الخليفة ، وأقره على حكم امارته كما هو معروف عند جل المؤرخين •

اما دولة بنى رستم التى تكونت بتاهرت ، فكانت دولة مستقلة عن الخلافـــة ، ومتمردة عليها ، وهى تختلف عن دولة بنى خزر من عدة نواحى ، فدولة بنى خــزر

كانت تجمع بين افرادها عصبية الفبيلة ، ودولة بنى رستم كانت تتكون من قبائل شتى بربرية وعربية وفارسية ، وان كان اكثرها من العنصر البربرى ، الذى اعتنق فكرتها بمجرد وصول دعاتها ، وكانت كل هذه العناصر التى تكونت منها الدولة الرستمية ، تجمع بينها فكرة عقائدية وهى فكرة الخارجية الاباضية ، التى ظهرت بعد واقعة صفين ، المشهورة فىّ تاريخ الاسلام . وقبل ان ندخل فى صميم موضوع بحثنا نتعرض بايجاز لتاريخ ظهور المذهب الخارجى ، حسبما ذهب اليه جل مؤرخى المذاهب الاسلامية ، ظهر « الخوارج » فى واقعة صفين ، التى انبثقت عنها الدعوة الى التحكيم ، وكان الدعاة الى التحكيم فى طليعة من اتهموا الراضين به بالكفر ـ ان لم يتوبوا ـ واتخذوا شعارا ، كتب له الخلود وهو « لا حكم الا لله » .

ان فكرة الخوارج وفرقهم كالاباضية والصفرية وغيرهما ، قتلت بحثا ، وبطبيعة الحال ، احدثت هزة فى البلاد الاسلامية ، شرقا وغربا . واعتنى بها الباحثون ومؤرخو المذاهب على اختلاف مللهم ونحلهم واجناسهم ، ولا زال معينها لم ينضب بعد ، ولا نبالغ ان قلنا ان هذا المذهب ، رغم قلة إتباعه ، حظى باعتناء كبار قادة الفكر العالميين مسلمين واجانب ، ومن بينهم المستشرقون ، الذين خصصوه بتآليف قيمة ، حللوا فيها المذهب الاباضى ، والمراحل التى اجتازها بالمشرق ، ثم بالمغرب ، كما تعرضوا لتطور المذهب ، بعد ان اطاح الملوك الفاطميون بالدولة الرستمية ، وقضوا على مملكتهم بتاهرت سنة 296 هـ .

والذى سهل مهمة هؤلاء الباحثين من المستشرقين هو اكتشافهم لمصادر هامة ، اعتنى فيها مؤلفوها بتسجيل تاريخ المذهب الاباضى ، وتاريخ حياة مجتمعه منذ ظهوره ، ثم مراحل تطوره بالمشرق والمغرب ، فسجلوا فيها ما يعبر عنه فى زماننا هذا « بالحياة اليومية » وهذا ما نتعرض له بتفصيل فى هذه الدراسة التى هى كما يدل عليها عنوانها : « التعريف بالدولة الرستمية » ، ثم الدور الذى قامت به فى مجالات الحضارة والفكر ، عملا بالقول المأثور « ما لا يدرك كله ، لا يترك جله » .

ان جل مصادر تاريخ الدولة الرستمية كما ذكرنا معروف لدى الباحثين ، والكثير منه اكتشف بوادى مزاب ، وهذا من الادلة على ان الدولة الرستمية ، ولو فقدت كيانها كدولة مستقلة منذ احد عشر قرنا ، فانها أورثت جاليتها التى التجأت الى الصحراء عبء الامانة التى تجلت فى المحافظة على الشعائر الدينية ومبادىء المذهب الاباضى ، ثم التراث الذى يرونه جزءا لا يتجزؤ عن سيادة الدولة ونظام حكمها ، اذ كانت الدولة لا ترتبط بالمحافظة على قطعة التراب ، بل كانت الدولة نفسها فى خدمة المجتمع ، المرتبط بمذهبه العقائدى ، وان فقدت الدولة كيانها ، فجماعة المسلمين مطالبون ، بمواصلة أعمالها من حيث تطبيق تعاليم المذهب ، وما امكنهم من تطبيق نظام الحكم فى مجالات الاقتصاد والقضاء والسياسية ... الخ . كما هو معروف عند دارسى المذهب الاباضى ، ولننتقل الى الحديث عن التراث الذى احتفظ به الاباضيون .

كان الكتاب الاول من كتب التراث الاباضى هو « تاريخ الائمة الاباضية » لابن الصغير التاهرتى الذى وصلنا على طريق المستشرق الفرنسى موتيلانسكى Motylinski المدير – فى عهده – بالمدرسة الرسمية بقسنطينة ، فقد نشر تلخيصا منه سنة 1885م . ثم عززه بنشر النص الكامل بالعربية مع ترجمته الى الفرنسية ، وذلك فى المؤتمر الدولى الرابع عشر للمستشرقين ، المنعقد فى مدينة الجزائر سنة 1905 .

واضاف الى نشر النص تعاليق مفيدة من بينها ترجمة المؤلف ، واثبت ان هذا التأليف لا توجد منه الا نسخة واحدة ببلاد مزاب . كما ان تعاليق موتيلانسكى تشمل تاريخ ابتداء ظهور المذهب الاباضى بالمشرق ، والظروف التى انتقل فيها الى المغرب ، والاحداث السياسية التى سبقت تأسيس الدولة الرستمية بتاهرت .

وقد جمع ابن الصغير فى تاليفه «تاريخ الائمة الاباضية» ابتداء من تولية عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة ، وانهاه بولاية ابى حاتم يوسف بن الامام أبى اليقظان الذى عزل سنة 281 هـ . ويظهر ان ابن الصغير أتم تأليفه سنة 290 هـ ، اى قبل سقوط الدولة الرستمية بست سنوات .

وميزة التاليف ان كاتبه سجل كثيرا من الاحداث التى شاهدها او استقى رواياتها من عناصر مختلفة من سكان المملكة غير مقيد بالعواطف المذهبية ٠

والمصدر الثانى من كتب تراث الدولة الرستمية هو «كتاب السيرة واخبار الائمة» لأبى زكرياء يحيى بن ابى بكر السدراتى الورثلانى المتوفى سنة 471 هـ ـ1078 م ٠ وقد ترجم هذاالتاليف المستشرق الفرنسى ايميل ماسكرى Emile Masqueray سنة 1878 م ، ثم ظهرت منه نسخ اخرى حوالى سنة 1930 فاختار المستشرق الفرنسى

روجير Roger Le Tourneau اختار اصحها وترجم ثلثها الى الفرنسية ، ومهد لترجمته تقديما لخص فيه محتوى التاليف ، قال فيه : «ان هذا التاليف يذكر فيه صاحبه تاريخ انتشار المذهب الاباضى بالمغرب ، ومن قام بهذا النقل ونشر الدعوة وحصر ذلك فى خمسة اشخاص ذكرها باسمائها ، كان من بين هؤلاء الاشخاص ابو الخطاب عبد اللـه ابن السمح المعافرى (العربى) وعبد الرحمن بن رستم (الفارسى) ٠ ثم يتعرض لسند صاحب التاليف ابى زكرياء يحيى بن ابى بكر السدراتى فى روايته التى تتصل بالامام افلح الذى يروى عن ابيه عبد الوهاب وهو يروى بدوره عن ابيه الامام عبد الرحمن بن رستم ـ مؤسس الدولة ـ الذى يتصل نسبه الى الملك الفارسى سابور ذى الاكتاف ، ثم يختم المؤلف فصله بترجمة حياة عبد الرحمن بن رستم بتدقيق وتفصيل ، كما ترجم بقية الافراد الخمسة واحدا واحدا ٠ وهؤلاء الافراد ـ كما ذكرنا ـ هم دعائم نشر المذهب الاباضى ببلاد المغرب » ٠

كما نجد من جملة مصادر التراث الاباضى التى وصلتنا كتاب « طبقات المشائخ » لابى العباس أحمد الدرجينى الذى ألفه بعد سنة 626 هـ ، ثم كتاب «السير» لابى العباس احمد الشماخى المتوفى سنة 928 هـ ٠

يرى مؤرخو المذهب الاباضى من المستشرقين ان كتاب «السير» للشماخى هو احسن المصادر ، اذ اعتنى به صاحبه اعتناء دل على تعمقه فى البحث والنزاهة ، استقى الشماخى مصادره فيه من التآليف الاباضية وغير الاباضية ، وقد حظى هذا التاليف باهتمام المستشرق البولندى طادويز ليفيسكى Tadeuz Lewicki الاستاذ بجامعة

كراكوفيا Cracovie (Pologne) ، والمستشرق ليفيسكى هذا من ابرز المتخصصين فى تاريخ الصحراء بصفة عامة ، وتاريخ الاباضية بصفة خاصة ، ولهذا كان تحقيقه لتأليف الشماخى تحقيقا علميا جامعا لكل ما عرف عن تاريخ المذهب الاباضي ورجاله ، ولأهمية التاليف الذى علاوة على ما ذكرناه ، استوعب فيه صاحبه كل ما سبقه من التآليف ـ الموجودة والمندثرة ـ ونظرا لعدم انتشار تآليف المذهب الاباضى بالمكتبة العربية ، ومعظم ما برز الى الوجود منه فقد أو نشر فى بعض سجلات المؤتمرات أو المجلات المتخصصة فى هذه البحوث وهى محدودة النشر ، رأيت تلخيص تقريظ المستشرق ليفيسكى لتأليف الشماخى ليأخذ القارىء ـ الذى لم يسبق له اطلاع على تاريخ المذهب الاباضى بتفاصيله ـ صورة ولو مصغرة عن تاريخ الدولة الرستمية والمذهب الاباضى .

تعرض ليفيسكى فى تقريظه الى ترجمة المؤلف ابى العباس احمد بن عثمان الشماخى الذى ينتمى الى اسرة علمية ، توارث افرادها العلم قرونا بجبل نفوسة ، وامتاز الشماخى بسعة الافق ، وحرية الفكر ، حيث لم يقتصر فى مصادره على المصادر الاباضية فقط ، بل كثيرا ما اعتمد المصادر غير الاباضية ، ظهر تاليف «السير» هذا بجبل نفوسة (ليبيا) لاول مرة ، ووصلت منه نسخة الى اوروبا حوالى سنة 1860 ، على طريق الرحالة الفرنسى هنرى دوقيرى Henri Duveyrier وبعد سنوات من وصولها ، امكن للباحث ماسكرى Masqueray ان يحصل على نسخ منها بمزاب ونفوسة ، فترجم بعض الفصول الاولى منها تشمل تاريخ حياة الاباضيين بالمشرق ، وذلك فى تعليقه على ترجمة «كتاب السيرة واخبار الايمة» لابى زكرياء يحيى الورثلانى الذى ترجمه وطبعه بالجزائر سنة 1878 م .

وفى سنة 1301 هـ . ظهرت طبعة تأليف الشماخى (السير » بمصر قام بها الشيخ سليمان بن مسعود النفوسى ، الذى كان من سكان مدينة قسنطينة ، ثم اهتم بهذا التأليف الاستاذ ليفيسكى البولدى ، فخصصه بدراسة علمية نادرة المثال، نشرها فى مجلة البحوث الاسلامية ـ سنة 1934 ـ وفيما يلى فقرات نقلناها من هذه الدراسة

أو التقريظ ، قال المستشرق ليفيسكى بعد ان تعرض باسهاب لترجمة الشماخى وأسرته قال : ان « كتاب السير » عبارة عن مجموع لتراجم المشائخ الاباضية ، ابتداء من ظهور المذهب الاباضى الى عهد المؤلف الشماخى (القرن العاشر الهجرى) .

فهذه التراجم هى التى ركز عليها المؤلف كتابه ، ومن خلال هذه التراجم الثرية بالتفاصيل التاريخية التى وان كانت غير مرتبة ، فهى تفيدنا بحالة البلاد الاسلامية من أول عهدها ، كميلاد أو ظهور الخوارج ، وانتفاضات الاباضية وتمرداتهم ، وفى الاخير ، نشاطات الحركات الاباضية فى افريقيا الشمالية ، تلك الحركات التى نشأت عنها بالمغرب الاوسط دولة الائمة الرستميين القوية ، التى يشمل تاريخها بتمامه « كتاب السير » ، كما يشمل الكتاب أيضا عدة تفاصيل ، تصور لنا الحياة الاجتماعية لسكان البربر ، وعوائدهم ، تشملها تراجم المشائخ الاباضيين من افريقيا الشمالية الذين ينتمون فى أغلبهم الى الجنس البربرى .

ثم واصل المستشرق ليفيسكى تقريظه بقوله « ان المؤلف ـ أى الشماخى ـ سلك فى تأليفه سلوكا منظما لم يقتصر فيه على ذكر الاحداث المنقولة من الكتاب المتقدمين ، بل كان يقارنها مع غيرها ، ويستنتج المختار منها ، كما كان يذكر دائما المصادر التى اطلع عليها واعتمدها ، ولهذا أطلعنا على فقرات عديدة من تآليف قديمة ، يرجع عهدها الى أواخر القرن الاول ، والقرن الثانى من الهجرة » .

ثم يواصل حديثه فيقول : « ونظرا لظهور فهرس « كتاب السير » الذى نشر (يشير بهذا الى الفهرس الذى نشره موتيلانسكى Motylinski ـ المتقدم الذكر ـ سنة 1885) فاننى اقتصر على ذكر محتوى التأليف الذى يمكننا ان نقسم الحديث عنه الى قسمين : القسم الاول يشمل تاريخ الاباضية ، وبدايته بالمشرق (ص 1 ـ 123) .

والقسم الثانى وهو الاهم (ص 123 ـ 577) نستعرض فيه مراحل الاباضية بالمغرب ، فالقسم الاول ذكر فيه حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) (ص 1 ـ 16) ،

وحياة الخلفاء الاربعة وبداية الحركة الاباضية بعد واقعة صفين ونهروان (ص 16 ـ 53) ثم يذكر تراجم الائمة والمشائخ الاباضيين بالعراق والبصرة وعمان وحضرموت حتى نهاية القرن الثانى الهجرى (ص 53 ـ 123) .

اما القسم الثانى من « كتاب السير » (ص 123 ـ 138) فقد استعرض فيه المؤلف تاريخ دخول الاباضيين فى افريقيا الصغرى والائمة الاباضيين فى هذه البلاد ، ثم يحدثنا المؤلف عن دولة بنى رستم ويمزج حديثة بكثير من التراجم (ص 136 ـ 272) ، ويختم حديثه بتراجم المشائخ بالمغرب (ص 272 ـ 577) .

كما نقل المؤلف بعض الوثائق والرسائل القديمة جدا مثل رسالة الامام عبد الوهاب الى مشائخ نفوسة (ص 180 ـ 181) ، التى يظهر انها نقلت من مجموع « اجوبة الائمة » ثم يتعرض المستشرق ليفيسكى الى المصادر التى اعتمدها الشماخى فى تأليفه المذكور « السير » فيقول ان المؤلف ولو كانت معظم مصادره اباضية ، فانه اعتمد أيضا المصادر الغير الاباضية، وبدأ باستعراض المصادر الغير الاباضية فذكرها حسب الترتيب التالى :

1 ـ ان اقدم مصدر غير اباضى اعتمده الشماخى ، هو تاليف منسوب الى شخص يدعى ابن الصغير ، فقد ذكر هذا التاليف عند حديثه على تاريخ الرستميين (ص 192 ـ 221) وتأليف ابن الصغير هذا ألف فى تاهرت حوالى سنة 290 هـ . وقد نشره موتيلانسكى الذى اعطى بسطة عن التاليف وصاحبه .

2 ـ المصدر الثانى الغير الاباضى لكتاب الشماخى ، هو لمؤلف شهير : أبو الحسن على حسين المسعودى المتوفى سنة 345 هـ ـ 956 م . نقل عنه الشماخى عدة مرات عند تعرضه لتاريخ الخلفاء الاوائل (ص 10 ـ 31 ـ 32 ـ 39 ـ 40 ـ 59) .

3 ـ المصدر الثالث الغير الاباضى الذى اعتمده الشماخى هو تاليف ابن الرقيق ، أى أبو اسحاق ابراهيم ابن القاسم ابن الرقيق المؤرخ العربى فى القرن الرابع الهجرى ، (المتوفى سنة 383 هـ ، ـ 993 م) .

كان ابن الرقيق يعيش فى مدينة القيروان فى عهد الدولة الزيرية (زيرى بن مناد الصنهاجى) حيث ألف ديوان شعر ، وتاريخ فى نسب البربر ، وتاريخ افريقيا الشمالية ، ان هذا التأليف الاخير الذى كتبه بعد سنة 377 هـ · ـ 987 م · كان مصدرا للشماخى فى تأليفه « السير » اذ ذكر فيه تاريخ الاباضية فى افريقيا (ومن ذلك غزو القيروان لابى الخطاب المعافرى الامام الاول للاباضية) (ص 127) وقضية ابن طولون (ص 168) ·

وبعد انتهائه من ذكر المصادر الغير الاباضية ، انتقل الى عرض المصادر الاباضية فقال عنها : « اما فيما يخص المصادر التى اعتمدها الشماخى فى « كتاب السير » فاقدمها وصلنا من مؤلفين شرقيين هما من البصرة وعمان ، أولهما « كتاب النهروان » المذكور فى تأليف الشماخى مرارا (ص 51 ـ 55) والمتعلق بقضية التحكيم بعد واقعة صفين ، ومعركة النهروان ·

وبعد ان يذكر ليفيسكى سند صاحب « كتاب النهروان » ينتقل الى المصدر الاباضى الثانى فيقول :

« ومن مصدر قريب العهد « للسير » كتاب « المسند » للربيع بن حبيب ـ ترجمه الدرجينى فى طبقاته ـ كان الربيع هذا يعيش فى أواسط القرن الثانى الهجرى ، ومسكنه بمدينة البصرة ، ثم انتقل الى مكة ، كان الربيع هذا محترما عند مواطنيه الى حد التقديس ، ويعد عندهم من اكابر أئمة المذهب ، وتأتى منزلته بعد منزلة استاذه الامام عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى ، مباشرة ، يحتوى كتاب « السند » على ثلاثة اجزاء الا انه كان غير مرتب الى ان تولى ترتيبه أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى (الذى كان يعيش فى مدينة ورقلا فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) ·

ويظهر ان الشماخى الذى يذكر هذا التأليف فى صفحات 104 ـ 113 ـ 117 كان من جملة مصادره ، وقد اطلع على النسخة المذكورة اى التى رتبها يوسف بن ابراهيم السدراتى المذكور لا النسخة الاصلية ·

(6) ان فصول «كتاب السير» المتعلقة بتاريخ الاباضية فى المشرق ، وتراجم مشائخ البصرة ، عمان ، حضرموت الخ ، اعتمد فيها الشماخى على «كتاب ابى سفيان» حيث ذكره مرارا (ص 67 ـ 117) · ان صاحب هذا التاليف يدعى ابو سفيان محبوب بن الراحل ، الذى كان حيا فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، وذلك فى أواخر عهد الامام الاباضى عبد الوهاب بتاهرت ، وأسرة أبى سفيان المذكور تنتمى الى قبيلة قيس العربية ، وعند ثورة (شبيب) الاباضى سنة 77 هـ · كانت أسرة أبى سفيان تسكن مدينة البصرة ، فى حى الازدى ثم يذكر الشماخى ان من جملة مصادر كتاب « أبى سفيان » أبو نوح صالح الدهان ، عالم اباضى من علماء النصف الاول من القرن الثانى الهجرى ، وهو من معاصرى ابى سفيان الا انه أسن منه ، وفى نفس العهد الذى ظهر فيه تأليف ابى سفيان المذكور ، ظهر تأليف آخر يعرف « بكتاب الحجة على الخلق فى معرفة الحق » لابى صفرة عبد الملك بنصفوة شيخ من مشائخ النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ·

8 ـ ومن مصادر الشماخى الاباضية كتاب ابن سلام بن عمر الاباضى الذى كان يعيش فى منتصف القرن الثالث الهجرى (وقد ذكره الشماخى فى (ص : 133 ـ 135 141 ـ 142 ـ 161 ـ 162 ـ 260 ـ 262) ·

كان صاحب هذا التاليف (أى ابن سلام) من سكان افريقيا ، سكن مدينة توزر قبل سنة 240 هـ · وقد ألف كتابه بعد سنة 260 هـ · اذ ذكر لنا فى تاليفه احداثا وقعت فى تلك السنة ـ أى سنة 260 هـ ـ ·

كما تحدث ابن سلام فى تاليفه عن المشائخ الاباضية من شمال افريقيا مثل ابى صالح النفوسى وابن نصر النفوسى معاصر المهدى النفوسى ·

9 ـ ثم ظهر تاليف آخر من افريقيا الشمالية اعتمده الشماخى ، وهو تاليف الشيخ ابى الربيع سليمان بن يخلف المتوفى سنة 471 هـ · وهو مدفون بورقلة ، واسم التاليف « كتاب فى الكلام وفى أصول الفقه » وقد نقل منه الشماخى عدة فقرات (ص : 176 ـ 215 ـ 226 ـ 227 ـ 231 ـ 237 ـ 239 ـ 263 ـ 353 ـ 433) ·

وقد طبع هذا التأليف بتونس سنة 1321 ·

10 ــ ثم قال المستشرق ليفيسكي : « انني لم اشتغل بكتاب ابى زكرياء يحيى ابن أبى بكر الورقلانى المصدر المختار للشماخى فيما يخص الدولة الرستمية التى ذكــرها فى صفحــات (128 ــ 135 ــ 143 ــ 148 ــ 151 ــ 155 ــ 161 ــ 164 188 ــ 192 ــ 193 ــ 214 ــ 221 ــ 229 ــ 262 ــ 268 ــ 270 ــ 272 ــ 279 ــ 282 287 ــ 319 ــ 387 ــ 406) ·

وذلك انه يمكن الاطلاع على ما يتعلق بهذا التأليف ، من مجموع مقالات موتيلانسكى وماسكورى (Masqueray - Motylinski) (وهذا الاخير ترجم تأليف الورقلانى ولو كانت ترجمته رديئة) ·

ــ وقد تقدم لنا فى أول هذه الدراسة ، ان تأليف الورقلانى ، اعيدت ترجمته ، على ضوء النسخ التى اكتشفت بعد النسخة التى ترجمها ماسكورى - Masqueray ، وتولى الترجمة الاخيرة المستشرق الفرنسى روجير لوتورنو Roger Le Tourneau، ترجم ثلثها ، وواصل الترجمة الاستاذ ادريس التونسى ·

11 ــ ثم ذكر ليفيسكى انه بفضل «كتاب السير» أمكن للباحثين والمؤرخين ان يطلعوا على آثار تاريخية هامة ، منها « كتاب السؤالات » لعالم من علماء القـــرن السادس الهجرى ، وهو عثمان بن خليفة السوفى الاباضى (ص : 486) وقد استدل به الشماخى فى صفحات (212 ــ 262 ــ 465 ــ 466 ــ 486 ــ 552 ــ 533) ·

12 ــ كما ذكر الشماخى أثرا آخر ذا أهمية عظمى للمعنيين بتراجم مشائخ جبل نفوسة ، وهذا الاثر هو « كتاب سير مشائخ نفوسة ، ويعرف أيضا « بالســـير » ، احتفظ لنا الشماخى بقطع هامة من هذه الكتاب فى تأليفه من (ص : 143 الى 344) ·

ويظهر ان صاحب التأليف من جبل نفوسة ، واسمه مقرين بن محمد البغطورى ، وقد ألفه سنة 599 هـ · ومحتوى هذا التأليف يظهر من آثار استاذ البغطورى ، وهو

الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسعود الذى كان مشهورا بتضلعه فى علم التراجم ، وقبل ان يختم ليفيسكى تقريظه قال : « وزيادة على المؤلفين المذكورين الذين اعتمدهم الشماخى يمكننا ان نضيف اليهم « كتاب الطبقات » للدرجينى ، الذى ألف بعد سنة 626 هـ · ثم ختم تقريظه لتاليف الشماخى بقوله : « والذى يهمنا ان نلفت اليه انتباه القراء ، ان أسلوب الشماخى فى تاليفه ، أسلوب راق بالنسبة لبقية التآليف الاباضية بافريقيا الشمالية ما عدا « الطبقات » للدرجينى ، ثم قال : « ويظهر ان المؤلف ـ أى الشماخى ـ كان يجد صعوبة عندما ينقل عن التآليف الاباضية ، التى يصلح اخطاءها فى الرسم ، والاسلوب ، وهى طريقة لا تعين على الاستفادة من النصوص ، وكثيرا ما تتسبب فى سوء الفهم » اهـ · تقريظ المستشرق لويكى ·

نكتفى بهذه النماذج من الباحثين الذين كان جلهم مستشرقين ، وقد جمعوا تراث الدولة الرستمية وحققوه تحقيقا علميا دقيقا ، موضوعيا ، نزيها ، ولننتقل الى ذكر جوانب من دور الدولة الرستمية فى المجالات الحضارية والفكرية ، كما يدل عليه عنوان الدراسة ، ففى الميدان الحضارى ، نجد آثار الابنية العامة والخاصة بمدينة تاهرت ـ عاصمة الدولة ـ وقد استخرجها الباحثون من تاليف ابن الصغير بتفصيل كما تعرض لها بعض الاثريين المتأخرين مثل جورج مارسى الاستاذ بجامعة الجزائر فى عهده ، والمتخصص فى الفن المعمارى الاسلامى ، كما تعرض الاثريون الى آثار فنهم المعمارى الذى اكتشفوه بسدراته ، التى التجأوا اليها بعد سقوط الدولة الرستمية بتاهرت ، وبعض ما تبقى من الآثار القديمة بغرداية وبقية القصور المحاطة بها ، التى راعوا فيها المحافظة على التقاليد والعوائد وما يتطلبه الامن العام والخاص ، وقد تعرض كثير من الاختصاصيين للفن المعمارى بمزاب قديما وحديثا ، ومنها كتاب خاص بالفن المعمارى بغرداية ، سماه صاحبه « الحضارة المعمارية فى مزاب » ومؤلفه هو الكاتب مارسيل مرسى Marcel Mercier ، الا ان نشاطهم الجوهرى فى الميدان الحضارى الذى خلده لهم التاريخ ، يظهر جليا فى التجارة ، وربط الصلة بين السودان وبلاد الشمال الافريقى ، اجمع المؤرخون والرحالون انهم كانت لهم مراكز تجارية هامة فى

اوداغست عاصمة الصحراء الشهيرة فى القرن الرابع الهجرى ، التى اشتهـرت بمناجمها الذهبية والتى كانت ترد اليها قوافل المشرق والمغرب ، وقد ذكر البكرى عند ما وصف اوداغست ان معظم تجارها كانوا من قبائل الشمال التى كان يستوطنها الاباضيون ، وفى ذلك قال فى وصفه لاوداغست : « هى مدينة كبيرة وبها آبـار عذبة ، والبقر والغنم أكثر شيء عندهم ، يشترى بالمثقال الواحد عشرة اكبش واكثر ، وعسلها أيضا كثير ، يأتيها من بلاد السودان · وهم ارباب نعم جزلة ، وأمـوال جليلة ، واسواقها عامرة الدهر كله ، وتبايعهم بالتبر ، وليست عندهم فضة ، وبها مبان حسنة ، ومنازل رفيعة ·

ـ ثم يذكر سكانها فيقول : « وسكانها أهل افريقيا ، وبرنجاتة ، ونفوسة ، ولواتة وزناتة ، ونفزاوة هؤلاء اكثرهم ، وبها نبذ من سائر الامصار » اهـ ·

(ولنعلم ان برنجاتة ، ونفوسة ، ولواتة ، ونفزاوة اباضيون) ·

وفى هذا الموضوع ـ أى النشاط التجارى للاباضيين بالصحراء والسودان ـ قدم المستشرق ليفيسكى دراسة عامة لمؤتمر المستشرقين المنعقد بموسكو سنة 1960 تحت عنوان « تجار ودعاة اباضيون فى السودان الغربى والاوسط من القرن الثامن الى القرن الثانى عشر ميلادى » وقد علق على هذه الدراسة الاستاذ كنار الفرنسى ـ من اساتذة جامعة الجزائر فى عهده ـ ونشر تعليقه فى المجلة الافريقية (عدد 466 ـ 467 سنة 1961) ، فقال بعد ان عرف بصاحب الدراسة ليفيسكى وتخصصه فى البحوث الصحراوية والاباضية قال : «ان المؤلف (أى ليفيسكى) اعتمد على ما كتبه فى الموضوع الاستاذ شاخت الالمانى » Schacht ثم قال : « ان من جملة تأثير الاباضيين فى السودان ما عثر عليه فى الفن المعمارى الدينى ، الذى هو شبيه بالفـن المعمـارى الموجود فى الجنوب التونسى وبلاد مزاب» ، ثم قال : « كما ذهب ـ ليفيسكى ـ الى ان الاباضيين نشروا الاسلام عند السود ، معتمدا فى ذلك على ما ذكره الرحالة ابن بطوطة وكذلك الشماخى ، ويؤيد هذا الرأى ما نجده فى تأليف البكرى ، كما اشار الى ذلك بعض المؤلفين الاباضيين كابن الصغـيـر وابى زكـرياء الورقلانى ، والدرجينى ،

والشماخي ، الذين اثبتوا العلائق التجارية التى كانت بين سكان افريقيا الشمالية الاباضيين والسودان من القرن الثامن الى القرن الثانى عشر الميلادى » .

وقد تعرض المستشرق ليفيسكي الى محطات القوافل التجارية التى كانت تربط بين مدن الساحل الافريقى والسودان ، وكانت محطة ورقلا من أهمها » اهـ .

واصل الاباضيون نشاطاتهم فى الميدان الاقتصادى ـ قوة وضعفا ـ عبر التاريخ الى العهد التركى ، حيث ذكر الرحالة الفرنسى فنتير دو باراديز Venture de Paradis الذى زار الجزائر فى القرن الثامن عشر م . قال : « ان الميزابيين بالجزائر ـ يقصد العاصمة ـ يتمتعون برعاية ولاة الاتراك أكثر مما يتمتع بها العرب ، انهم يديرون المطاحن ، والمخابز ، والحمامات ، وضعيات تربية المواشى .

وكانت لهم تعاضديات تخضع لقوانين خاصة ، ويشرف عليها الامين الذى يرشحونه وتوافق على ترشيحه السلطات ، وهذا الامين هو الذى يتولى قبض المغارم ، وغيرها بحيث انه هو الواسطة بين رعاياه والسلطات » .

ومما يضاف الى نشاطاتهم الاقتصادية احياء الارض الموات ونظام الرى ، والامن العام ، كما ان للمرأة الاباضية دورا مرموقا فى الميدان الفكرى ، اذ هى تساند الرجل فى تربية النشء وتوجيه المرأة ومراقبتها وقد خصصت لهذا الجانب الآنسة قواشوه Goichon كتابا اطلقت عليه اسم « حياة المرأة فى مزاب » وقدمه المستشرق الشهير وليام مارسى أستاذ جامعة باريس فى عهده ، كما قرظه مارسيل مرسى Marcel Mercier المتقدم الذكر ـ أى الذى ألف كتابا فى الفن المعمارى ببلاد مزاب ـ ونشر تعليقه فى « المجلة الافريقية » بعددها المؤرخ فى سنة 1933 ، وهـذه الدراسات أو التقاريظ لا تخلو من اغراض ـ رغم فوائدها ـ اذ كثيرا ما يمزج اصحابها التاريخ بالاساطير .

والخلاصة ، ان الاباضيين امكنهم ان يصارعوا الاهوال والاحداث بحكمة ويقظة ، فحافظوا على تعاليم مذهبهم وسايروا الزمان فى ميادين النشاط الاقتصادى ، فزاحموا

فى التجارة بمدن الشمال التى اخضعها التجار اليهود الذين غزوا العالم ومـن جملته بلاد المسلمين التى وجدوها لقمة سائغة ـ ودورهم فى عهد الاتراك مشهور عند جـل المؤرخين ـ كما ان نظامهم الاجتماعى والدينى مكناهم من اطمئنان نفوسهم على أهلهـم وذويهم ، الذين كانت تلجئهم ظروف الهجرة الى مفارقتهم ، حيث كانت جماعة المسلمين هى التى تتولى رعايتهم ، أى تربية البنين والبنات وتعليمهم ورقابة الاسرة ، والاهتمام بشؤونها ، فى الحياة العامة والخاصة ، ونظام القضاء ، والشرطة ، ولا زال للقضـــاء سيفه الحاد ، الذى يسلطونه على كل من سولت له نفسه الانحراف وعدم الخضـوع للاحكام الصادرة عن القضاء الشرعى ، وكيفما كانت آراء الناس فى هذه النظم ، التى ينسبها البعض الى التعصب ، والعنصرية ، أو الرجعية المتخلفة ، فانها مكنت طائفـة من الطوائف الاسلامية ، ان تجمع بين محاسن الماضى والحاضر وتفرض احترامها عـلى المواطنين الذين يعيشون معهم فى بلاد الشمال ، وقد برهنت هذه الطائفة انها خدمت العلم واللغة العربية بوسائلها الخاصة ومجهودات المواطنين ، فكانت مدارسها الاهلية ونظام الحج ، والتعريب مما خلدها لها التاريخ ٠

ورقلة
من خلال النصوص الأجنبية

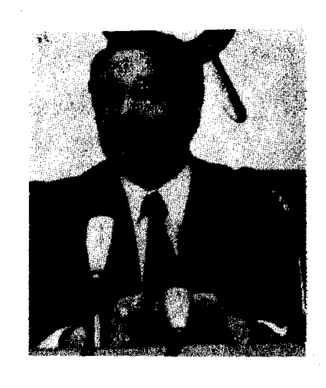
د • مولاى بلحميسى

معهد العلوم الاجتماعية

دائرة التاريخ ـ جامعة الجزائر

مقدمة

ان ماضي ورقلة وناحيتها تتضح معالمه من هذه النصوص المستقاة من كتب تاريخ وحضارة وادى ميزاب ومن دراسات اجتماعية ليست دائما فى متناول القراء ولا سيما اذا كانوا من الشباب •



ان كثيرا من الكتاب الاوروبيين والفرنسيين بشكل خاص قد عنوا بالحياة فى صحرائنا منذ قرون ، ولم يفتهم أن يعربوا عن اهتمام خاص بورقلة ـ ان المدينة وواحتها هما من أقدم ما فى الصحراء ، ويبدو أن هيرودوت وصف منظرها (32 ، 2 • 2) وربما عد شعب الغارامانت السكان الاصليين لورقلة •

وهذه المقتطفات المختارة من وثائق مبعثرة أو صعبة المنال ستمكن قراء الاصالة الذين لم يتمرسوا بعد باستخدام اللغة العربية وبشكل خاص اخواننا الذين هم فى الجهة الاخرى من البحر المتوسط أن يتفرقوا على المدينة التى تحتضن فى هذه السنة ملتقى الفكر الاسلامى ٠

ورقلة ـ وصف عام حوالى 1862

تعرض المدينة أسوارها الواسعة المستديرة التى نتبين داخلها رغم الانقاض أحياءها الثلاثة الجلية التى تتألف منها ، وكل حى منها يدعى باسم البطن الذى يسكنه ٠ وهذه البطون هى : بنو سيسين ، وبنو وجين ، وبنو ابراهيم ٠ وتتألف من كل واحد من هذه الاحياء مدينة داخل المدينة وتفصله عن الاحياء الاخرى أسوار وأبواب ، وما أكثر ما دوى البارود قديما بين حى وحى ٠ ولم يكن قصرا لسلطان الراسى على ربوة صغيرة الا معقلا أو بالحرى خصبة حصينة ٠ وكان لهذه القصبة المستندة الى سور كبير مدخل شرقى لا يزال يدعى باب السلطان وباب سرى ، وكان فى هذا المعقل كل الترف الذى يسمح لكل ملك لورقلة أن يطالب به ، ومع الاسف لم يبق من حطام هـذا الملك الا الخراب : مئذنة ضئيلة منتصبة وبضع حجرات هى مباءة للبؤساء ـ الانهج ضيقة لا تسمح فى أماكن شتى منها أن يرجع الفارس ادراجه ولو أراد ذلك ، وأغلب البيوت لا طوابق لها ٠ وقد بنيت من اللبن ، وكم منزل زين بابه بزخارف من الجص ونقش عليه آية من القرآن الكريم ٠

ولقد لفتت سوق ورقلة انتباهنا ٠ وليست السوق الا عبارة عن مجزرة عرضت فيها اضفاف من اللحم لاشعة الشمس المحرقة ٠ ولحم الابل يباع فيها عموما ٠

دور ورقلة فى تجارة افريقية الشمالية مع السودان

كان بجانب الطريق تاهرت ـ سجلماسة ـ غانا طريق آخر يقطع الصحراء من الناحية الشرقية فى عهد الرستميين ٠ وكانت مراحلها : واحة ورقلة فى شمال الصحراء ومدينة تادمكت التجارية (اليوم أطلال سوق) فى جنوب هذه الصحراء

فى الشمال الشرقى لمدينة غاو . وهذه الطريق التى نعرف مراحل البريد فيها بفضل الجغرافيين العرب من القرن التاسع الى القرن الثانى عشر كانت تمر على مدن تنس ومليانة والمسيلة كما كانت تمر على كورة الزاب وواحة طبنة وبسكرة متجهة نحو ورقلة التى كان يسكنها طوائف شتى بربرية اباضية وكانت مركزا خطيرا تجاريا وهو ـ كمنطلق للقوافل المتجهة قديما من افريقية الشمالية الى السودان الغربى ـ صالح للمقارنة بينه وبين مركز سجلماسة على الطريق التجارية تاهرت ـ غانا ـ وحسبما ذهب اليه الادريسى المسافة بين المسيلة وورقلة تقدر بمسيرة اثنى عشر يوما بأكملها . ويغلب على الظن أن هذه الطريق كانت تمر على وادى الخير الذى كان ازدهاره متوقفا ـ من دون ما شك ـ على التجارة مع السودان التى نفقت حول التجارة الافريقية الشمالية مع السودان : « تسكن فى هذه المدينة أسر ثرية وتجار جد أثرياء يقطعون بلاد الزنوج لممارسة التجارة ويتوغلون حتى غانا وفنكاره حيث يستخرجون الذهب الذى يسك من بعد فى وارجلان بدمغة هذه المدينة » .

ولا شك فى أن علاقات ورقلة التجارية هذه مع السودان الغربى كانت موجودة فى القرن التاسع فى عهد أئمة تاهرت الرستميين الذين امتد سلطانهم حتى شمل ايامهم ورقلة ، أضف الى ذلك أن وارجلان كانت أيضا فى ذلك العصر مرحلة على الطريق التى تصل مدينة توزر (فى جنوب البلاد التونسية) بسجلماسة .

T. Lewicki : L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIII^{e} et au IX^{e} siècles - Cahiers d'Etudes Africaines N° 8, 1962. N° 5/3-535

الخطوط الكبيرة للمملكة الرستمية :

ورقلة ـ تاهرت تمتد بعيدا نحو الشرق حتى أبواب طرابلس . وثم منطقة ذات خطر هى منطقة ورقلة ـ لما أضطر آخر امام رستمى يعقوب الى فراق تيهرت هرب توا الى ورقلة . « وصل اليها دون أن يحول شىء بينه وبينها واستقبل فيها كما لو كانت بلده » ، « وغمروه بالاجلال والتعظيم وأكرموا وفادته » .

وقع هذا سنة 909 م . وعند سقوط المملكة الرستمية صارت ورقلة مدة طويلة ملاذا للمخلصين منهم فى عاقبة الامر ، ورد فى كتاب أبى زكريا : « سير الائمة

وأخبارهم (La Chronique d'Abu Zakaria) تعود الشيخ الاباضى أن يقضى الشتاء فى وادى الخير (الذى تقع ورقلة الواحة فى أقصى جنوبيه) ثم يرجع عبر الصحراء الى بنى ميزاب » ٠

عندما صارت ورقلة نفسها بعد زمن طويل غير صالحة للسكنى اجتمع فى وادى ميزاب كل من بقى من المتمسكين بالمذهب الاباضى الجزائرى ٠

E. F. Gautier : Le passé de l'Afrique du Nord, p. 305.

مقر آخر للمذهب الخارجى : سدراته

لما استولى جيش كتامة سنة 908 بقيادة أبى عبد الله الداعية الشيعى على العاصمة الرستمية هرب الذين نجوا من المجزرة الى الصحراء ولجأوا الى أحضان سكان ورقلة الاباضيين فى واحة تنتمى حسب الظواهر الى بدو سدراته ٠ وكانوا ضيوفا دوريين من مدينة تيهرت ٠ والمدينة الصحراوية سدراته أو اسدراتن ، كانت فى القرن العاشر عاصمة المذهب الاباضى ريثما تنتقل الجالية الى وادى ميزاب بمسجد ومساكن خاصة جد واسعة اخرجت بشكل غير كامل من رمال سدراته ٠

ويظن أن هندسة هذه الابنية وزخارفها المنقوشة تمثل تراث تيهرت الفنى المتبلور على أقل تقدير ـ ولوقت ما ـ فى هذا البلد البعيد ٠ فى حين أن قصر تيهرت يجعلنا نذكر المساكن الاموية ، بينما تحمل الينا أطلال سدراته صدى خافتا من بذخ الخلفاء العباسيين وفق الخوارج هذا المخالف لفن القيروان يظهر لنا متسما بالتعقد ٠ ولكنه باختصار يستمد عناصره من نفس المنابع ٠

Georges Marçais : La berbérie musulmane et l'Orient au Moyen-Age, pp. 115-116.

غرغاله (ورقلة) فى القرن السادس عشر

هى مدينة عتيقة بناها النوميديون فى صحراء نوميديا ولها سور جداره مبنى بلبن غير مطبوخ وبيوت جميلة وحولها بستان نخل ـ وفى أرباضها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى ٠ وفى المدينة كثير من الحرفيين وسكانها أغنياء لصلتهم بمملكة

أغادز ٠ ومن بين هؤلاء كثير من التجار الاجانب في البلد وبخاصة الذين قدموا من قسنطينة وتونس يحملون الي غرغاله منتوجات من بربريا ليأخذوا بدلها منتوجات يجلبها تجار أرض الزنوج ٠ القمح واللحم مفقودان جدا ٠ ويستهلك الناس لحم الابل والنعام ٠ وأكثر الرجال زنوج ليس من أجل المناخ ٠ بل لان لهؤلاء الناس اماء كثيرات٠ ولذلك لهم أولاد زنوج ٠ والسكان كرام لطاف ٠ ويستقبلون الاجانب استقبالا حسنا لان كل ما عندهم يأتيهم من هؤلاء ٠ من ذلك القمح واللحم المملح والسودك والجوخ والقماش والاسلحة والسكاكين ٠ وباختصار كل ما يحتاجه السكان٠ لها سلطان تقيم له حفلات ملكية لتكريمه ٠ وهو يقوم بنفقات ألف فارس لحراستهم ٠ وتدر عليه دولته مائة وخمسين ألفا من القصع الذهبية ٠ ويدفع لجيرانه العرب غرامة باهضة ٠

Léon l'Africain : Description de l'Afrique - Tome II, pp. 438-439.

الوضع الاقتصادى والسياسى فى الماضى

فى ورقلة عنصر ثالث ـ علاوة على السكان المقيمين والرحل فيها ـ وهو الطفيليون ـ ماذا نقول وبا اليهود ؟

استأذن فى ذكر حادث شخصى : وصلت الى ورقلة سنة 1898 للاشراف على الحفريات التى عهدت بها الى الولاية العامة الجزائرية ، وقد ضاق على الوقت وأردت أن أشرع فى العمل لما رأيت رسالة تخص مهمتى والبرقية الرسمية التى تخبرنى بأن المال غادر الجزائر العاصمة ٠ وقد قيل له بطريقة لطيفة : « هذه الوثائق هى أوراق مالية » ، وأعير لى عن طيب نفسى مبلغ مائتى فرنك لمدة عشرين يوما بفضل 80 ٪ ٠ لقاء أى نسبة مئوية يعير الصير فى اذا كانت السنة رديئة وجاء اليه رجل مسكين يطلب اليه أن يعيره ما يسد به رمقه ؟

السكان الرحل كالسكان المقيمين يكابدون أذنى كبيرا من اليهودى ٠ ليكن عشرون قطعة معارة لقاء أقل فضل 20 ٪ ومع القبول باعارتها ٠ ولكنها لم تقبض بعد ٠ فاليهودى لا يحجز ابل مدينه ٠ بل يستخدمها : « احمل لى هذا الى غدامس وأعفيك مما لى عليك هذا العام » ٠ يحمل المسكين البضاعة على ابله ستة دائنين ٠ ان يهود

ورقله يكتبون قائمة غرمائهم الرحل الرجل الذى يسخره لذلك • والتمور التى ينتجها السكان المقيمون مجانا • يحملها الرجل مجانا •

والحادث باهض بقدر ما هو جديد • لم تكد تمضى سنوات منذ استخدام اليهود للربا فى الجنوب ، وقد كان للربا وقع ثقيل فى وادى ميا ووادى الخير •

P. Blauchet : L'Oasis et le pays de Ouargla - Annales de géographie, 1900, pp. 153-154.

ورقلة فى الرحلات :

ورقلة ملكة الواحات المدعوة واحة السلاطين ، كانت عاصمة مملكة صغيرة جدا بعيدة فى الصحراء المترامية الاطراف فى وسط الرمال كأنها جزيرة خضراءفى خضم من النار محصنة بسور مبنى « بالطابية » يصونه خندق تتعهده السلطة بالاصلاح • تفتخر المدينة بانعزالها وبأسوارها لتظهر فى مظهر الملك • عندما تحمل ريح الجنوب حتى شاطىء البحر المتوسط صدى ورقلة ينصت الناس بقلق حتى كأنه السحر • ألم تكن مدينة البعد السحيق ومدينة المجاهل ؟ — بجانب الرحلات المظلمة كان يخيل الى الناس أنهم يسمعون حفيف النخيل يوقعه نسيم الصحراء • ويرى الناس عبر السراب المدينة المتدثرة بأسوارها يحيط بها نطاق من البساتين والنخيل •

يزين مفرقها أكليل ملكة الواحات ملتفة فى حضرتها وبرودتها • والبقع الحمراء من الدم ملقاة على جبتها الخضراء كأنها مزق من الارجوان تزين مدينة السلاطين •

ورحال القوافل الجريئون الراجعون منها السائقون لقطر الابل الطويلة محملة بالتمور لم ينسوا أن يقصوا قصصا شتى ملؤها العجائب • وكان لرحالة الصحراء هؤلاء هيئة تضفى على قصصهم تارة معركه دامية بين حين وحين وتارة معركة بين ورقلة ونقوسة وأحيانا بين ركام غابة النخيل فى الطرق المظلمة الملتوية المؤدية الى أبواب القصبة الملكية • وتريك تلك القباب المبيضة ابنية دينية شيدت لتذكر بالاولياء المحترمين المقدسين أو تسمعك أغانى الليل فى الجنان على ضفاف السواقى النابعة من الآبار الارتوازية •

Cdt V. Colomieu : Voyage dans le Sahara algérien (Collect. Tour du Monde 1863, n° 169.

ورقلـــة ـ المتحـف

ورقلة مزيدة فى نوعها فى الصحراء كلها ، ليس من السهل أن نجمـــع (فى المتحف) وثائق اذا كنا نعيش فى الصحراء ولكن نتذكر هنا غالبية أمجاد الصحراوية منذ انجاز الرواد مآثرهم حتى الاستيلاء على الغط والفزان · ان تحفة من أطرف التحف ربما ترتقى فى الزمن الى ما قبل التاريخ ـ ولو منحتها الاسطورة أصلا أقـل قدما ـ هى صخرة ضخمة اسطوانية الشكل بها حز فى وسطها ذو فتحة ذات عمق قليل تمكن من ربطها بحبل · قد ادعى بعضهم أن شخصا اسمه ابن البرور توعدته تكهنات بأنه يموت بعضة جمل ، فأراد ابن البرور أن يهدىء الابل بتسطيح الطريـق بين المنيعة وورقلة · فربط جملا صغيرا فى مرداسه البدائى · ولما صار الجمل قويا أطلقه وعوضه بآخر أقل خطرا منه · ففى يوم من الايام شعر ابن البرور بعد فـوات الأوان أن لرفيقه فى العمل فكا ذا ضروس مخيفة · فأرادت البهيمة أن لا تكـــذب التكهنات وفتحت فما ضخما وهرست رأس مولاها ·

R. Pottier : Le Sahara, pp. 67-69.

اشيـــاء صحراويـــة :

ادع جانبا التجار والخضر والفواكه ورؤوس الابل ذات العيون الكابية وأتجه نحو يهود انحنوا على سنادين صغيرة بجانب نار متقدة حمراء وهم يصنعون السكاكـــين المخيفة التى يجب أن يحملها كل ورقلى حقيق بهذا الاسم على جنبه الايسر عند بلوغه سن الرشد ، وكان الشبان الرومان ـ فى هذه السن ـ يلبسون التوجة الرجولية فى عهد القياصرة ·

ولكن السوق امتلأت بالناس اكثر فأكثر وتشكلت الجموع وتهيأت الصفقـات واستحالت السوق الى بيت نمل كبير ، أذهب لانى صرت ـ فى وسط الاهلين فى حالة تختلف عن حالتهم · اسلك فى أول نهج صادفنى · وفجأة استلفت انتباهى علامة فوق باب تمثل صخرة من الحجر لها مظهر يشبه شبها غامضا رجلين موصولتين بطبق · والاطباق بعضها منكسر وبعضها سالم · دعوت رجلا من الاهلين فأخبرنى انها علامـة

التأنيث (عشتروت) اذا رئى الطبق سالما فذلك علامة على أن فى المنزل فتاة صالحة للتزويج . فاذا ثم الزواج كسر الطبق .

André Norpel : Aux portes du Sud - Nevers 1940, pp. 42-44.

ورقلـــة ـ اشتقـــاق :

ليس من المستحيل أن يكون أصل ورقلة ـ المركز الرئيسى التجارى الواقع عـلى طريق بسكرة ـ توقرت ـ الصحراء الشرقية ـ له ارتباط بازدهار التجارة الرومانية والبيزنطية فى هذه البقاع . وفى الحقيقة أن المرء قد يتساءل أن شعب الاورسيليانى الافريقى الذى ذكره فنجيس (1) بصفته كاسبا ابلا مستخدما لها فى حروبه ألا يجب أن يتماثل مع وارجلان .

T. Lewicki : L'Etat nord-africain - Note 76, p. 532.

(1) Epit Rei Militaris, III, 23.

CHOSES SAHARIENNES

... Je laisse les marchands, les légumes, les fruits et les têtes de chameaux aux yeux vitreux... Je me dirige vers des Juifs qui, baissés sur de petites enclumes, à côté de quelques braises rouges, fabriquaient les redoutables poignards que tout digne Ouargli doit porter à son côté gauche dès qu'il a atteint l'âge nubile. C'est à ce moment-là que les jeunes romains revêtaient la toge virile sous les Césars...

Mais le souk se remplit de monde de plus en plus, des groupes se forment, des marchés se préparent ; le souk s'est transformé en une grande fourmilière. Je pars, car, au milieu de ces indigènes je fais contraste, je prends la première ruelle. Soudain mes yeux sont attirés par un signe qui se trouve au-dessus de chaque porte.

Il représente un bloc de pierre ayant vaguement l'apparence de deux jambes reliées entre elles par une assiette. Les assiettes sont les unes cassées, les autres intactes. J'appelle un indigène ; il m'apprend que c'est le signe de Tanit (Astarté). Quand on voit l'assiette intacte, c'est que dans la maison demeure une jeune fille à marier... quand le mariage est consommé on casse l'assiette...

André Norpel ; Aux Portes du Sud - Nevers 1940, pp. 42-44.

OUARGLA : ETYMOLOGIE

Il n'est pas impossible que les origines de Ouargla... principal centre commercial situé sur la piste Biskra - Touggourt - Sahara oriental soient liées à l'épanouissement du commerce romain et byzantin dans ces parages.

On se demande en effet si le peuple africain des *Urcilliani* cité par Végèce, (Epit Rei Militaris, III, 23), comme possédant des chameaux et utilisant des animaux dans leurs guerres ne doit pas être identifié avec Warqlân...

T. Lewicki ; L'Etat nord-africain - Note 76, p. 532.

une enceinte en pisé que protégeait un fossé bien entretenu, la fière cité se targuait de son isolement et de ses murailles pour jouer à la royauté...

Lorsque le vent du Sud apportait jusqu'au littoral méditerranéen un écho d'Ouargla on écoutait avec anxiété, presque avec charme. N'était-ce pas la ville du lointain, de l'inconnu ? A coté des sombres récits, on croyait entendre le murmure des palmiers poussé par la brise du désert. On voyait à travers le mirage, la cité mystérieuse entourée de sa ceinture de jardins et de dattiers, ornée de son diadème de reine des Oasis, luxuriante de verdure et de fraîcheur. Les quelques tâches de sang jetées sur sa robe verte étaient comme des lambeaux de pourpre qui seyaient bien à la ville des Sultans.

Les hardis caravanistes qui en revenaient conduisant de longues files de chameaux chargés de dattes... ne manquaient pas d'en raconter une foule de merveilles... Les voyageurs du désert avaient un aspect qui prêtait à leur narration, quelque chose de fantastique et d'attrayant à la fois. Tantôt ils racontaient un combat sanglant de quartier à quartier..., tantôt une bataille entre Ouargla et N'goussa ; d'autre fois ils vous menaient à travers les fouillis de la forêt de palmiers, dans les sentiers ombragés et sinueux qui conduisent aux portes de la casbah royale, vous montraient épars... ces Kobbas aux dômes blanchis, pieux monuments élevés à la mémoire des marabouts vénérés... ou bien ils vous faisaient entendre les chants de la nuit dans les jardins aux bords des ruisseaux s'écoulant des puits artésiens...

Commandant V. Colomieu : Voyage dans le Sahara Algérien (Collection Tour du Monde, 1863, p. 161).

OUARGLA : LE MUSEE

Ouargla est unique en son genre dans tout le Sahara... Il n'est guère commode de réunir (dans le Musée) des documents lorsqu'on vit au désert, cependant la plupart des gloires sahariennes sont évoquées ici depuis les exploits des premiers explorateurs jusqu'à la conquête du R'at et du Fezzan.

Une des pièces les plus curieuses et qui remonte peut-être à la préhistoire, bien que la légende lui donne une origine plus récente, est une grosse pierre cylindrique entaillée en son milieu d'une gorge peu profonde permettant de la lier avec une corde.

On prétend qu'un certain Ben El-Barour, menacé par une prophétie de mourir victime de la morsure d'un chameau voulut apaiser la gent cameline en aplanissant la piste entre El-Goléa et Ouargla. Il attelait un jeune chameau à son primitif rouleau compresseur, mais, dès que son aide devenait adulte, il lui rendait la liberté et le remplaçait par un congénère moins dangereux.

Un jour vint où Ben El-Barour s'aperçut trop tard que la machoire inférieure de son compagnon de travail s'ornait de terribles molaires. La bête, pour ne pas faire mentir la prophétie, ouvrit une bouche énorme et broya la tête de son maître....

R. Pottier : Le Sahara - pp. 67-69.

des enfants noirs. La population est généreuse et aimable. Elle fait très bon accueil aux étrangers parce qu'elle ne possède rien qui ne lui vienne d'eux en ce qui concerne le blé, la viande salée, le suif, les draps, les toiles, les armes, les couteaux, en un mot tout ce dont elle a besoin.

Elle a un seigneur auquel elle rend les honneurs royaux. Celui-ci entretient pour sa garde un millier de cavaliers. Son Etat lui rapporte cent cinquante mille ducats et il paie à ses voisins arabes un tribut élevé.

Léon l'Africain ; Description de l'Afrique, T. II, pp. 438-439.

SITUATION ECONOMIQUE ET POLITIQUE DANS LE PASSE

Il y a à Ouargla un troisième élément, après le sédentaire et le Nomade : c'est le parasite... les Juifs.

Que dire alors de l'usure juive ?... Je demande la permission de citer ici un fait personnel : j'arrivai à Ouargla en 1898, pour y exécuter les fouilles dont m'avait chargé le gouvernement général de l'Algérie... Le temps cependant me pressait et je voulais commencer les travaux : sur le vu de ma lettre de mission et du télégramme officiel m'annonçant que les fonds avaient quitté Alger — " ces papiers-là sont des billets de banque " me disait-on gracieusement — on consentit à me prêter 200 frs pour 20 jours à 180 %. A quel taux prête mon " banquier " quand l'année est mauvaise et qu'un pauvre homme vint lui demander de quoi ne pas mourir de faim ?

Les Nomades comme les sédentaires souffrent du Juif. Soit 20 écus prêtés à un intérêt minimum de 200 % consenti et non payé : le Juif ne fait pas saisir les chameaux de son débiteur, il les emploi : « Porte-moi ceci à Ghadamès et je te tiens quitte pour cette année ». Le pauvre diable charge et part. Ci, deux mois de route ; s'il a six créanciers, il n'est plus qu'un esclave. Les Juifs de Ouargla Ghardaïa, Laghouat, dressent la liste de leurs débiteurs nomades et l'expédient à leurs correspondants. Y a-t-il transport à effectuer, on y choisit l'homme à faire marcher ; et les dattes produites gratis par les sédentaires, sont transportées gratis par les nomades.

Le phénomène est d'autant plus grave qu'il est tout récent. Il y a à peine quelques années que l'usure juive a commencée de s'exercer dans le Sud et déjà dans l'Oued Mya comme dans l'Oued Righ elle a fortement marqué son empreinte...

P. Blanchet ; L'Oasis et le pays de Ouargla - Annales de Géographie, 1900, pp. 153-154.

OUARGLA DANS LES RECITS DES VOYAGEURS

Ouargla, la sultane des Oasis, surnommée l'Oasis aux Sultans, était autrefois la capitale d'un royaume microscopique. Perdue dans l'immensité du Sahara, au milieu de sables, comme un ilôt de verdure dans un océan de feu, défendue par

Ceci dut se passer en 909. Dans l'effondrement du royaume ibadite, Ouargla fut longtemps le refuge des derniers fidèles. « Le Cheikh ibadite, dit la chronique [d'Abu Zakariya], avait l'habitude de passer l'hiver dans l'Oued Righ (dont Ouargla est l'oasis la plus méridionale) et il retournait dans le désert chez les Béni M'zab ». Lorsque, à la longue Ouargla même devint inhabitable, c'est en effet au M'zab que se groupa tout ce qui restait de l'ibadisme algérien...

E. F. Gautier ; Le passé de l'Afrique du Nord, p. 305.

UN AUTRE FOYER KHARIDJITE : SEDRATA

Lorsqu'en 908, l'armée des Kotama conduite par Abou 'Abd Allah le missionnaire chi'îte, se fut emparée de la capitale rostémide, ceux qui avaient échappé au massacre s'enfoncèrent à travers le Sahara : ils trouvèrent asile près d'Ouargla au milieu de populations ibadites, dans une Oasis qui vraisemblablement appartenait aux nomades de Sédrâta, hôtes périodiques de Tihert.

La ville saharienne de Sedrâta ou Isadraten fut, au xe siècle, une métropole du kharidisme ibadhite, en attendant que la colonie se transportât au M'zab... Une mosquée, des demeures privées fort vaste ont été en partie exhumées des sables de Sedrâta.

On conjecture que l'architecture de ces édifices et leur décor sculpté représentent l'héritage artistique de Tihert cristallisé au moins pour un temps, dans ce pays perdu...

Alors que le château de Tihert nous faisait penser aux résidences omeyyades, les ruines de Sedrâta nous apportent un écho affaibli des somptuosités 'abbassides. Cet art des Kharidjites, assez différent de celui de Kairouan, se révèle complexe comme lui et, en somme, puisant aux mêmes sources.

G. Marçais ; La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen-Age, pp. 115-116.

GUARGALA (OUARGLA) AU XVIe SIECLE

C'est une ville extrêmement ancienne bâtie par les Numides dans le désert de Numidie. Elle a un mur d'enceinte en briques crues, de belles maisons et tout autour, une vaste palmeraie. Aux environs existent plusieurs châteaux et une infinité de villages. La ville est bien pourvue d'artisans et les habitants sont très riches parce qu'ils sont en relation avec le royaume d'Agadez. Parmi ceux-ci on trouve beaucoup de marchands étrangers au pays, surtout venus de Constantine et de Tunis. Ils apportent à Guargala des produits de Berbérie pour les échanger avec ceux apportés par les commerçants de la terre des noirs.

Le blé et la viande manquent beaucoup : on mange du chameau et de l'autruche. Les hommes sont pour la plupart nègres, non pas à cause du climat, mais parce que ces gens ont beaucoup d'esclaves noires... si bien qu'ils en ont

ROLE DE OUARGLA DANS LE COMMERCE NORD-AFRICAIN AVEC LE SOUDAN

A côté de la voie Tahert-Sidjilmasa-Gâna, il y en avait une autre qui, à l'époque rostémide, traversait le Sahara à l'Est... Elle avait pour étapes : l'oasis de Ouargla dans le nord du Sahara et la ville commerciale de Tâdemekket(aujourd'hui les ruines du Souk) dans le Sud de ce désert au Nord-est de Gao. Cette voie dont on connait les relais grâce aux géographes Arabes du IXe-XIIe siècles, passait par les villes de Ténès, Miliana, al M'Sila, ainsi que par le district de Zâb, par l'oasis de Tubna et Biskra, en se dirigeant vers Wârqlar (Ouargla) qui était un lieu habité par divers groupes Berbères ibâdites et un important centre commercial, dont le rôle comme point de départ des caravanes qui se rendaient de l'Afrique du Nord au Soudan Occidental peut être comparé à celui de Sidjil Masa sur la voie commerciale Tahert-Gâna.

D'après Al-Idrissi (1154), on compte douze fortes journées de marche d'al M'Sila à Ouargla. Cette voie passait probablement par l'Oued Righ dont la prospérité dépendait sans doute du commerce avec le Soudan qui se faisait par cette route.

Voici ce que dit Al-Idrissi sur le rôle de Ouargla dans le commerce nord-africain avec le Soudan :

> « Cette ville est habitée par des familles opulentes et des négociants fort riches qui, pour faire le commerce parcourent le pays des nègres et pénètrent jusqu'à Gâna et au Wanqara d'où ils tirent de l'or qui est ensuite frappé à Warqlân et au coin de cette ville... ».

Il n'y a aucun doute que ces rapports commerciaux de Ouargla avec le Soudan occidental existaient déjà au IXe siècle au temps des Imams Rostémides de Tahert dont l'autorité s'étendait sur les Ibadites de Ouargla...

Ajoutons encore que Warqlân était aussi à cette époque une étape sur la route reliant la ville de Tozeur (dans la Tunisie du Sdu) avec Sidjilmâsa...

T. Lewicki : L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du VIIIe et au IXe siècle ; Cahiers d'Etudes Africaines N° 8, 1962, pp. 513-535.

LES GRANDES LIGNES DU ROYAUME ROSTEMIDE : OUARGLA PREND LA RELEVE DE TIHERT

Il va très loin à l'Est jusqu'aux portes de Tripoli... Un autre point important est la région d'Ouargla.

Lorsque le dernier Rostémide, Yacoub, fut forcé de quitter Tiaret, il s'enfuit tout droit à Ouargla, « il y arriva sans obstacle » et y fut reçu comme chez lui. « On le combla d'honneurs, on lui fit une réception magnifique ».

OUARGLA : DESCRIPTION GENERALE VERS 1862

La ville étale au pied de sa vaste enceinte circulaire dans l'intérieur de laquelle on distingue malgré les ruines, les trois quartiers distincts qui la composaient. Ces trois quartiers portent les noms des fractions qui les habitent ; ce sont les Béni Sissin, Béni Ouaggin et Béni Brahim. Chacun de ces quartiers constitue une ville dans la ville et est séparé des autres par des murailles et des portes. La poudre parlait souvent, autrefois, de quartier à quartier.

Le palais du Sultan placé sur une petite éminence... n'était qu'une citadelle une casbah fortifiée. Cette casbah, adossée au grand rempart avait une entrée d'honneur nommée encore Bab-al-Sultan et une porte secrète. L'intérieur de la citadelle avait tout le confort que pouvait raisonnablement exiger un Sultan d'Ouargla... Hélas, il ne reste plus que des ruines de tout cet attirail de royauté : un petit minaret debout, quelques chambres servant d'asile à des malheureux...

Les rues sont étroites et dans bien des points il serait impossible à un cavalier de tourner bride. Les maisons sont presque toutes sans étages ; elles sont construites en briques de terre. Nombre de portes de maisons sont garnies d'ornements en plâtre et d'une inscription tiré du Coran...

La place du marché d'Ouargla fixa notre attention. Le marché n'est autre que la boucherie... Les viandes y sont étalées en plein soleil... La chair de chameau s'y vend communément...

Commandant V. Colomieu : Voyage dans le Sahara Algérien (Collect. Tour du Monde 1863, pp. 183-184).

Dans ces textes empruntés à des livres d'histoire, ou de civilisation du M'zab, ou d'études sociologiques qui ne sont pas toujours à la portée des lecteurs et notamment les jeunes, le passé de Ouargla et de sa région se dessine.

Beaucoup d'écrivains européens et français en premier lieu, se sont penchés sur la vie dans notre Sahara depuis des siècles. Ils n'ont pas manqué de consacrer à Ouargla un intérêt tout particulier. La cité et son oasis sont des plus anciennes du désert. Hérodote paraît avoir décrit son site (L. II, 32). Les Garamontes peuvent être considérés comme les autochtones de Ouargla.

Ces extraits choisis dans des écrits épars ou d'accès difficiles permettront aux lecteurs d'Al-Açala, qui ne maîtrisent pas encore la langue arabe, particulièrement nos frères de l'autre côté de la Méditerranée de faire la connaissance de la ville qui abrite cette année le séminaire sur la pensée islamique.

M. B.



